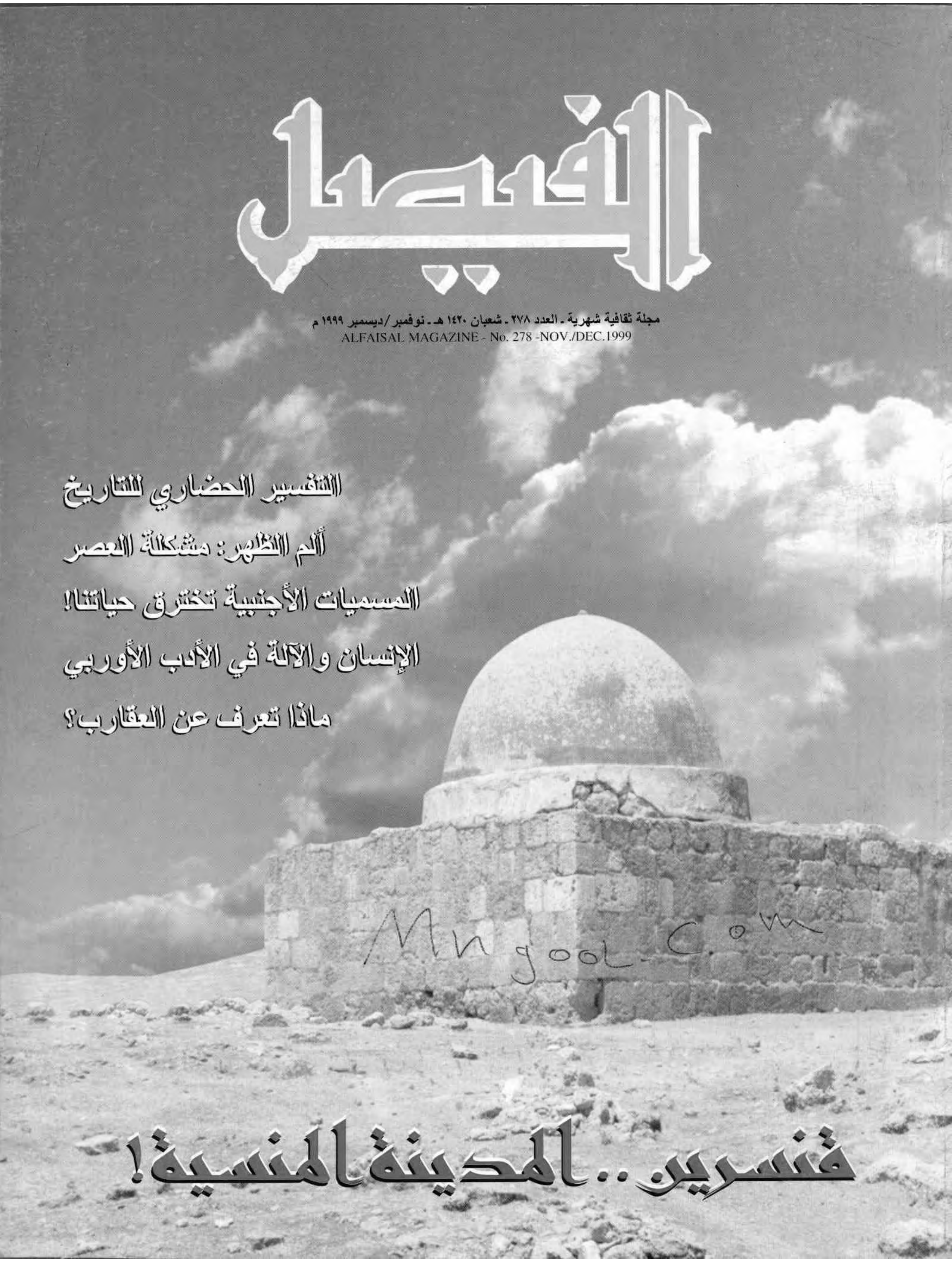
الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٧٨ - شعبان ١٤٢٠ هـ - نوفمبر/ديسمبر ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 278 -NOV./DEC.1999



التفسير الحضاري للتاريخ

ألم الظهر: مشكلة العصر

المسميات الأجنبية تخترق حياتنا!

الإنسان والآلة في الأدب الأوربي

ماذا تعرف عن العقارب؟

قنسرين.. المدينة المنسية!

الفيصل
الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيه - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ٨٠ ديناراً - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

مصر - مؤسسة توزيع الأهرام - شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ - فاكس ٣٣٩١٠٩٦ - ٢٠٢..، سورية - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨ - فاكس ٢١٢٢٥٣٢ - ١١ - ٩٦٣..، تونس - الشركة التونسية للصحافة - ٣نهج المغرب - فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ - ١ - ٢١٦..، قطر - دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٢٨٢ - فاكس ٦٦١٨٦٥ - ٩٧٤..، الأردن - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢ - ٦ - ٩٦٢..، البحرين - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٥٣١٢٨١ - ٩٧٣..، الإمارات العربية المتحدة - مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ - فاكس ٦٦٩٨٢٧ - ٤ - ٩٧١..، الجزائر - مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة. ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ - ٢١٣..، الكويت - شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩ - ٩٦٥..، السودان - دار التوزيع العام - ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ - فاكس ٧٧٥٧٧٠ - ١١ - ٢٤٩..، المغرب - CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA - MOROCO TEL: ٢٤٥٧٤٥، فاكس ٤٠٤٠٣١/٣٢-٢١٢..، باكستان PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: ٥٦٨٣٤٩٤ - فاكس ٥٦٨٢٧٠٤-٢١-٩٢..، الجمهورية اليمنية - محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ - فاكس ٢١١٥٣٥ - ٣ - ٩٦٧..، سلطنة عمان - المتحدة لخدمة وسائل الإعلام - ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت:٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ - فاكس ٧٠٦٥١٢ - ٩٦٨..



قنسرين.. المدينة المنسية

قنسرين مدينة عريقة الحضارة أصبحت أثراً بعد عين، وتقوم على أطلالها بلدة صغيرة تسمى العيس، فما أهم المحطات في تاريخ هذه المدينة؟ وما أهم آثارها؟ وإلى متى سيظل كثير منها مدفوناً تحت التراب؟ ص٣٣

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،

أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ - ٠٢٥٨.

اعتذار

أعتذر إليك أولاً من قسوة الألفاظ التي كتبتها في حالة انفعال وغضب لم أتمالك فيهما نفسي وذلك في رسالتي التي ما كنتُ أودُّ أن تنشروها في المجلة (الفيصل) عدد ٢٧٢ ولكن سبق السيف العذل، ولقد أصبتموني في مقتلين:

الأول: عندما نشرتم تلك الرسالة الخارجة عن أصول الحوار وأدب الكلمة.

والثاني: عندما قمتم بإجابة ذلك الطلب الذي ذيَّلتُ به رسالتي المتهالكة في هجومها العنيف على إدارة التحرير الجديدة.

لا أنكر أن التغييرات التي حدثت أصابتني بالفاجعة فقد كنت أراها وأداً غير مستبطئ لنافذة ثقافية عملاقة، لكن التزام حدود الأدب في نقد الآخرين لا يعني بالضرورة الهجوم على ذات الشخص ولكن مناقشة طريقته وأسلوبه وطرحه ورأيه في سعة صدر وأدب، وما قُلته في تلك الرسالة لم يكن موافقاً؛ ولذلك رأيت أن أعود إلى نفسي، وأقرُّ لكم: بأني كنتُ متسرعًا في إطلاق تلك الأحكام الجزافية على الأشخاص دون الاكتفاء بنقد الأسلوب المستخدم في تطوير المجلة بعيداً عن الموازنة بين السلف والخلف، فالمجلة جهد الجميع وعرقهم.

إن ما دعاني اليوم لتسطير هذه الكلمات ليس تراجعاً عن النقد الذي رأيته ووجهته لذلك الانقلاب المفاجئ، ولكنه تراجع عن استخدامي لعبارات سعت في سبيل التنقيص من شخصكم الكريم وبما أنكم عاملتموني بما لا أستحق، فإنني أعلن لكم وبشجاعة: أن الحق أحق أن يُتَّبع، وأني سأكون البادئ بذلك، فأعلن لكم الاعتذار عما سبق وكتبته عنكم، وأقول: أرجو منكم المسامحة.

كما أتوجه بالشكر الجزيل على حسن ظنكم بي وبما كتبت، وكذلك على استجابتكم لذلك الطلب الذي جاء في سياق غير مؤدَّب، وسامحكم الله على هذه الثقة المفرطة في حسن الظن.

وتقبلوا تحياتي وتقديري.

عبده بن علي حسن الفيفي

جازان - فيفا - ص.ب ٤٢

ما أحوجنا إلى الكلمة الحرة

إن أفضالكم كثيرة علينا، وإن كرمكم أصبح يشملنا، وإن كانت محبتنا لكم، فهي بالأخوة أولاً، وبمحبة العلم ثانياً.

سيدي: لا أشكُّ إطلاقًا في نيتكم الخالصة لتصبح الفيصل في متناول كل عربي، هذا ما لاحظناه من خلال الفيصل ومن خلال بريدها وإذْ أثمن دوركم هذا، أدعو الله أن تكلل مجهوداتكم هذه بالنجاح، والشيء الذي يفرحني أن صدركم يتسع لكل الآراء، وخصوصاً تلك التي تتحامل بالنقد، في حين أن كثيراً من المجلات العربية لا تحمل هذه الصفة، فما أحوجنا إلى الكلمة الحرة والرأي الصريح.. إن الفيصل وهي تتبنى هذا الخط سوف نتفاعل لها كثيراً، وأشجع خطوة اتخذتها تكسير ذلك (الطابو) المتمثل في السماح بنشر قصائد التفعيلة على الرغم من نفور السواد الأعظم من قرائنا منها، ويبقى التحفظ عليها إلى حين.

أحمد موفقي

نائب رئيس الفرع الولائي لاتحاد الكتاب الجزائريين

بناية رقم ٢٢ - الباب: - ٠٥ - السقيفة حي الوسط - حاسي بحبح

١٧٣٠٠ - ولاية الجلفة - الجزائر

دور نبيل

أسمى معاني الود والإخاء مشوبة بأزكى التمنيات وأطيب التحيات أزفها إليكم من ربوع الجزائر؛ وذلك للدور النبيل الذي تضطلعون به مخلصين في سبيل توعية شباب العالم العربي الإسلامي والشباب العربي قاطبة وتعميق فكره وترقية ذوقه.

لقد جاءت مجلتكم «الفيصل» جامعة لكل ألوان الثقافة والفكر والأدب، فهي تزداد شمولاً في كل عدد جديد. لهذا أحيي جهود كل الذين يقفون وراء صدور هذه المجلة بهذا الشكل والمضمون العميقين والجميلين في الوقت نفسه. إني أكتب إليكم لأطلب منكم أن تراسلوني لأنني كما تعرفون أحصل على مجلتكم بصعوبة وقد تصلني في الوقت المناسب لأنني مولع بقراءة مجلتكم «الفيصل» وفقكم الله.

بن خلاف عمار

عند التاجر خلاف الطيب - حي المستشفى بوادي العثمانية

ولاية مسيلة ٤٣٢٤٠ - الجزائر

أصالة ومعاصرة

بادئ ذي بدء أهنئكم وأشدّ على يدكم الكريمة التي أخرجت لنا هذه المجلة الرائعة بحليها ورونقها الأخاذ وموضوعاتها المحافظة على الأصالة، والزاخرة بالمعاصرة. وهذا هو أهم شرط في نظري لكل المجلات العربية التي تدخل المنازل وتصل إلى أيدي أبنائنا وبناتنا، ولكن هذا الشرط - يا للأسف - لا يتم مراعاته في المجلات العربية المشهورة، والحمد لله أن «الفيصل» التي أكن لها التقدير العالي حققت لي هذا الشرط المهم، وهي مجلة أصيلة باسمها المشهور الملك فيصل طيب الله ثراه، ألا يحق لاسم ملك من أشهر ملوك العرب أن يدخل كل منزل مسلم حاملاً الثقافة والمعارف قديمها وجديدها وبأسعار رمزية تجعلنا ندعو لكل من يتعهد هذه المجلة بالخير والبركة والنجاح في مساعيه الثقافية الرائدة.

ولكنني - يا لـلأسف الشـديد - انقطعت عن اقـتناء المجـلة «الفـيـصل» منذ عـام ١٩٩٠م (منتصفه على ما أذكـر)، والسبب أنني لم أرها في أي كشك أو مكتبة في مركز المحافظة عمران، أو خمر ، أو حوث، أو صنعاء.

ولم أر مصادفـة شكل عنوان المجلة «الفيصل» بذلك الخط المـيز إلا وسحبـتها بشدة لأعانق صفحاتها وأتجرع ما استطيعه في عجالة شديدة وأفاجأ بسعرها الذي لازال مميزاً (سعر تشجيعي منخفض).

وقد ازدادت دهشتي لأناقـتها ولمعان أوراقهـا وغلافها وجودتها وألوانهـا والحمد لله الذي قـدر لي تصـفحـهـا من جديد، وأمنيـتي وأملي فـيكم كـبيـر - كـبر همـتكم ونشاطكم - فـي أن تعملوا على تحقـيق ما يراودني من حلم وهو أن أتم مـجمـوعتي الغـالية مـن مجلة الفـيـصل وأن أقضي شهـوراً أدفن وجـهي في أعـدادها لأعيـد حيويتي ونشاطي وأنبعث كطائر الفينيق.

عبدالخالق هادي طواف

مدينة حوث - محافظة عمران - الجمهورية اليمنية

تلفون وناسوخ: ٠٧/٦٢٥١٥٠

التحرير:

نشكر لكم اعتزازكم بمجلتكم «الفيصل»، وسوف نحاول ما أمكن أن نرسل إليكم بعض الأعداد التي لم تستطع اقتناءها.

آفاق وتباشير

تحيـة كريمة أخطها بيـميني اعتـرافاً وامتنانـاً، حيث نرى جهـداً رائعاً وتطويراً شائقاً عبر صـفحات مجلتنا الأثيرة التي نتنسم عبيرها الفـوّاح كلما هبت ريحٌ تبشر بمطلع هلال شهر عربي، عندئذ نسرع الخطا في شوق المحبين إلى باعة الصحف والمجلات لنروي ظمـأنا من كل جـديد ومـاتع في عـالم الـثـقافـة، وذلك من خـلال فيْصلنا المحبوب.

وحرصاً مني ومن كل غيورٍ على الفيـصل فإنني أتقدم باقتراح أرجو أن يحظى بالقبول، ويتـمثل في عودة بعض الأبواب التي كنا نشعر ببـهجتها وروعتـها عندما نتصـفح المجلة «العروس» كما يحلو لي أن أسـميها ومن هذه الأبواب مـقالة رئيس التحرير؛ حيث كانت تعرفنا وتبصرنا بما يمور به العالم حـولنا، كذلك هناك «آفاق لغوية»، وأظن أنه باب مـهم إذ إن إهمال اللغة أو عدم المبـالاة في تحري الدقة في القواعـد الإملائية واللغـوية والنحوية قـد صار شيـئاً متكرراً في كـتابات كثـير من الناس، وأخـيراً أين باب «تبـاشـير» وهو باب «الأمل» لكـل كاتب ناشئ - مـثْلي - يتطلع إلى مَن يأخـذ بيـده نحـو الطريق الصحـيح والصـراط المسـتقـيم على درب الإبداع والكتابة الأدبية؟! ولكم خالص الأمنيات.

رمضان عبدالعال محمد

أبو النمرس - جيزة - رقم بريد ١٢٩١١ - مصر

التحرير:

نشكر لكم إطراءكم، ونفيدكم أن المجلة ترحب بأي مـادة سواء كانت لناشئ أو غيره من دون النظر إلى الأسماء، وسوف تجد في مواد المجلة موضوعات تتعلق باللغة إلى جانب القضايا الحيوية، شاكرين لكم اقتراحاتكم القيمة وحرصكم على مجلتكم «الفيصل».

ردود سريعة

الأخ حسين سامي - الجزائر الوسطى - المدينة الحضرية رقم (٢):

لا تستطيع المجلة أن تلبي جميع الطلبات التي جاءت في رسالتك، لأن بعـضها يتجـاوز إمكاناتها، ولكن هناك بعض الأشيـاء التي طلبتهـا في الطريق إليك، ونشكر لك رأيك في المجلة، ونأمل أن تكون عند حسن جميع قرائها.

الأخ إسماعيل محمد الحجو - ص.ب ٨٩٥٦ - حلب - سورية:

يعاد النظر في زاوية «بين القارئ والقارئ»، ولكن نشير إلى رغبتكم في الحـصـول على دواوين للشـعراء اليـمنيين محمد العشي ومحمد بن شرف الدين وعبدالرحمن الآنسي لعل أحد القراء يستطيع أن يوافيك بها.

الأخوان عماد عامر المحمدي، فهد سيف العاتي - الأنبار - العراق:

نشكر لكمـا إطراءكما المجلة، ونأمل أن تكـون عند حسن ظنكمـا وظن جمـيع الإخوة القـراء، ونعـتذر لكمـا من تلبيـة رغبتكما لعدم وجود ركن للتعـارف في المجلة، ولتـتـواصلا مع إخوانكما في العالم العربي يمـكنكما الإسهام بالكتابة في المجلة، لأن الحـوار الـفكري أعـمق أنواع الحـوار، ونـتـمنى لكما النجاح في حياتكما الدراسية، وفي تنمية الهوايات التي أشرتما إليها.

الإخوة يا حمد نجيب، سالم محمد بن عمر، شتوح بن عرعار، الجزائر:

نعتـذر لكم من تلبـية رغبـاتكم، لأن هناك طلبـات كثـيرة بخـصـوص الاشـتـراكـات المجانـية ويصـعب على المجلة أن تلبيها، ولـمن أراد من القراء الأعـزاء الاشتراك، فـإن هناك معلومات وافية عنه في الصفحة الثالثة من المجلة.

الأخ فاروق أحمد سومرو - جامعة أنوار العلوم - الباكستان:

نشكر لكم ثقتكم في مجلتكم «الفيصل»، ونحيّيك على ما بذلتـه من جهـد في إعـداد التقـويم الذي أرسلتـه، مع أننا لم نفهم ما جاء فيه على النحو الذي أردته، وسوف تصل إليك أعداد من المجلة، لعلك تجد فيها ما ينفع.

الأخ عبدالله سي. كي - حيدر آباد - الهند:

سـوف نـرسل إليك كل مـا كـتب عـن الدكـتـور يوسف إدريس في المجلة، لعلك تجـد فيه مـا يفيدك فـي البحث الذي تعـده تحت عنوان: «القـضـايا الاجـتـماعـيـة في القـصص القصيرة ليـوسف إدريس»، نأمل أن يكون لك مقالة في هذا الموضوع المهم، لعلها تجد طريقها إلى النشر في المجلة.

العمارة: مرايا المجتمع

محسن علي زكي ربيعي

لكل أرض ملامحها التي تختص بها دون غيرها، وعالمنا الذي نسكنه، وإن اشترك في أمور جمّة لا تحصى، فقد تباين في أخرى، ولكل بلد نكهة خاصة ووجه خاص به، هذا ما ابتدعته الطبيعة التي أبدعها الله لنا، ثم جاءت يد الإنسان فأضافت إليها ما أضافت، وإن كنا كلنا لآدم فقد حمل كل منا طبائعه وأفكاره وأساليبه الخاصة به، فكانت نتاجاتنا مرايا لها تعكسها.

ولقد جهد بعض الناس وسعى كي يخفي هذه الانعكاسات فكان في آخر الأمر أن أفلتت منه مقاليدها فعكست هذه المرايا ولو فتات نور دلت على ما فيه. الطبيعة نفسها لم تتطابق فيما بينها، فاكهة الشرق غير فاكهة الغرب، وجمال شمال آسيا غير جمال صحراء نجد، وطعم ماء الفرات لشاربه غير ماء بردى، هذا ما حملته الطبيعة، والأمر أشد جلاءً فيما صنعته يد الإنسان. اللغة تباينت بتباين شخصية الإنسان الصانع والمستخدم لها؛ الحروف والكلمات وتركيب الجملة والموسيقى التي أوجدها الإنسان غالبًا ما تدل على شخصه، فشتان ما بين موسيقى المعبد الصيني وموسيقى كنائس أوربا الغربية. ومساجد المسلمين في الصين غير مساجدهم في البوسنة، والاثنان مختلفان عن مساجد دمشق أو القاهرة، وإن اتحدت كلها في سبب الإنشاء وفي الوظيفة وفي الفكر المنتج لها.

ولقد كان انعكاس هذا الأمر في العمارة أشد وأوضح فيما يخص النتاجات البشرية الأخرى، فهي نتاج مادي يتفاعل مع خصائص النفس البشرية بكل ما فيها، حتى من قبل النشوء، فالمنشأ المعماري هو فكرة وتصور قبل أن يستحيل إلى واقع مادي ملموس ، والعمارة فن وعلم امتزجا معًا أيما امتزاج، بل إن العمارة مرتع خصب لتفاعل كل شيء؛ الفكر والإنسان والعقيدة والعلاقات الاجتماعية والحاجات المادية والروحية والعوامل البيئية والمناخية وعوامل أخرى كثيرة.

ولنكتف بهذه المقدمة البسيطة ونلج في موضوع العمارة الإسلامية وما اتسمت به، ثم نستعرض بعض التغييرات التي طرأت عليها نتيجة للتغييرات المقابلة في محيطنا الاجتماعي وعلاقاتنا الاجتماعية ونواحيها



مع الاتجاه إلى التوسع الرأسي تظل خصائص العمارة العربية واضحة في البناء الحديث

الأخرى، فكانت العمارة مرايا لهذه التغييرات.

إن التراث الحضاري الذي تركه الإسلام، ومازال يغنيه في بقاع عديدة من العالم، لهو بحق أعظم مخزون حضاري ساهمت فيه يد البشرية، ولو قيس بأكبر حضارات التاريخ فسيظل يحتفظ بما يجعله أشد منها تكاملاً وثراءً؛ فحضارة وادي النيل أو ما يصطلح بعضهم على تسميتها بالحضارة الفرعونية، على الرغم من أن عمرها يتجاوز الثلاثين قرنًا، أي أكثر من ضعفي عمر الحضارة الإسلامية الحالي، لم تكن سوى حضارة أنظمة وملوك وجبابرة، فعلى الرغم من ضخامة الخزين الأثري الذي نُقّب عنه في أراضيها، لم يعثر على نتاج لشعوبها المقهورة بما يعادل معشار ما تركه قادتها، بالإضافة إلى أن ما تركه لنا قادتها لم تكن مرايا حقيقية، فالقادة كثيراً ما يثبتون من التاريخ ما يتوافق مع أهوائهم، ويستبعدون منه ما يعارض ذلك، بل يعمدون أحيانًا إلى إضافة ما لا يمت إلى الواقع بصلة وتضخيمه، كبعض الأمور التي ثبتتها حتشبسوت على معبدها وقبرها، أو ما ثبته فراعنة آخرون. والحضارة بمعناها الحقيقي لا تكتمل بنتاج نصفها الصغير فقط، وأقصد الأنظمة الحاكمة، ولابد من إعطاء الشعوب حقها في إثبات وجودها. ولعل الحال أفضل بقليل فيما يخص حضارة وادي الرافدين.

لقد تفاعلت الحضارة الإسلامية مع الحضارات المجاورة فأثرت فيها وتأثرت بها، ولا يشكل ذلك عامل ضعف فيها، وليس هناك من الحضارات واحدة لم تمر بمراحل التفاعل هذه مهما كانت شاملة لعناصر التكامل في النشوء والرقي، ومهما بلغت درجة انعزاليتها عن الحضارات الأخرى، فقد تفاعلت حضارة النيل مع حضارة الحثيين في آسيا الصغرى، ومع حضارة اليونان. وكذا الحال مع حضارة أثينا وغيرها. وقد تفاعلت الحضارة الإسلامية مع الحضارة الرومانية والبيزنطية، ومع حضارة بلاد فارس، وبدرجات متفاوتة مع حضارات مجاورة أخرى. مع ذلك فقد ظلت محتفظة - ومنذ البدء حتى مراحلها المعاصرة - بشخصيتها الخاصة بها، وحملت خصائصها التي تميزها من غيرها، وتتفق وما يمليه عليها الفكر الإسلامي.

العمارة والفكر

لو بحثنا في العمارة بوصفها تفاعل الكتلة SOLID مع الفراغ VOID، وهما أهم عناصر التشكيل المعماري COMPOSITION فقد ظلت العمارة الإسلامية على مدى طويل



فناء داخلي - دمشق القديمة   من أرشيف كالري قزح

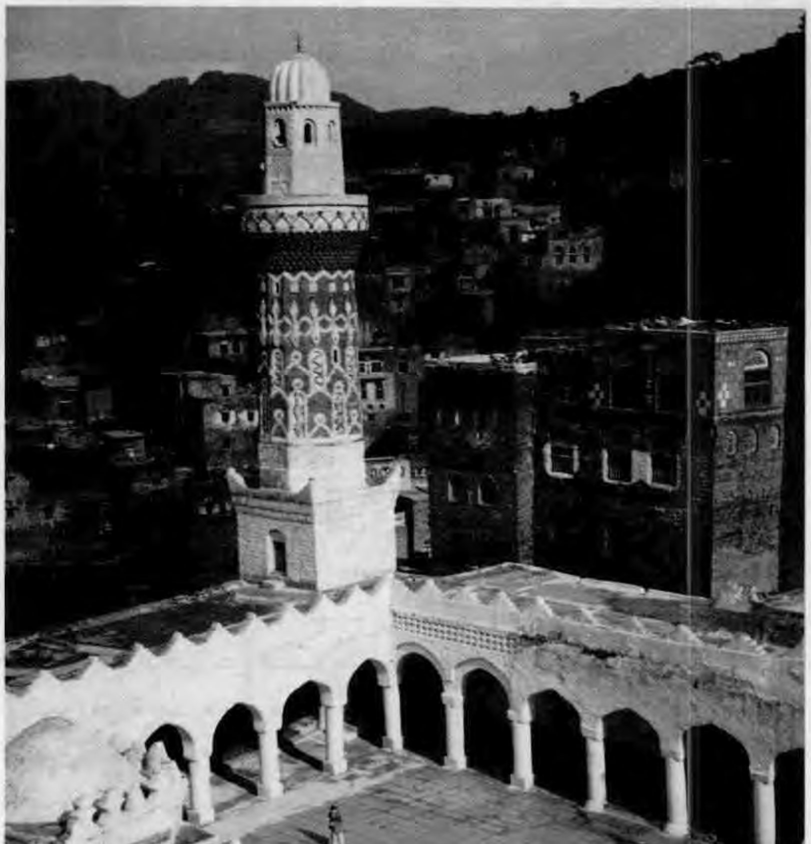


الفناء الداخلي لمنزل دمشقي   من أرشيف كالري قزح

تشكل تكويناتها المعمارية بما يتناسب مع الفكر الإسلامي الأصيل في إغناء الجوهر وتبسيط المظهر، فجاءت نتاجاتها متفقة مع ذلك، حاملة شخصيتها التي تباينت مع النتاج المعماري الغربي الذي كان، وعلى طول مراحله التاريخية، منذ الحضارة اليونانية والرومانية، والعمارة الرومانتيكية والقوطية، وعمارة عصر النهضة وحتى عصرنا، يمثل محاولة المعمار في فرض الكتلة على الفراغ، فكانت عملية صنع العمارة هناك أشبه بعملية النحت، أي صنع الكتلة ضمن الفراغ؛ في حين كان النتاج المعماري الإسلامي بمنزلة صنع الفراغ في الكتلة أو السيطرة على الفراغ، أو اقتطاع جزء من الفراغ اللا متناهي لإيجاد فضاء بشري ملائم. وهكذا ظلت العمارة الغربية تمثل امتداد الكتلة في الفراغ، وظلت العمارة الإسلامية تمثل امتداد الفراغ في الكتلة، على أن ذلك لا يمنع اختلاط المفهومين أحياناً في كلا المنهجين، وطبق ما تمليه الوظيفة الكلية للمنشأ أو ما يتطلبه مفهوم محدد في مكان محدد.

خطوط عريضة

من السمات الأخرى للعمارة الإسلامية أنها طيعة مطيعة، وجوهرها ثابت، لكنها تتشكل طبقاً لخصائص المكان الذي تنشأ فيه، وتتوافق مع شخصية الشعوب التي تحملها. تتقبل التجديد بصدر رحب، وترفض ما يخالف أصولها فقط في حدود ضيقة غاية الضيق، تنمو نمواً بطيئًا ولكن بخطى ثابتة. لقد وضع الفكر الإسلامي خطوطًا عريضة ثبتت أساس العمل في العمارة كالتوحيد ورفض الإشراك والصورة التي انعكس هذا المفهوم عليها، وعد العمارة، ككل موجودات الكون، مسخرة للمساهمة في رقي البشرية وليس العكس، وأعني أن يكون الإنسان مُسَخَّرًا لها. لقد نشأت العمارة الإسلامية بسيطة لم تكتسب أشكالاً معمارية ثابتة، وسرعان ما قفزت إلى مواطن شتى لتنبت هناك تحمل الفكر ذاته وبأشكال تتواءم مع الموطن الجديد وما يحمله من عوامل بيئية مختلفة INVARONMENTAL FACTORS وخزين حضاري متراكم CULTURAL HERITAGE وإمكانات تقنية TECHNOLOGY؛ فقد ظلت العمارة الإسلامية في شبه جزيرة العرب بسيطة بساطة الصحراء، وصريحة صراحتها، بإمكانات تقنية متواضعة في المواد الإنشائية المستخدمة، وفي طريقة التسقيف وارتفاع المباني، وفي سعة الفضاءات الداخلية «وقد تكون اليمن هي الوحيدة التي تقع خارج هذه الدائرة لتباين العوامل المؤثرة فيها سواء منها البيئية أو الحضارية»، وأعتقد أن المعمار الألماني فراي اوتو كان أكثر توفيقًا من مجموعة SOM الأمريكية في مشاريعهم التي نفذت في المملكة



الساحة الخارجية تميز المساجد القديمة

العربية السعودية وذلك لتمثله لهذه السمات الآنفة الذكر.

وبعد انتقال عاصمة المسلمين إلى دمشق بدأ نشوء عمارة إسلامية منحت بلاد الشام ومنحتها هي في الوقت ذاته ملامح اختصتا بها، مع القبول بدخول تأثيرات لحضارات مجاورة فرضها الموقع الجغرافي لبلاد الشام، كانتقال تقنية إنشاء بعض القباب من بلاد الروم، أو ملامح بعض العقود والأقواس من بلاد فارس، كما تم إدخال بعض الأشكال المعمارية كالمنارة التي ظلت تستخدم ضمن إطار الفكر الإسلامي وبشكل مقبول حتى بلغت أوج قوتها الشكلية في الملويتين اللتين أنشأهما المعتصم العباسي في جامعي سامراء وأبي دلف. وامتدت العمارة في بلاد الشام ومازالت تمتد تحمل الملامح ذاتها، فكانت دمشق واحدة من أغنى مدن التاريخ بموروثها الحضاري، وانتقلت بعض ملامح هذه العمارة مع انتقال الدولة إلى بلاد الأندلس لتتأثر بالطبيعة الخلابة هناك وبالروح الغربية لتنتج عمارة هي من أروع ما ابتدعته يد البشرية، فكانت قرطبة وإشبيلية وغرناطة مدناً اختلط فيها حلم الصحراء مع غنج المروج الخضراء. ويكفي قصر الحمراء وحده ليشهد بذلك، ولم يقتصر الأمر على العمارة وحدها بل امتد إلى فنون أخرى كالشعر، فكانت روائع ابن زيدون والحصري القيرواني وغيرهما مثالاً على ذلك.

وحدث التطور نفسه في مدينة بغداد وما يرتبط بها حين أصبحت العاصمة، ومايزال الكثير من الشواهد المعمارية يدل على ذلك كالمدرسة المستنصرية والقصر العباسي وغيرهما. ويبدو في بغداد بوضوح التفاعل مع الحضارة المجاورة لها، أي حضارة بلاد فارس التي أنتجت أروع مراحلها في تمثل العمارة الإسلامية في مدينة أصفهان التي أصبحت عاصمة الدولة الصفوية، وتكفي مشاهدة ميدان «نقش جهان» والنسيج الحضري والأبنية المحيطة به لمعرفة عظمة هذا الموروث المعماري. ومثلما كان النتاج المعماري في الأندلس حصيلة التفاعل بالشخصية الغربية، كانت عمارة بلاد فارس حصيلة التفاعل مع الروح الشرقية. وظل التوغل يبتعد باتجاه الشرق متجاوزاً الهند إلى الصين فحمّل عمارتها ملامح أخرى تلبست بأشكال مغايرة لموطنها الأصلي.

وحدث الانتقال هذا في مدن أخرى كالقاهرة ومدن المغرب العربي، وكان على الدوام مقبولاً بل موفقا في حين حاولت بعض الأنماط المعمارية الخروج من موطنها الأصلي لكنها أخفقت وانكفأت.

استثناء

بغض النظر عن بعض السمات والخصائص التفصيلية الأخرى للعمارة الإسلامية نكتفي بذكر سمة



الحصون بعمارتها الفريدة لها حضورها الواضح في المدينة العربية



تأثيرات العمارة العربية شملت كل أجزاء العالم الإسلامي (تركيا)

قد لا تكون خاصة بها وحدها، لكنها نهج عام في تفاعل كل أنماط العمارة مع المجتمعات التي تعايشها، ونعني بذلك ترجمة أخلاقيات المجتمع وسلوكياته، وما يحمله من أفكار وعقائد إلى واقع معماري. ولكن في البدء لابد من الإشارة إلى أن الحضارة الإسلامية، ككل الحضارات، تعرضت في مراحل عديدة إلى سيطرة الأهواء الحاكمة لها، وحينما يتم العمل طبق هذه الأهواء، التي لا تتطابق تمامًا على الأغلب مع العقائد السائدة، فإن ذلك يؤدي إلى إنتاج عمارة يمكن وصفها بأنها عمارة كاذبة، ذلك أنها لا تمثل تعبيراً عن الواقع العام، بل رغبة شخصية لفرد أو لمجموعة حاكمة. وإذ تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن مسجد قبة الصخرة لم يكن سوى رغبة تملكت السلطة الحاكمة حينذاك. كما أن مدينة بغداد المدورة التي أنشأها المنصور لم تمثل حاجة فعلية لساكنيها، بل كانت حاجة سلطة حاكمة فكرت في حماية ذاتها فبنت لها سوراً أو حصناً على غرار ما كانت تبنيه السلطات الحاكمة لأقوام أخرى لا تلتقي معها في عقائدها. فإذا ما تمَّ عزل مثل هذه النتاجات المعمارية تمكنا من الحصول على كم هائل من خزين معماري يمثل بحق مرايا تعكس حياة المجتمع الذي أنشأها وعاش فيها واستثمرها، ثم طورها فيما بعد بإضافة ما ارتأى وجوب إضافته، وحذف ما يجب حذفه، أو باستحداث أشكال معمارية لم تكن موجودة من قبل، وهذه المرايا تعكس المجتمع بما فيه، بعقائده وسلوكه وما يطمح إليه. وبما أن المجتمع - أي مجتمع - لابد من حدوث تغييرات في تركيبه على مدى الزمن، فأشد المجتمعات تحفظاً تدخلها التغييرات أيضًا. وليس المقصود هنا هو التغيير نحو الأفضل، بل مطلق التغيير، فالمجتمع الذي انتقل من طور الجاهلية إلى الإسلام تعرض لتغيير جذري لم يتعرض لمثله من قبل أبداً، ثم تتابعت هذه التغييرات بتسارع ملحوظ، وجلّ هذه التغييرات كانت نحو الأفضل حتى نهاية العصر العباسي الثاني ودخول المغول، حينذاك حدث التوقف ثم التغيير نحو الأسوأ واستمر ليشهد مراحله في نهاية العهد العثماني ودخول الاستعمار الغربي. وعلى طول هذا الكدح تظل العمارة تعكس هذه التغييرات في عملية الصعود أو الهبوط على حد سواء.

إبداع مجتمع

وهكذا ظل البيت، أول المنشآت المعمارية وآخرها، على الدوام أنقى وأصفى مرآة تعكس تحولات المجتمع، وإن كان المسجد قد سبق البيت نوعًا ما، وأقصد البيت

بملامحه الجديدة، فذلك أمر له دلالته الاجتماعية هو الآخر. وقد تعرض البيت إلى تغييرات جمّة خلال عدة قرون، فكان البيت التقليدي بملامحه وبعناصره التي خاضت تجارب لمئات السنين مع بيئتها ومحيطها، فلم يكن البيت التقليدي وليد تجربة عابرة أو إبداع فردي، لكنه إبداع مجتمع بأكمله، ووليد حاجات مشتركة، وترجمة صادقة لفكر أصيل خاض تجارب لا حصر لها فترات طويلة جدًا، لتتمخض عن البيت التقليدي الذي نشاهده في بقايا المدن العريقة كدمشق وبغداد والقاهرة وأصفهان ومدن أخرى عديدة. وخلال هذه الفترة الطويلة تعرض البيت، ككل المنشآت المعمارية، لتغييرات عدة تقابل التغييرات التي حدثت في المجتمع، وهي ليست موضوع البحث هنا، بل سنحاول التركيز على التغييرات التي طرأت خلال قرننا الحالي، والتي تزامنت مع دخول الفكر القادم من الغرب، الذي أحدث تغييرات واضحة في مفاهيمنا انعكست بدورها على نتاجاتنا المعمارية والحضرية.



لم تسلم المدينة العربية من تأثيرات الحضارات الأخرى (آثار يونانية)

التفكك الأسري وانعكاساته

كان البيت التقليدي يعكس صورة واضحة عن العائلة والأواصر الأسرية القوية التي تربطها، وأشد عناصر البيت وضوحًا هو الفناء الداخلي وامتداده المتمثل في الإيوان (الليوان)، وطالما كان الفناء الداخلي يمثل قلب البيت الذي تجتمع فيه كل عناصر الأسرة بما فيهم الضيوف المقربون من العائلة. فقد كان أفراد العائلة يجدون فيه الفرص المناسبة دائمًا للالتقاء بعضهم ببعض والجلوس وتكثيف فعالياتهم الاجتماعية الخاصة بهم، في فضاء خاص لا يرتبط مع الفضاء الخارجي العام كليًا. ولكون هذا الفناء وسط الدار ومركزها، فقد كان بمنزلة المصبّ الذي لابد من المرور فيه لكل أفراد العائلة الداخل منهم أو الخارج على حد سواء. غير أن التفكك الذي أصاب العائلة في العقود الأخيرة انعكس بصورة قاطعة على البيت. لقد أصبح كل فرد في العائلة يسعى إلى الحصول على فضائه الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره، ولم يعد لديه الوقت الكافي لإنجاز فعاليات اجتماعية جماعية، فمعظم وقته أصبح موزعًا بين العمل والدراسة خارج البيت، وما يفيض منه فإنه لا يكاد يُسد حاجته الجسدية للاستراحة. كما أن فكرة تحويل البيت إلى سكن لعدة عوائل، وأقصد العوائل المتفرعة من الأصل، أصبحت غير مستساغة، ولم يعد حجم العائلة يصل إلى الحجم الذي كانت تصل إليه سابقًا. كل هذه التغييرات، بالإضافة إلى أمور

أخـــرى، انـعكست علـى البـــيت التقليدي؛ فوجد الفناء الداخلي نفسه غريباً مستوحشاً بلا قاطن يقطنه، فإذا ما أقبل الليل أقفلت الأبواب من حوله، ومن قبل كان أفراد العائلة يتحلقون حوله بكؤوس شايهم وأحاديثهم، فآثر أن يترك مكانه ويخرج إلى محيط البيت ليستحيل إلى حديقة المنزل التي لا يؤمها أفراده إلا بين الحين والآخر، هذا لدى من كان على شيء من اليسر؛ أما في الأحياء الفقيرة المتراصة فقد اختنق الفناء الداخلي، ومات واندثر دون أن يترك لذكراه من أثر. بعضهم قابله بشيء من الاحترام فعمد إلى تغطيته ليسميه فيما بعد بفضاء المعيشة -LIV ING ROOM ولكن شتان ما بين السقف الإسمنتي وقبة السماء. وهكذا انقلب البيت التقليدي رأساً على عقب واستحال الفضاء الداخلي إلى خارجي، فلم يعد هناك من حرج في أن تمارس العائلة فعالياتها الاجتماعية في الخارج وأمام الآخرين.

وتبعاً لهذه التغييرات حدثت تغييرات أخرى في المنزل التقليدي، فقد انعكس التوجيه فيه ORIENTA-TION. إذ كان البيت التقليدي ينظر إلى الداخل، ويطل بجميع نوافذه وشرفاته وفضاءاته الصيفية على الداخل، وبعد أن ألغي الفناء الداخلي لفظ البيت نوافذه إلى الخارج، وقد خسر البيت الحديث الكثير في هذه العملية؛ فمن قبل كان البيت، وفي كل الأوضاع المحتملة له، يمتلك فضاءه الخاص وواجهاته الأربع الخاصة به ليملأها بما يشاء من نوافذ؛ له الشرق بنوره الصباحي، والغرب بنوره المسائي، وله الشمال بخفوته، والجنوب بسطوعه، لكنه ما إن أخرج نوافذه إلى الشارع حتى تزاحم مع الآخرين، وكثيراً ما نجد الدور الحديثة وقد أغلق بعضها نوافذ بعضها الآخر، فغرقت في العتمة والظلام وسوء الإنارة والتهوية.

كما أن البيت الحديث بإلغائه الفناء الداخلي جعل جلّ اهتمامه بالواجهات الخارجية التي كثيراً ما استحالت إلى إعلان للبهرجة والتزويق والتفاخر، هذه الأمور التي كثيراً ما حاول الفكر الإسلامي بنقائه اجتثاث جذورها من مجتمعه.



التوسع الرأسي في المدينة العربية قلل من المساحات الخضراء

وهكذا فقد البيت الحديث ذلك الفناء الذي كان يزخر بالحياة، فقد كانت تجتمع فيه كل العناصر التي توحي بذلك؛ انفتاحه نحو السماء، حوض الماء الذي يتوسطه ونافورة الماء، والنباتات التي تغطي جدرانه التي تأخذ من معمارها اهتماماً خاصاً جداً بموادها الإنشائية التي عادة ما تتباين مع الجدران الخارجية البسيطة شبه الصماء، وبزخارفها وشرفاتها وفضائها الصيفي، وارتباطها بالإيوان الذي يمثل عنصراً انتقالياً رائعاً قد يمكن استخدامه على مدى الفصول الأربعة.

ويتحول الإيوان أحياناً إلى مكان عجيب لتكثيف لحظات الزمن وتركيزها في الذاكرة عندما يهطل المطر فتتساقط حباته لتعانق ماء الحوض الذي تتناثر على سطح مائه بعض أوراق نباتات الفناء وزهوره، فيحفر الزمن آثاره في ذاكرة المرء حينما يحتمي بإيوان داره وعيونه تدور حوله فنائه. ولقد وجدت في مشاهداتي لبعض الدور التقليدية لمدينتي أصفهان ودمشق ما يجعل المرء يأسف فيردد في نفسه: أي وهم كاذب هذا الذي يدفعنا إلى التخلي عن هذه الجنائن المصغرة واستبدال صناديق الكونكريت القاحلة تلك بها؟

ومن مميزات البيت التقليدي التي ألغيت نتيجة للتغيرات التي طرأت على حياتنا الاجتماعية وسلوكنا هو المدخل المنكسر، وهو فضاء أوجدته بالأساس العادات الاجتماعية المحافظة للمجتمع الإسلامي لمنع احتمال الاتصال البصري بين



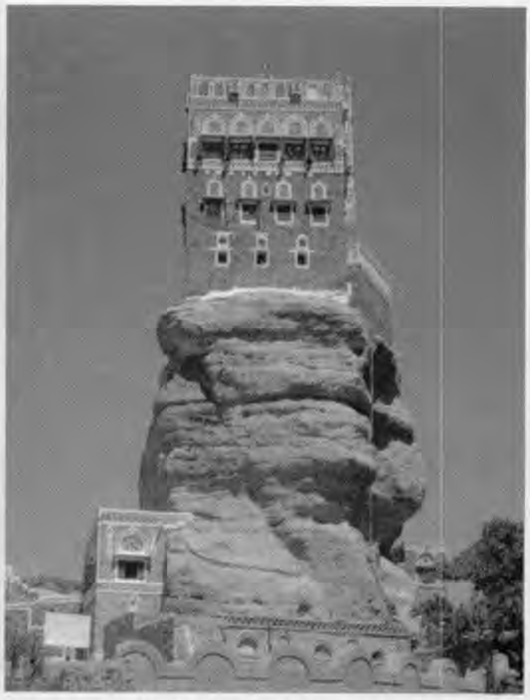
تآلف القلاع القديمة والعمارة الحديثة (سلطنة عمان)

ساكني البيت والمارة إلى جواره، غير أن هذا المدخل المنكسر، ونتيجة للخبرة التي اكتسبها المعمار خلال قرون عديدة أصبح عنصراً انتقالياً يؤدي وظائف عدة إضافة إلى وظيفته الاجتماعية، فهو فضاء انتقالي يساعد العين على الانتقال بطريقة مريحة من الزقاق المشبع بنور الشمس وخصوصاً خلال ساعات الظهر حينما تكون الشمس شبه عمودية إلى داخل البيت الذي تنخفض فيه كمية الضوء بفارق واضح، بالإضافة إلى ذلك فهو عنصر معماري يساعد على منع انتقال تأثيرات الجو الرديئة إلى داخل الدار وخصوصاً الرياح والغبار.

تغييرات جوهرية

وبتبدل المفاهيم الاجتماعية في العقود الأخيرة بدأ المجتمع يستهجن هذه الروح المحافظة، ولا يعير هذه الناحية اهتماماً كالسابق، بل أصبح من ضروريات الثقافة المعاصرة الانفتاح على المحيط الخارجي وعلى الشارع، وهكذا عُدّ المدخل المنكسر عنصراً غير مرغوب فيه فأُعفي من وظائفه. ولم يقتصر تأثير التغير الاجتماعي هنا على حذف المدخل المنكسر فقط بل تعدى ذلك إلى تغييرات جمّة أدت إلى تغيير الشكل العام للبيت التقليدي من الخارج وتغيير المخطط الداخلي له، فأُلغيت المشرفيات أو ما يدعى بـ (الشناشيل) في بغداد والشام لتحل محلها الشرفات (البالكونات) شبه المفتوحة، وأُلغيت التقسيمات الخشبية أو الحديدية التي تغطي النوافذ لتبقى عارية أمام شمس الصيف اللاهبة، هذا بعض ما حدث للشكل الخارجي للبيت. أما في الداخل فلم يعد المخطط المغلق يتماشى مع روح العصر فاستبدل به المخطط المفتوح OPEN PLANNING الذي يمثل عملاً جريئاً في إيجاد فضاءات داخلية متداخلة بعضها مع بعض، ومع الفضاء الخارجي أحياناً، شرع به معماريون رواد أمثال الفرنسي لي كوربوزيه والأمريكي فرانك لوي رايت، لكنه يصل أحياناً إلى حد التعدي على حرمة بعض الفضاءات الخاصة جداً. ونتيجة لهذا تم إلغاء الكثير من الجدران الداخلية أو تحويلها إلى قواطع متحركة أو منخفضة، كما تم مزج فضاء الاستقبال، الذي كان يعزل بشدة، مع الفضاءات الأخرى كفضاء العائلة، وإدخال السلالم إلى هذه الفضاءات كعنصر شكلي فعّال في تشكيل الفضاء الداخلي، ومن قبل كانت السلالم تعزل عن غيرها أو تنفتح على محيط الفناء الداخلي.

هذه بعض التغييرات التي طرأت على البيت التقليدي. أما فيما يخص المنشآت الأخرى فقد تعرضت لكثير من التغييرات الشكلية أو حتى الجذرية منها، غير أنه على العموم تدخلت عوامل مؤثرة أخرى غير



الجبل جزء من تكوين العمارة في اليمن

العامل الاجتماعي في إحداث هذه التغييرات، ذلك أن هذه المنشآت كانت لأداء فعاليات متعددة.

المسجد وموقعه بين الماضي والحاضر

المسجد أول ما يذكر من هذه المنشآت، لكونه أول نتاجات الفكر الإسلامي، وقد كان وعاءً لأداء فعاليات عدة، فهو مكان العبادة، وهو المدرسة، وهو المحكمة التي يتم فيها الفصل والقضاء، وهو المكان الذي يجتمع فيه المسلمون بعضهم مع بعض، وهو المكان الذي تنطلق منه جيوش المسلمين في حملاتهم، وقد يكون هو المستقر الذي يستريح فيه المسافرون القادمون من أماكن أخرى. لذلك فقد كان للعوامل الأخرى، ولاسيما السياسي منها دور أكبر من العامل الاجتماعي في التكوين المعماري للمسجد. واقتصر العامل الاجتماعي على الانسحاب تدريجيًا من المسجد، وسبقته وتبعته فعاليات أخرى في الانسحاب كالتعليم الذي انتقل إلى مدارسه الخاصة، والقضاء الذي انسحب إلى دار الأمير ثم إلى دار القضاء.. ولعل انسحاب الفعالية الاجتماعية من المسجد لم يترك أثرًا واضحًا في التكوين المعماري للمسجد، لكنه ترك أثرًا واضحًا في موقع المسجد ضمن النسيج الحضري للمدينة الإسلامية، فقد كان المسجد يشكل نواة المدينة متخذًا شكلاً هندسيًا منتظمًا (في الغالب) محتفظًا بقوته الشكلية ضمن التشكيل المعماري العام للمدينة، مختلطًا بأشد فعاليات المدينة تركيزًا، مثل المركز التجاري للمدينة وغالبًا ما يمتلك هيمنة واضحة على مفاهيم معمارية متعددة كالارتفاع نسبة إلى ما يجاوره من منشآت أخرى، ومركزيته بالنسبة إلى شبكة عناصر الحركة في المدينة، وإشرافه على المحاور المهمة فيها من خلال الأشكال المعمارية والألوان والمواد الإنشائية المتميزة. غير أن ابتعاد الفعالية الاجتماعية عن المسجد جعله ينفصل عن نسيجه المحيط به فاقدًا لعناصر القوة فيه شأنه شأن أي مبنى إداري آخر، فقد فقد المسجد مركزيته في المدينة وبعض عناصره المعمارية التي كان يستدل المرء بها ويهتدي بسهولة، وهناك الكثير من مساجدنا الحالية لا يمكن الاهتداء إليها بسهولة، إلا أولئك الذين قضوا زمنًا من عمرهم إلى جانبها، كما فقدت المساجد المتأخرة شكلها المنتظم، وعادة نجد في التخطيط الحضري URBAN PLANNING لدننا المعاصرة أن هناك فضاءً أو مساحة فائضة يتم حشوها بوظيفة دينية بطريقة مشابهة لتحويل الفضاءات الزائدة في مخططات المدن إلى مساحات خضراء هي بالأحرى لترقيع المخطط، وليس لإكمال وظائفه، لذا نجد معظم مساجدنا المعاصرة قد اتخذت أشكالاً غير منتظمة يفتقد فيها المصلى شكله المثالي، بل تفقد القبلة والمحراب وضعهما الطبيعي مما أدى إلى فوضى لا تحتمل بين شكل صفوف المصلين وجدران المسجد والأعمدة المقامة فيه.

كما أدى تغير الناحية الاجتماعية إلى ظهور بعض المنشآت المعمارية التي لم يكن يسمح بها المجتمع الإسلامي الأول كالحمامات العمومية التي ظهرت إلى جانب بعض التغييرات التي دخلت الفكر الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، ويبدو أنها انتقلت من بعض بقايا العمارة الرومانية والبيزنطية، وما ظهر منها في العصر الأموي كان ينتمي إلى ما وصف بالعمارة الكاذبة، لكنه ساهم في تعجيل نقله إلى المجتمع، وبدخول تغييرات اجتماعية مضاعفة تحولت إلى حمامات مزدوجة لكلا الجنسين.

وسنغض النظر هنا عن انعكاس التغييرات الاجتماعية على بعض المنشآت المعمارية الأخرى، ذلك أن

العوامل الأخرى تركت أثراً أشد منها. غير أن ما لا يمكن غض النظر عنه هو الانعكاس الذي ظهر على شكل المدينة ككل.

إن النسيج الحضري المتكامل لمدننا القديمة كان حصيلة لتجارب امتدت قروناً، وهو يعمل وحدةً متكاملةً لا يمكن تجزئتها أو تقطيعها، والدراسات التي أجريت على هذا النسيج أثبتت أن مكوناته تعمل معاً على توفير محيط مناخي مقبول قادر على تكييف الظروف البيئية غير الملائمة؛ فالأزقة بضيقها، والفناءات الداخلية للمنازل بتقاربها من هذه الأزقة، ووجود البارجيل (البادكير) والمواد الإنشائية المستخدمة، واختلاف سمك الجدران الخارجية والداخلية، كلها تعمل معاً ومع طبيعة الهواء في الليل والنهار على تكوين وحدة بيئية متكاملة جديرة بمجابهة الظروف المناخية، وإن تحطيم هذا الارتباط اللازم بينها يؤدي إلى ترك بعض العناصر منها غير قادر على إنجاز عمله بالكفاءة السابقة، وهذا ما حدث حينما تم تعريض الأزقة، ففقد الفناء الداخلي كفاءته، وكذلك فقد البارجيل كفاءته حينما أُلغي الفناء الداخلي، وأصبح هذا الفناء فناءً غير مرغوب فيه حينما أُحيط بجدران الكونكريت أو واجهات الزجاج، وأُخلي من أشجاره ومائه، أو عَمَد بعضهم إلى تغطيته بالسقوف الزجاجية.

كانت مدننا القديمة تعبر بوضوح عن التلاحم والأواصر التي تشد ساكنيها بعضهم إلى بعض، إن التداخل الذي يمكن مشاهدته في عناصر المدينة القديمة؛ تداخل الوظائف بعضها مع بعض؛ الدينية والسكنية والتجارية والتعليمية والإدارية وحتى السياسية، تداخل الشوارع والأزقة فيما بينها، تداخل البيوت بعضها مع بعض حتى ليعجز الناظر أن يميز الشكل الحقيقي لأي وحدة سكنية بالنظر إليها من الخارج أو حتى من الأعلى، ليس هناك من يقف منفرداً ليقول هاأنذا أقف وحدي، الكل يتلاحمون فيما بينهم، ويقفون صفًا كالبنيان المرصوص، الكل يساهمون في تكوين الشكل العام للمدينة، وكل يساهم في تأمين خدمات المدينة. هناك الكثير من العناصر المعمارية الرائعة التي كانت تدل بلا أي شك على هذا التلاحم الاجتماعي فقدتها مدننا القديمة نتيجة التغييرات الاجتماعية التي طرأت عليها فحُرمت مدننا المعاصرة منها، كأماكن السقاية التي كانت تؤمن خدمة اجتماعية وإنسانية حتى لعابر السبيل والغريب المار في تلك الأزقة، إلى جانب العقود والأروقة والمشرفيات والحجرات المقامة فوق الأزقة كلها كانت تمنح الظل للمارة في الصيف وتمنع عنهم مطر الشتاء ولو بعض لحظات، والحنايا والمقاعد الصغيرة في زوايا وأركان الأبواب والتي كانت تسمح للمارة بأخذ استراحة قصيرة إذا انتابهم التعب، وخصوصاً كبار السن، كل هذه العناصر وأخرى غيرها حذفتها مدننا المعاصرة. وبدل ذلك التلاحم بدأت كل المباني الحديثة بالانكماش على ذاتها معلنة تفككها وتشتت المدينة كي تعلن عن ذاتها هي فقط. كل المباني المعاصرة أصبحت واجهات للإعلان.



المشربيات مكون أساسي في العمارة العربية



الصحافة الإسلامية في باكستان

خليل محمود الصمادي

أكانت باكستان جزءاً من شبه القارة الهندية حتى عام ١٩٤٧م، ثم انفصلت وأصبحت دولة ذات سيادة مستقلة، بأغلبيتها الإسلامية، وكانت طموحات المسلمين بعد الاستقلال كبيرة، ولكنهم لم يحققوا منها إلا القليل، وتعاقبت على البلاد عدة حكومات لم تكن أكثرها على مستوى أحلام المنادين بالاستقلال.

إن المتتبع لفعاليات الحركة الثقافية الإسلامية في شبه القارة الهندية قبل عام ١٩٤٧م لا يغفل دور المسلمين الباكستانيين في أقاليمهم الأربعة، وكما في الهند - كانت وما زالت هناك، حركات إسلامية تدعو إلى الاهتمام باللغة العربية والنهوض بها وتعميمها في البلاد.

إن العلاقات بين العرب والباكستانيين قديمة جداً تعود إلى ما قبل الإسلام، ولكنها كانت علاقات واهية لم تترك أثراً يذكر إلا ببعض الألفاظ التي تبادلها التجار فيما بينهم، ولكن العلاقات توطدت بعد أن منَّ الله على شبه القارة الهندية بالإسلام منذ عهد الخليفتين عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، عندما دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانكب المسلمون هناك حينذاك على تعلم كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وآداب العرب وأشعارهم، وغير ذلك من العلوم العربية، وأتقن كثير من الناس اللغة العربية وفضلوها على لغاتهم الأم، وصارت لغة العلماء والمثقفين من سكان تلك البلاد.

وظلت العربية هي اللغة الرسمية لدى السلاطين والحكام والدواوين والأزقة والشوارع مدة ثلاثة عشر قرناً من الزمن في كثير من المقاطعات الإسلامية، ولكن المستعمر البريطاني لم يرق له الاهتمام بلغة القرآن الكريم فدأب جاهداً على طمسها، والنيل منها، واستبعادها من الدواوين والمراكز الرسمية المهمة، وقد نجحوا في ذلك، لكنهم أخفقوا في استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وعلى الرغم من هذه الحرب الشرسة ظلت فئة كبيرة من المسلمين هناك مخلصة للغة القرآن الكريم، فقاومت هذه الدعوات المشبوهة، فقامت بفتح المدارس والمعاهد والكتاتيب، والجامعات العربية، والمراكز الثقافية، ووضعت لها مناهج عربية لتدريس أبنائها العربية هناك.

وورث علماء شبه القارة الهندية في أيامنا هذه ثروة ضخمة من المخطوطات العربية العريقة تعد بعشرات الآلاف، وقد حُقق بعضها ومازال الكثير منها مجهولاً مهملاً، وعرفت باكستان عدداً من العلماء المهتمين بالتراث العربي، وكان أشهرهم الشيخ عبدالعزيز الميمني الراجكوتي (ت: ١٩٧٨م) رحمه الله إمام العربية في شبه القارة الهندية، فقد قام بتحقيق ما يزيد على ثلاثين كتاباً من كتب التراث العربي، منها سمط اللآلي شرح أمالي القالي، والوحشيات لأبي تمام وغيرهما، وقد وَقَفَ الميمني حياته كلها على خدمة العربية وإحياء تراثها، ولشدة حبه لها كان عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، ثم عضواً في مجمع القاهرة، وظل تواقاً لإنشاء مجمع للغة العربية في باكستان، وبقيت الفكرة تراوده، ولكن المنية وافته قبل إتمام مشروعه، إلا أن طلابه الأوفياء قاموا بتحقيق ما

كان يصبو إليه شيخهم، فلما ذللت العقبات قاموا بإنشائه؛ وذلك في بداية التسعينيات الهجرية من هذا العقد.

تاريخ الصحافة العربية في باكستان

صدر في شبه القارة الهندية قبل عام ١٩٤٧م عشرات من الدوريات العربية وقد تطرقنا إليها في مقالة سابقة، وكان للأقاليم الباكستانية جزء يسير منها؛ لأن الحركة الثقافية في الأقاليم الهندية كانت أشد فعالية وخصوصاً المهتمة بالعربية، وبعض هذه الدوريات صدرت في الهند ثم انتقلت إلى باكستان، كمجلة «العرب» التي أصدرها في بومباي (الهند) عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٧م الشيخ عبدالمنعم العدوي رحمه الله ثم انتقلت إلى باكستان، وماتزال تصدر إلى يومنا هذا. وقبلها صدرت مجلة «ترجمان القرآن» بالأوردية وإن كانت تعنى قليلاً بالعربية عام ١٩٣٣م، وبعد الانفصال استمرت في الصدور في البلدين وكان المشرف عليها العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله، وتابع صدورها منذ ذلك التاريخ حتى بلغت أوجها منذ عقدين من الزمن.

ومن الأسباب التي ساهمت في صدور عدد من المجلات العربية في شبه القارة الهندية العلاقات الحسنة والروابط المتينة بين العلماء الهنود والعلماء العرب وخصوصاً تيسير سبل المواصلات وانتشار الطباعة العربية في العالم الإسلامي، فقد كانت العلاقات على أشدها بين علماء البلدين منذ أواسط القرن الماضي، وخاصة مع علماء الحرمين الشريفين وعلماء الأزهر.

واقع الصحافة العربية في باكستان

لا شكَّ أنَّ لباكستان موقعاً مهماً بين دول عدة، وقد أثر وضعها الجغرافي في الصحافة الصادرة هناك، وظهرت على الساحة الباكستانية عشرات الصحف العربية يمكن تقسيمها ثلاثة أقسام هي:

دوريات عربية باكستانية، ودوريات عربية أفغانية، ودوريات عربية كشميرية.

على الرغم من هذه الحرب الشرسة للمستعمر ضد اللغة العربية ظلت فئة كبيرة من المسلمين في باكستان مخلصة للغة القرآن الكريم، ونجحت في مقاومة الدعوات المشبوهة

الدوريات العربية الباكستانية

تصدر المؤسسات الإسلامية في باكستان عدداً من الدوريات العربية تقوم بمهمات جليلة، أهمها تعريف الإخوة المسلمين هناك والناطقين بالعربية أخبار البلدان العربية والعالمية ووضع الأقليات المسلمة في العالم، بالإضافة إلى تعريف العرب أخبار المسلمين في شبه القارة الهندية، وإبراز أنشطتهم المتعلقة بالثقافة الإسلامية والعربية، كما تقوم هذه الدوريات بنشر الكثير من الدراسات والمقالات الدينية والبحوث المتعلقة بالدراسات العربية، ومن أهم هذه الصحف:

- **العرب**: مجلة ثقافية جامعة، أسسها في بومباي الشيخ عبدالمنعم العدوي عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٧م، وماتزال تصدر إلى يومنا هذا، يرأس تحريرها حسن عبدالمنعم العدوي. وقد ذكرناها سابقاً.
- **الأحبّاء**: مجلة فصلية صدرت في لاهور عام ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م عن دار أحبّاء العالم الإسلامي.
- **الاتحاد**: نشرة شهرية صدرت في لاهور عام ١٤١٠هـ عن مجلس اتحاد علماء باكستان، وهي ثقافية إخبارية.
- **الإصلاح**: مجلة شهرية ثقافية صدرت عام ١٤٠٥هـ عن إدارة الدعوة الإسلامية ونشر اللغة العربية في فيصل آباد، تهتم بالبحوث والدراسات الإسلامية والعربية.
- **الأضواء**: مجلة إسلامية أدبية ثقافية دورية صدرت عام ١٩٩٠م عن مركز الشيخ زايد الإسلامي في جامعة البنجاب بلاهور.
- **البَيّنات**: مجلة إسلامية فصلية تصدرها جامعة العلوم الإسلامية في كراتشي صدرت عام ١٤١٧هـ، المشرف العام على المجلة د. عبدالرزاق إسكندر مدير الجامعة.
- **الدراسات الإسلامية**: مجلة فصلية صدرت عام ١٣٨٤هـ عن مجمع البحوث الإسلامية في إسلام آباد، تعنى بالفقه والاجتهاد، والدراسات الإسلامية المعمقة.
- **الفاروق**: مجلة فصلية صدرت عام ١٩٨٥م عن الجامعة الفاروقية بكراتشي، المشرف العام على المجلة الشيخ سليم الله خان رئيس الجامعة.
- **مجلة المجمع العربي الباكستاني**: مجلة دورية تعنى بالآداب العربية وإحياء تراثها، وهي

على غرار مجلات مجامع دمشق والقاهرة وبغداد وعمان والهند، صدرت عام ١٤١٤هـ عن مجمع اللغة العربية في لاهور، وقد كان هذا المجمع فكرة قديمة راودت الراحل الأستاذ الشيخ الراجكوتي منذ فترة طويلة، ولم تر النور إلا بعد وفاته وفاءً من تلاميذه، وهي مجلة قيمة من أهدافها إحياء التراث العربي الإسلامي، والنهوض باللغة العربية في باكستان، وغيرها من الأهداف التي لا تخفى على المتابع للمجلة. يرأس تحريرها د. ظهور أحمد ظهور.

- **المجاهد:** مجلة دورية صدرت عن اتحاد الطلبة المسلمين في لاهور.
- المسلم:مجلة دورية صدرت عن اتحاد الطلبة المسلمين في كراتشي عام ١٩٨٢م.
- **المسلم المجاهد:** مجلة فصلية صدرت عام ١٩٨٣م عن اتحاد الطلبة المسلمين في باكستان، وهي عملية دمج المجلتين السابقتين الواحدة بالأخرى.
- **المنصورة:** مجلة ثقافية علمية شهرية صدرت عام ١٩٨٧م عن دار العروبة للدعوة الإسلامية في لاهور.
- **نداء الإسلام:** مجلة ثقافية شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية والعربية صدرت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م في إسلام آباد، يرأس التحرير محمد بشير السيالكوتي.
- **نور الإسلام:** نشرة ثقافية صدرت عن جمعية أهل الحديث في لاهور.
- **الوعي:** مجلة فصلية صدرت عام ١٤١٠هـ في كراتشي عن مركز الشيخ زايد الإسلامي. هذا بالإضافة إلى بعض الدوريات الأخرى والتي لم نتمكن من الاطلاع عليها.

الدوريات العربية الأفغانية

وهي الدوريات التي صدرت إبان الاحتلال الروسي لأفغانستان، وكانت لسان حال الحركات الجهادية والمنظمات الإغاثية المساندة للمجاهدين، وقد توقف أكثر هذه الدوريات بعد زوال الاحتلال، وبعد نشوب المعارك بين الأشقاء، وكان أغلب هذه الدوريات موجهاً للمسلمين العرب من أجل الوقوف على مستجدات المعارك التي كانت قائمة آنذاك، وعلى آخر أخبار الجهاد الأفغاني، وكانت الأراضي الباكستانية منشأ هذه الدوريات وخصوصاً بيشاور وإسلام آباد، ومن هذه الدوريات:



أفغانستان الحاضر والمستقبل

تقرير شهري صدر منذ عام ١٤١٠هـ عن القسم العربي بمعهد الدراسات السياسية بإسلام آباد، رئيس مجلس الإدارة خورشيد أحمد، والمستشار كمال الهلباوي.

- **البنيان المرصوص:** مجلة شهرية سياسية جامعة خاصة بأخبار الجهاد الأفغاني صدرت في بيشاور عام ١٤٠٥هـ عن الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان، أشرف عليها عبد رب الرسول سياف.
- **الثبات:** صحيفة أسبوعية صدرت في بيشاور في عام ١٩٩٠م عن مركز البنيان للإعلام الإسلامي.
- **الجهاد:** مجلة شهرية سياسية جامعة وهي أشهر الدوريات العربية الأفغانية، أصدرها عبدالله عزام - رحمه الله - في بيشاور عام ١٤٠٥هـ عن مكتب خدمات المجاهدين.
- **ذات النطاقين:** مجلة شهرية أصدرتها زوجة عبدالله عزام عام ١٤١٠هـ، وهي متخصصة بأخبار النساء المسلمات ونشاطهن على الساحة الأفغانية.
- **صوت المعركة:** نشرة نصف أسبوعية أصدرها تلاميذ عبدالله عزام عام ١٩٩١م.
- **لهيب المعركة:** نشرة أسبوعية صدرت في بيشاور عام ١٤٠٨هـ عن مكتب خدمات المجاهدين (عبدالله عزام).
- **المجاهد:** مجلة شهرية جامعة صدرت عن جماعة الدعوة إلى القرآن والسنة في بيشاور.
- **المجاهدون:** مجلة شهرية صدرت عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م عن جمعية أفغانستان الإسلامية (برهان الدين رباني) في بيشاور.

منبع الجهاد: مجلة شهرية إسلامية جامعة صدرت في بيشاور.

- **الموقف:** مجلة شهرية صدرت في بيشاور عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م عن الحزب الإسلامي (قُلب الدين حكمتيار) ثم أُلحق بها نشرة أسبوعية عام ١٤١٠هـ.
- **نشرة لجنة الدعوة الإسلامية:** صدرت عن لجنة الدعوة الإسلامية عام ١٩٨٦م في بيشاور.
- **النفير العام:** مجلة شهرية صدرت عام ١٤٠٤هـ عن الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان في بيشاور.

- **وإسلاماه:** مجلة شهرية صدر منها عدد واحد فقط في بيشاور عام ١٤١١هـ.

- **الوطن الإسلامي:** مجلة شهرية صدرت في إسلام آباد عن جماعة جيلاني ثم تحولت إلى اسم (أفغانستان).

هذه أكثر المجلات العربية التي صدرت في باكستان والملاحظ أنها صدرت خلال الحرب الأفغانية الروسية، وقد توقف أكثرها بسبب ما آلت إليه الحرب أخيراً، وقد كان صدورها في بشاور وإسلام آباد، وكثير من هذه الدوريات حررها عرب كانوا يعملون في الساحة الأفغانية من مجاهدين وإعلاميين ومعلمين وغيرهم.

الدوريات العربية الكشميرية

حملت باكستان أيضًا أعباء القضية الكشميرية، والمسلمون الباكستانيون يرون قضية كشمير قضيتهم الأولى، ويعدّون كشمير جزءاً من أراضيهم كقضية فلسطين بالنسبة إلى العرب.

ومنذ عام ١٩٤٧م مازال العداء ماثلاً للعيان بين الهند وباكستان بسبب كشمير، وقد تعرض شعب كشمير المسلم لعدة محن على أيدي الهندوس منذ ذلك التاريخ بل وقبله، وأخذت باكستان بعد انفصالها عن الهند عام ١٩٤٧م قضية شعب كشمير مأخذ الجد، وأتاحت المجال لعدة منابر إعلامية لعرض هذه القضية، وكان للصحافة العربية نصيب منها، وسنعرض بعض هذه الدوريات التي صدرت، ومازالت تصدر، إلى يومنا هذا:

- **الثبات:** مجلة إخبارية جهادية صدرت عام ١٤٠٧هـ.

- **الرباط:** مجلة شهرية دعوية صدرت عام ١٤١٧هـ عن لجنة الإغاثة الإسلامية في لاهور، يرأس تحريرها محمد يوسف طيبي.

- **سياحة الأمة:** وكان اسمها سابقًا (الشهادة) تعنى بالقضية الكشميرية خصوصاً، وبالقضايا الإسلامية عموماً، والمشرف العام عليها: الشيخ عبدالله ناصر رحماني أمير جمعية أهل الحديث صدرت في إسلام آباد عام ١٤١٨هـ.

- **صوت كشمير:** مجلة شهرية صدرت في بيشاور عن حركة المجاهدين عام ١٤١٢هـ، يرأس تحريرها فضل الرحمن خليل.

- **صوت المجاهدين الكشميريين:** مجلة دورية أصدرها مشروع إنقاذ كشمير عام ١٩٩٠م.

- **كشمير المسلمة:** مجلة شهرية سياسية خاصة بالقضية الكشميرية، صدرت عام ١٤١٢هـ في إسلام آباد عن الجماعة الإسلامية بكشمير الحرة، المشرف العام أليف الدين الترابي، وهي من أشهر المجلات العربية المهتمة بالقضية الكشميرية، ومازالت تصدر إلى يومنا هذا.

أهداف الدوريات العربية الصادرة في باكستان

تختلف أهداف الدوريات العربية الصادرة في الأراضي الباكستانية، فمن المعروف أن الدوريات الصادرة في بيشاور وإسلام آباد مثلاً، التي تخص المجاهدين الأفغان والكشميريين كانت أهدافها بالدرجة الأولى تعريف المسلمين العرب قضاياهم ونقلها من الساحة المحلية إلى الساحة الإسلامية والعربية بغية رصد التأييد والجهود من أجل نصرة قضاياهم، وتحرير بلادهم من المحتل الغاشم، بالإضافة إلى بعض الأهداف الأخرى التي منها تبصير المسلمين الناطقين بالعربية في بلادهم بالدين الإسلامي، ونشر الوعي الصحيح بينهم، أما أهداف الدوريات العربية الصادرة عن المؤسسات الباكستانية العربية المحضة فإنها تختلف عن الدوريات المذكورة آنفًا، فهي بالدرجة الأولى تتعلق بنشر العربية بين الباكستانيين ومحاولة النهوض بها عن طريق نشرها في المدارس الرسمية والخاصة، وحث الحكومة على جعلها لغة رسمية، ونشر الدعوة الإسلامية في ربوع البلاد، ومحاربة البدع والخرافات والأوهام، وتعريف القراء العرب بالعلماء الباكستانيين الذين تركوا بصمات واضحة في نشر اللغة العربية واهتمامهم بالتراث العربي، علماً بأن القضية الكشميرية لم تغب عن غاياتها في أكثر الأوقات، ولكنها كانت أقل شأنًا من الموضوعات الكثيرة والمتنوعة.

وبالموازنة مع أهداف الدوريات العربية الصادرة في الهند فإن الاتفاق كان في كل شيء ما عدا الاهتمام بالقضية الكشميرية، فالدوريات الهندية العربية ربما تنظر إلى المشكلة الكشميرية من منظار آخر، ربما لا يخرج عن منظار الحكومة الهندية.

أدب المباسطات في الشعر المهجري الضاحك

كرم قنصل

لقد درج كتّاب كثيرون - عندما يتناولون في أحاديثهم الأدب المهجري - على تبيان الخصائص التي امتاز بها ذلك الأدب من النواحي القومية والاجتماعية والرومانسية والفلسفية والتأملية والحنين.

ولكن قلما نجد كاتبًا تطرق إلى ناحية مهمة من ذلك الأدب، ألا وهي أدب المباسطات، ذلك اللون الضاحك الذي لا مفر من وجوده كي يكون الأدب متكاملاً ينبض بالحياة والحيوية؛ فكل من تناول الأدب المهجري مقرّظًا أو ناقدًا كان محور حديثه عن المناحي التي ذكرناها، وعن كتّابها أو شعرائها أمثال: أمين الريحاني، وجبران خليل جبران، ونعيمة، وأبي ماضي، ومحمود الشريف. والإخوة آل المعلوف، وأحمد زكي أبو شادي، والأخوين قنصل. والقروي، وفرحات، وأبي الفضل الوليد، وعبداللطيف الخشن صاحب جريدة «العلم العربي» وجورج صيدح، وما تضمنه أدبهم من اتجاهات قومية أو فلسفية، حتى غدا الحديث عن أدب المهجر يأخذ شكلاً رتيبًا لا يتعداه، ويعرفه القاصي والداني.

وهذه محاولة لتسليط الضوء - ما أمكن - على الأدب المهجري الضاحك أو أدب المباسطات، هذا اللون المرح الفكه الذي يدل على ما كان يتمتع به أدباء المهجر من خفة روح وسرعة بديهة. إن أدب المباسطات كالملح لا يزكو الطعام من دونه، فهو يعبر عفويًا عن أحاسيس مرهفة أو انفعالات طارئة



إيليا أبو ماضي

يشعر بها الأديب أو الشاعر في حالات معينة كالغضب أو الفرح مثلاً، فيترجمها شعرًا خفيفًا أو كلمات لاذعة تحمل على الضحك، ومن ثم تظهر شخصيته على حقيقتها وشاعريته على أصالتها.

وقد تفتقت أذهان أغلب شعراء المهجر وأحاسيسهم عن ملح ونوادر مع بعدهم الشاسع عن أوطانهم ومراتع صباهم، وعلى الرغم من حاجتهم الماسة إلى الركض وراء لقمة العيش في مغتربات ومجتمعات لا تؤمن إلا بالمادة دينًا لها. وهذه النوادر كانت تريح أعصابهم المرهقة من العمل الشاق. جاءت مباسطاتهم ونوادرهم على شكل قصائد أو أبيات شعرية متفرقة تحمل على الضحك وتجدد العزم وتخفف ما أمكن من مرارة الغربة، وخصوصًا عندما يتحلقون حول فنجان من القهوة في سهراتهم أو لقاءاتهم في إحدى المناسبات، فيتناقلها المغتربون على اختلاف مشاربهم ودرجات ثقافاتهم متندرين بها أينما حلوا وحيثما رحلوا.

ففي الولايات المتحدة المهجر الشمالي كان فرسان الرابطة القلمية حيث أزهر الشعر والأدب وكان لأدبائها نصيب من النوادر والمطارحات الشعرية.

- يقول الشاعر المهجري الكبير جورج صيدح في كتابه «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» كانت جريدة «السائح» هي المضافة التي شهدت أكثر المطارحات والشعر الفكاهي. وكان على رأس هؤلاء الفرسان الشاعر رشيد أيوب الملقب (بالدرويش)، وعبدالمسيح حداد الملقب (بالدعبول) وكان رشيد فقيرًا معدمًا، فطلب منه عبد المسيح حداد يومًا أن يشاركه في شراء بعض الحلوى، فما كان من رشيد إلا أن مدّ يده إلى جيبه وأخرج بطانتها وقال:

للناس عيش طيب
أما أنا يا ما أمرّ..

أســـــعى ولكن لا أرى
للحــــسن في حظي أثر
إن كــان بالصـبـر الغنى
أيوب مـثلي مـا صبـر..

فأجابه عبدالمسيح ضاحكًا: «شو هالحكي يا رشيد؟. كل أصحابك بيقولوا إنك بتملك نص معامل سيارات فورد..».

وفي أحد الأيام ذهب صديقه الشاعر إيليا أبو ماضي ليزوره فلم يجده، بل وجد باب بيته مفتوحاً ولا أحد فيه، فترك له هذه الأبيات:

كيف تركت الدار يا صاحبي
مفتوحة الباب لمن يطرق؟
أليس في هذا الحمى سارق
أليس في بيتك ما يسرق؟
أم علم القوم على جهلهم
أنك ذاك الشاعر المفلق؟
جميلة دارك يا سيدي
ودربها والشجر المورق..
لكنها عمياء.. صماء.. لا
عين ولا سمع ولا منطق

موت كلب وهجران حبيبة

وفي إحدى الجلسات الأدبية في إدارة جريدة «السائح» لاحظ إيليا أبو ماضي علامات الحزن بادية على وجه زميله - خازن الرابطة القلمية - وليم كاتسفليس فسأله عن سبب حزنه فأخبره وليم أن كلبته - فيفي - قد ماتت. فأخذ يواسيه ويرثيها بهذه الأبيات:

عضّها الدهر بعد ما عضت النا
س وأدّت مهمة الحجّاب
كم فقير أتى ليشحذ قوتًا
حرمته فيفي ولوج الباب
وغريم قد جاء يطلب دينًا
تركته معفّرًا في التراب
وشقيٍّ أتى ليسرق شيئًا
غادرته ممزّق الأثواب
رحمة اللحم والعظام عليها
وصلاة الصحون والأكواب
وحباها النعيم تختال فيه
حرة في العواء والتلعاب



زكي قنصل

تأكل البقسماط يغمس في الدُّ رْ
رِ وتعطى ما تشتهي من كباب

وفي هذه الأثناء دخل فيليب كاتسفليس شقيق وليم متجهم الوجه لأن حبيبته واسمها أيضاً فيفي قد هجرته. فتابع أبو ماضي مواسياً على لسان فيليب فقال، وهو يشير إلى موت كلبة أخيه ومصابه بحبيبته:

قعد الحزن به لما قعدْ
غارب اليأس وما لليأس حد
كلما عوّت كلاب الحي في
موهِنِ الليل تلوّى واكتمدْ
وإذا شاهد جرواً غاص في
ذكر فيفي وعلى العين زبدْ
سهر الليل يناجي بدره
علّه يسلو به عمّن فقدْ
يا أخي إن كنت تبكي كلبة
أخلصت وداً لأهلٍ وولدْ
فأنا أبكي فتاة حيةً
قلبها ميْتٌ، وهل ميت يُرَد؟

ليته مهجور

وفي إحدى سفراته نزل أبو ماضي في فندق فخم ليقضي ليلته فلم ير فيه إلا العجائز، وقد تحلقن حول مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب. فطلب فنجاناً من القهوة، وخلال ساعة كانت أمامه قصيدة ضاحكة من خمسين بيتاً نقتطف منها الأبيات التالية:

لمن يضوع العبير
لمن تغني الطيور؟
ولا جمال أنيق
ولا شباب نضير
بل موميات عليها
أطالس وحرير
راحت تقعقع حولي
فكاد عقلي يطير
ولاذ قلبي بصدري
كأنه عصفور
لاحت له في الأعالي
بواشق وصقور

***

قال ضُويقت فاهرب
قلت الفرار عسير
مالي جناح ولا لي
سيارة أو بعير
صبراً.. فهذا بلاء
مقدر مسطور
ورحت أسأل ربي
وهو اللطيف الخبير
أين الحسان الصبايا
إن كان هذا النشور؟
ليت الحضور غياب
والغائبين حضور
يا طالب الشهد أقصر
لم يبق إلا القفير
كأنما الوجه منها
قد عضه الزمهرير
تبدو لعينيك فيه
برازخ وبحور..
وأنجُدٌ.. ووهاد
لكنه.. مهجور..
ولليدين ارتعاش
وللعظام صرير
أما العيون فغارت
ولا تزال تغور
مغاور.. بل صحارى
بل أكهف.. بل قبور
والخصر.. عفواً وصفحاً
كانت لهن خصور

***

هن السعالي ولكن
سُعالهن كثير
حديثهن انتفاض
وضِحْكهن هرير

***

ما للرماد لهيب
ما للجليد خرير
في فندق أنا أم في
جهنم محشور؟
وهل أنا فيه ضيف
لساعة أم أسير؟
فليتني لم أزره
وليته مهجور..
فليس يهنأ فيه
إلا الأصم الضرير

سبح في بحر المعاني

أما الشاعر المعروف أسعد رستم فما نظم قصيدة واحدة إلا وكان الفخر عمادها، فتأتي قصيدة ضاحكة بغض النظر عن القوة والمتانة في الحبكة والجرس الموسيقي المفروض توافرهما في الشعر؛ فالشعر الضاحك أو المرتجل قد يتمرد أحيانًا على تلك الشروط. وأسعد رستم شاعر الجالية كما كانوا يلقبونه، معذور من هذه الناحية، لأنه، على حد قوله، لا بأس في أن يضحي الشاعر بالأوزان في سبيل انتزاع الضحك من أفواه سامعيه. وهذه قصيدة - لا نحطها واطيه - لهي الدليل على قوله ولقبه:

يقول بعض الناس لي حُسَّدٌ
أعْدمْتُهم بنظميَ العافيه
بأن شعري لا يسمّونه
شعرًا فلم ترقَ له قافيه
وأن نظمي لغة ما صفا
والشعر في لغته الصافيه
فقلت لو صحّ الذي شيّعوا
لما دعوني شاعر الجاليه
ولا أغالي إن أقل إنني
حشرت أهل الشعر في الزاويه
والبعض لا ينظم في ساعة
ما ينظم الأسعد في ثانيه



شفيق المعلوف

سبحت في بحر المعاني إلى
أن بلغت بي سالمًا شاطيه
أما بإنشاء القوافي فلا
(أحطها لأحد واطيه)..

بدران لا جروان

وكان لأسعد رستم صديق اسمه بدران عنده كلبة خلفت ووضعت جروين. ففرح بهما كثيرًا. فطلب من أسعد أن يصفهما له إذا كان شاعرًا حقًا. فقال أسعد على الفور:

عند الصديق رأيت يومًا كلبة
حسناء في أحضانها جروان
قال الصديق: إذا قدرت فصفهما
شعرًا.. فقلت له هما بدران

وبدران هي تورية لاسم صديقه. كما كان - رحمه الله - يتلاعب بالنظم كما يشاء ولا تهمه ركاكة العبارة كما أسلفنا، المهم عنده أن تأتي القصيدة عامرة بالمرح والفكاهة.

الصلعة والحسان

ومن نكاته ما قاله لصديق أصلع الرأس وقد جاءه يومًا متأففًا من صلعته لأنه لم يجد الدواء لإنبات شعر جديد. فقال أسعد:

لصديقنا في رأسه صحراء
جفت. فلا عشب بها أو ماء
وكأنها الميدان من بعد الوغى
فني الجميع فما به أحياء
تزداد ما مرّ الزمان مساحة
وصديقنا من كبرها يستاء
ولقد سمعناه يقول ودمعه
يجري فيعمي مقلتيه بكاء
كم من دوًا للشَعر قد جربته
يومًا فراح سدى وظلّ الداء
يا حسرتي ذهب الشباب وكان لي
فيه مآثر جمة غراء
أما الحسان الفاتنات فليس لي
مع صلعتي في وصلهنّ رجاء

***

قلنا له: مهلاً فلِمْ هذا البكا
واسمع ففي هذا الكلام عزاء
أو ليس للإنسان في إحرازها
شرف ويملك مثلها العلماء؟
فأجاب: لا شرفًا أريد ولا علا
أفما لديكم غير ذاك دواء؟
قلنا: نعم.. زبل يرشّ فإنما
بالزبل تحيا الروضة الغنّاء

حذاء هدية

وإذا ما انحدرنا نحو الجنوب وصولاً إلى البرازيل فإننا نجد شعراء ذلك المهجر يتمتعون بقدر كبير من خفة الروح التي جعلت أدبهم زاهي الألوان رائع اللمعان. فهذا الشاعر الثري جدًا - نعمه قازان - صاحب مصانع الأحذية في سان باولو، نراه يهدي صديقه الحميم الشاعر - توفيق ضعون حذاءً، ومعه هذان البيتان من الشعر:

لقد أهديت توفيقًا حذاءً
فقال الحاسدون: وما عليه؟
أما قال الفتى العربي يومًا
شبيه الشيء منجذب إليه؟

فرد ضعون على صديقه قازان قائلاً:

لو كان يهدى إلى الإنسان قيمته
لكنت أستأهل الدنيا وما فيها
لكن تقبلت هذا النعل معتقدًا
أن الهدايا على مقدار مهديها

أقرع يتمشط

ومن مداعبات الشاعر إلياس فرحات قوله لابنته الصغرى منى عندما همّ بتمشيط شعره القليل جدًا:

عبثت مناي بصلعتي وتضاحكتْ
لما رأتني للتـمـشّط أنشط
ومضت بلثغتها تقول لأمها
أرأيت ماما أقرعًا يتمشط
أبنيتي إن الحياة لسلمٌ
يهنيك أنك تصعدين وأهبط
والدهر يا ولدي يغربل صلعتي
فالبيض تثبت والحوالك تسقط

الحُزْنُ أم لزينه؟

وفي أثناء جلسة عائلية ضمت بعض الأصحاب ومن بينهم الشاعر القروي والشاعر فرحات دخلت سيدة حسناء تتشح بالسواد حزنًا على زوجها. فقال صاحب البيت للشاعر القروي: ماذا تقول في هذه السيدة يا قروي؟ فأجاب القروي على الفور:

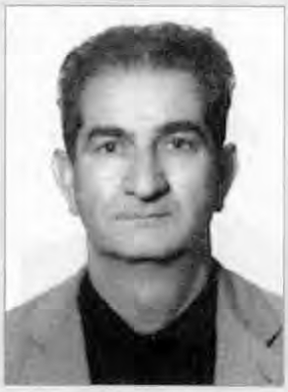
أنت يا أخت الدراري
بالثياب الحالكات
أنت من أي الذراري؟
أنت من أي الجهات؟
أنت مَن أو بنتُ مَن؟
إن في عينيك خمرا
تترك الأرواح نشوى
إن في خديك جمرا
فاجعلي في الصدر سلوى
مثلما في الثغر منّ

فالتفت صاحب البيت وقال لفرحات: وأنت يا فرحات ماذا تقول؟ فقال فرحات:

ألحُزْنٍ أم لزينهْ
شبه حظي تلبسين؟
وإذا كنت حزينه
فعلى من تحزنين؟
منْ من الأحباب مات؟
قيل لي مات فتاك
قلت هذا لا يكون
إن من نال رضاك
كيف ترديه المنون
والرضا منك حياة

الفنجان والساعة

ومن المطارحات الشعرية الجميلة ما جرى في جلسة عائلية في منزل إحدى سيدات آل المعلوف وقد ضمت أربعة شعراء وهم: فوزي المعلوف، وشقيقه شفيق المعلوف، وخالاهما ميشيل وشاهين المعلوف.



إلياس قنصل

وبينما كانت السيدة المضيفة تحتسي القهوة معهم سقط الفنجان من يدها إلى الأرض فكان ذلك فرصة للتندر والتعليقات. فأرادت السيدة المعلوفية أن تشحذ قرائح ضيوفها الشعراء فاقترحت عليهم أن ينظموا تعليقاتهم شعراً مرتجلاً وجعلت للمبرز منهم جائزة وهي ساعتها الذهبية الموجودة في معصمها. فقال شاهين:

ثمل الفنجان لمّا لامست
شفتاه شفتيها واستعر
فتلظّت من لظاه يدها..
وهو لو يدري بما يجني اعتذر
وارتمى من وجده مستعطفا
قدميها وهو يبكي فانكسر

فقال الشاعر ميشيل:

عاش يهواها ولكن
في هواها يتكتم..
كلما أدنته منها
لثم الثغر وتمتم
دأبه التقبيل لاينـ
فك حتى يتحطم

وجاء دور الشاعر شفيق فقال:

إن هوى الفنجان لا تعجب وقد
طفر الحزن على مبسمها
كل جزء طار من فنجانها
كان ذكرى قبلة من فمها

فنظر الشاعر فوزي إلى الفنجان فوجده ما يزال سليماً لم يتحطم فقال:

ما هوى الفنجان مختارًا فلو
خيّروه لم يفارق شفتيها
هي ألقته وذا حظ الذي
يعتدي يومًا بتقبيل عليها
لا ولا حطمه اليأس فها
هو يبكي شاكيًا منها إليها
والذي أبقاه حيًا سالمًا
أمل العودة يومًا ليديها

ففازت هذه الأبيات بالساعة لرشاقة معانيها. فعلق شاهين على ذلك قائلاً:

يا ساعة ما أنت أول ساعة
ضيعتها من ذكريات حياتي
ما دمتُ ضيعتُ السنينَ فما أنا
بمعاتب دهري على الساعات

كحلها أم عماها؟

وفي المهجر الأرجنتيني كان ثمة شلة من الشعراء والأدباء الأصدقاء أنتجت من الشعر الضاحك الكثير الكثير، وأسهمت إسهامًا مرموقًا في المطارحات والمباسطات الشعرية الخفيفة الظل.

فعندما أسست الرابطة الأدبية في بوينس أيرس في مطلع الخمسينيات اجتمع بعض الشعراء والأدباء في جو مشبع بالحماسة والتفاؤل في منزل الشاعر المعروف جورج صيدح، وفي أثناء الاجتماع اقترح صيدح أن يسجل كل شاعر انطباعه ولو ببيتين من الشعر بهذه المناسبة، وكان هو البادئ بصفته صاحب الاقتراح، فكتب:

أأشتاق الحمى والساكنيه
وفي داري أرى أغلى بنيه
بروحي زورة الأدباء أسلو
بها بلدي وما خلفت فيه

وبعده قام الصحفي والشاعر عبداللطيف الخشن صاحب جريدة «العلم العربي» التي كانت تصدر في بوينس أيرس وكتب:

تيقّظ يا أخي بعد الهجوع
تهيأ زادُ روحك بعد جوع

لقد صمنا شهورًا بل سنينًا
وأفطرنا على الرأس الصليع
سـأدلي بين أيديكم بدلوي
وتقليدي لصيدحنا شفيعي
فإما أن أصير أمير شعر
وإما أختفي وأسدّ نيعي(١)

ويظهر أن كلمة الرأس الصليع - وهي إشارة إلى رأس صيدح - قد نبهت الأذهان للتندر بها بين المجتمعين فكتب الشاعر إلياس قنصل:

عيّروه بقبحها وهي في شر
عي مثال الجمال والتبريز
لونها كالشفاه مرّ عليها
قلم للطلاء من باريز
شعرة فذة تساقط منها
لتساوي شهادة التجهيز(٢)

وجاء دور الشاعر زكي قنصل فكتب مخاطبًا شقيقه إلياس:

لا تبالغ بهجوها لا تبالغ
جلّ من صاغها يتيمة صائغ
ينبت العشب في الوهاد وتبدو
فلك الشامخات جردًا فوارغ
أيها الضاحكون من جدب رأسٍ
الصحارى تمخضت بالنوابغ
هذه الصلعة التي أضحكتكم
سال منها البيان ريّان سائغ
هي كالحق لم يُقنَّع بستر
هي كالفجر سافر الوجه بازغ
غشيتْ دونها العيون فلا تر
نو إليها إلا وطرفك زائغ
هي عندي جريدة لم تمالئ
مستبدًا في أمره أو تراوغ
راقبتها من الحكومة عين
فبدا حقلها الرئيسي فارغ

فانبرى صيدح يدافع عن صلعته قائلا:

صلعة الخير لا أصابتكِ عين
من عيون الحساد ذات الشواظ
ليت لم تسفري ولم تخرجيهم
من تقاليد حشمة في عكاظ
الوقارَ الوقارَ يا عصبة الأف
ذاذ ما أنت عصبة الأفظاظ



إلياس فرحات

إن لي صلعة أجلّ من الشيـ
ب وأحرى بمدحة القرّاظ
يشتهي المشط أن يمرّ عليها
بخطوط دقيقة أو غلاظ
وهي تأبى إلا الشعاع نزيلا
ورسولاً منها إلى الألحاظ
عزّ بين الرؤوس رأس تخلّى
عن تهاويل تاجه البهاظ
أحلس أملس كخد الصبايا
زالق آبق على الفظاظ
ما أنا الأصلع الوحيد ليهجو
صلعتي كل أشعر مغتاظ

ولفت نظر إلياس قنصل صورة لصيدح معلقة على الجدار فقال فيها:

صيدح في صورة را
غبة لو لم تكنه
قيل صفها قلت يكفي
أنها أقبح منه

فبادر للرد على إلياس قنصل المطران الشاعر - نيفن سابا - وقال:

صيدح في صورة را
ئعة يارب صنه
حسدتها أعين را
غبة لو لم تكنه
قيل صفها. قلت يكفي
أنها للأصل عنه
كذب القائل فيها
إنها أقبح منه

فقال له صيدح: «لَهْ يا سيدنا جيت لتكحلها عميتها».

في ربيع عام ١٩٨٦م وصلت إلى الأرجنتين بدعوة من شقيقي زكي قنصل آخر شعراء المهجر، وبعد أسبوع من وصولي جاء أحد أصدقائه الحميمين للسلام عليّ ودعوتنا لحضور حفل زفافه تعقبه مأدبة عشاء.

وفي أثناء المأدبة طُلب من الشاعر أن يوجه للعروسين بعض الأبيات الشعرية. وكان زكي قد أخذ للأمر حيطة من قبل. فنهض وأعلن للحضور بأنه سيخرج عن التقاليد المتبعة وسيداعب صديقه ببعض الأبيات الضاحكة على سبيل الدعابة وحسب، وألقى قصيدة من اثنين وعشرين بيتًا قوطعت بالضحك والتصفيق لمرات عديدة نختار منها هذه الأبيات:

ودع الكاس والطلا والربابا
والنديّ الطروب والأصحابا
ذهب الجد بالدعابة فاندب..
غزوات الشباب وابك الشبابا
قد دعاك الزواج فاطوِ كتاب الـ
لهوِ وافتح إلى دموع كتابا
غضب الله قد تولاك فادفع
بجميل الأناة هذا المصابا
كيف أغراك في الزواج بريق
ليس هذا البريق إلا سرابا
كنت حرًا فكيف تلبس نيرًا
وسعيدًا، فهل تطيق العذابا؟
يا صديقي جربتُ قبلك حظي
فأكلنا كما أكلت.. خرابا
إن تكن بدعة الزواج نعيمًا
فلماذا يفر منه البابا؟؟

الهوامش

١- النيع: كلمة عامية يستعملها سكان سورية ولبنان ومعناها «الفم».
٢- التجهيز هي مدرسة شهيرة في دمشق. واسمها الآن «ثانوية جودة الهاشمي».

ابن سحبان شاعر تهامة

عبدالله بن محمد أبو داهش

لم يكن الشاعر منصور بن عيسى بن سحبان الضمدي (ت:٧٢٥هـ) قليل الشأن والحضور الأدبي عبر هذه الفترة، بل كان نابهًا كثير المشاركة الأدبية في وطنه المخلاف السليماني واليمن والحجاز، ولكنه لم ينل من الشهرة ما ناله معاصره ومواطنه الشاعر ابن هتيمل لأسباب قد تكون اجتماعية أو سياسية، فضلاً عن تقصير الكتاب من معاصريه والذين أتوا من بعده، إذ لم ينل اهتمامهم، ولا تشجيعهم، ولربما كان ذكره في الحجاز أظهر من تهامة لما اشتملت عليه مصادر الحجازيين من أخباره وأشعاره.

ومهما يكن من أمر، فقد أثنى عليه الخزرجي بقوله: «وفيها [٧٢٥هـ] توفي الأديب البارع منصور بن عيسى بن سحبان، وكان شاعرًا فصيحًا بليغًا مدّاحًا هجاءً حسن السبك، جيد المعاني، من أفصح الشعراء المجودين، توفي مقتولاً بيد الأشراف الحرانيين، وكان قد هجا الأشراف وعددًا من رؤساء العرب، وهجا الملوك، وله في مدحهم القصائد المختارة، وكان قتله في ذي القعدة أو في ذي الحجة من السنة المذكورة ـ رحمه الله تعالى»(١).

ولا نعلم من هم الأشراف الذين قتلوه سوى ما جاء في قول الفاسي عنهم: «الأشراف أصحاب المخلاف السليماني»(٢) وقول العقيلي عنهم: «والعجيب أن الشاعر قتله الهاشميون الذين دافع عنهم بشعره، ويظهر أن قتله كان ظلمًا، لذلك تجد كتب تواريخ المخلاف وأدبه تنعته بالشهيد»(٣)، ولقد أضاف العقيلي إلى ذلك قوله: «ويظهر أن خصومه كما أزهقوا روحه تآمروا على طمس أشعاره، لهذا نجد مخطوطات التاريخ والأدب الخاصة بتراث المنطقة خالية من أشعاره»(٤)، ولقد وصف شعره الموجود بين أيدينا على قلته بأنه: «يتسم بعذوبة الموسيقى ووضوح المعنى، مع ولعه بالجناس والمطابقة»(٥). وترجم له الزركلي بقوله: «كان فصيحًا بليغًا مدّاحًا هجاءً، حسن السّبك، جيد المعاني، توفي في صبيا مقتولاً بيد بعض الأشراف، قال الجندي في تعريفه: أكبر شعراء الوقت»(٦).

ولقد نال ابن سحبان اهتمام المؤرخ عزالدين بن فهد القرشي، فأورد له جملة قصائد في تاريخه: «غاية المرام» منها قصيدته في مدح الشريف رميثة بن أبي نمي (٧٤٦هـ) التي يقول في صدرها:

ما أومضت سحرًا بروقُ الأبرقِ
إلاّ شرقتُ بدمعيَ المترقرقِ(٧)

ثم امتدحه بقوله:

رجلٌ إذا اشتبه الرّجال عرفتهُ
بجلال صُورته وحُسن المنطقِ
ومُظفّر الحمَلات يرقُصُ منه قلـ
ـب المغرب الأقصى وقلبُ المشرقِ
علمٌ يدلُّ على كمال صفاته
كرمُ الفروع له وطيب المَعْرِقِ
يلقى بوجه البشر طارقَ بابه
كرمًا ويُرزق منه من لم يُرزقِ
عزّت بنو حسنٍ بدولته التي
عِزُّ الذليل بها وأمْنُ المُفْرِقِ
هو صُبْحُ ليلتها وبدرُ ظلامها
ولِسانُ حكمتها وصدر الفيلقِ
لا يتّقي من كُلِّ حادثةٍ بها
وبه بمكْروهِ الحوادثِ نتّقي(٨)

ويبدو أن الشاعر ابن سحبان قد محض كثيرًا من شعره هذا الشريف، إذ نلحظ وفرة قوله في هذا الجانب، إذ قال عزالدين بن فهد: «وله فيه من قصيدة أولها»(٩):

حَفِظ العهدَ بعْدَنا أمْ أضاعا
وعصى لائمه أم أطاعا
ورَعى حُرمة الجوار وراعى
أم دهى بالفراق قلبي ورَاعا
من يكن يحمد الوداع فإنّي
بعدَ يوم النّوى أذمّ الوداعا
جيرتي ما لنا حفظنا هواكم
وغدا حبُّنا لديكم مُضاعا
إنّ مَنْ قدّر الفراق علينا
قادر أن يقدِّر الاجتماعا(١٠)

ومنها:

خالطِ النّاسَ بالخداع فما أكـ
ـثرَ أهلَ الزّمان هذا خداعا
قل لأهل الزّمان لستُ وإن ريـ
ـع سوايَ بكيدكم مُرتاعا
نحن في دولة إذا ما مدّت النا
سُ إلينا شبرًا مددنا ذراعا
إن يكن قبلَها نزاعٌ فقد أصـ
ـبح حتى الصّغير منها يُراعى

طلبتْ بي أبا عـــرادةَ عـــيسٌ
لا تملُّ الإرقـــالَ والإيضـــاعـــا
عـرّستْ من رُمـيـثـة بِعـراضٍ
لم يزلْ نبْتُ روضـهـا مـمـراعـا
نزلتْ سُوحـه عِطاشـا جِـيـاعـا
فـأقـامت بـه رواءً شِـبـاعـا
رجُلٌ لا تراهُ بالمال مِــفـــرا
حًـا ولا من مُلمّـة مـجـزاعـا
وعليـــه بِكرُ الخـــلافـــة ألقتْ
إذ رأتْـهُ رداءها والـقـنـاعـــا
ليْسَ بـالـنـازلِ الـوِهـادَ مـن الأر
ضِ ولكنّه يحل اليـــفـــاعـــا
مُـوقـدًا نارَهُ على نشـــز الأرْ
ضِ إذا الـنّاسُ لبّـسوها القـفـاعـا
نَم هنيـئـا يا جــاره ملءَ عـيني
ـك ولا تخْشَ ثانـيًا أن تُراعـا(١١)

وله فيه من أخرى أولها(١٢):

جَنَابُك أمْضى من عِطاش القَنا عزمـا
وأرجح من رضـوى ومن يذبُل حلمًا
وكُلٌّ لـه ضِـدٌّ يُسـامـيـه في العُـلا
ولسْتَ تُسامَى لا ومن علّم الأسـمـا
فـمـا للمـعـالي يا رُميـثـةُ غـايةٌ
تفـوتُ الورى إلاّ أحطت بها علمـا
تعُـدُّ رسـولَ الله جـدًا وحـيـدرًا
أبًا والبـتـولَ الطهـرَ يا ذا العُـلا أمًا
وتنْدُب إبراهيمَ خــالاً وتعــتــزي
إلى جعفر الطيار منتسبًا عمًا(١٣)

وله فيه من أخرى(١٤):

مليكٌ أقــام الحقَّ بعـد اعـوجـاجـه
وشـيّـد منْ سـمك المعـالي منارها
مــتى بَطِرتْ قــومٌ أذلّ عــزيزهـا
وإنْ عـثـرتْ جـهـلاً أقـال عِـثـارها
إذا جــاد يومًــا لم يشقَّ غُــبـارُه
وإن شـهـد الهـيـجـاء شق غـبـارها
أشمُّ قـــيـــاديُّ الأبُوّة بُرْدُهُ
حـوى حلم آل المصطفى ووقـارها
وأبلجُ مـحـضُـور الخِـوانِ يمينُه
تُزيل عن المُسْتـرفـدين افـتـقـارَها
جـمـالٌ يحـارُ الطَرفُ فيـه وعـزمُهُ
كـسـا فـخـرَها قـحطانَها ونزارَها
ومـا برحت إن صحّت يومًا لمنجدٍ
كـبـارُ أياديه تؤمُّ صـغـارها(١٥)

ولم يقتصر شعر ابن سحبان على المدح وحسب، بل تعداه إلى المعارضة والعتاب، يقول الفاسي في معرض حديثه عن الشاعر اليمني علي بن محمد الحنديدي (٧٠٧هـ): «وكان الحنديدي المذكور هجا الأشراف أصحاب المخلاف السّليماني، فكتب إليه الأديب أبو عامر منصوربن عيسى بن سحبان بقصيدة يعاتبه على ذلك، ويعظم عليه، وينهـاه، وهي على روي قصيدته التي هجـاهم بهـا، يقول فيها»(١٦):

فـــقُل لـي يـا عـلـيُّ بأيِّ وجـــه
جـعلت قِناعَ حُـرمـتـهم مُـذالا
أفـي ولد الـعـــواتـك من قـــريش
يصـادفُ قـائل الفـحـشا مـقـالا
فـدعْ مــا رُمتَ والتـمس التّـعطي
عـسى بمحـمـد تُعْطى النوالا
ولا يغـــررْك بُعـــدك فـــالليـــالي
بما ترجـو ومـا تخـشى حـبـالى
فـبَـعْـد هِجـاك مـخـلاف(١٧) ابنِ (١٨)طرْفٍ
فلسْتَ لملـةٍ ترعى وِصـــالا(١٩)

و«توفي ابن سـحـبـان في صـبـيـاً مـقـتـولاً على يد بعض الأشـراف»(٢٠)، فـإذا صح هذا، فـإن الأمـر يمثـل حيـاة قبليـة مـضطربة، وأن هذه الظروف المحيطة بقـتله تحـتـاج إلى تـوثيق ودراسة، فضلاً عن وضـوح هذه الروح القبليـة نفسـها في شـعـر هذا الشاعر وأنه كان يصدر عن مظاهرها في ألفاظه وبعض معانيه.

المراجع

١ـ الخزرجي، علي بن الحسن، «كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسـوليـة»، ٣٨/٢، مطبعة الهلال، مصر، ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م.
٢ـ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني، «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، تحقيق فؤاد سيد،، ٢٦٥/٦، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٣ـ العقيلي، محمد بن أحمد، «التاريخ الأدبي لمنطقة جازان» ط١، ١٧٤/١، منشورات نادي جازان الأدبي، مطبعة جازان، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، ١٧٤/١.
٤ـ المرجع نفسه، ١٧٤/١.
٥ـ المرجع نفسه، ١٧٥/١.
٦ـ الزركلي، خيـر الدين ـ «الأعـلام»، ط٦، ٣٠١/٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
٧ـ ١٠١/٢، وانظر:العصامي، عبدالملك بن حسن، «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» المطبعة السلفية، ٢٢٦/٤، ٢٢٧، ٢٣٨، مصر، بدون تاريخ.
٨ـ المصدر نفسه، ١٠١/٢، ١٠٢.
٩ـ المصدر نفسه، ١٠٢/٢.
١٠ـ المصدر نفسه، ١٠٢/٢، ١٠٣.
١١ـ المصدر نفسه، ١٠٢/٢، ١٠٣، ١٠٤.
١٢ـ المصدر نفسه، ١٠٤/٢.
١٣ـ المصدر نفسه، ١٠٤/٢، ١٠٥.
١٤ـ المصدر نفسه، ١٠٥/٢.
١٥ـ المصدر نفسه، ١٠٦/٢.
١٦ـ العقد الثمين، ٢٦٥/٦.
١٧ـ في الأصل: «المحلاف».
١٨ـ في الأصل: «بن».
١٩ـ المصدر نفسه، ٢٦٥/٦، ٢٦٦.
٢٠ـ الزركلي، الأعلام، ٣٠١/٧.

وما آفة الأخبار إلا رواتها

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

كان بإمكان من قال هذه الحكمة؛ القوية الأداء، الواضحة الهدف، السلسة الأسلوب، المحددة المعنى، الشاملة الفكرة، المسددة الاتجاه، أن يقول: «آفة الأخبار رواتها»؛ مما قد يراه غير المتمعّن أنه أكثر اختصاراً، ويفي بالغرض، إلا أن الحكيم قصد أن يُدخل في الجملة النفي يتلوه الإثبات ليهيئ ذهن السامع، ويجبره على التوقع والتطلع، ويتم حصر المعنى فلا يدخل الجملة ما ليس منها، ولا يخرج منها ما لابد من بقائه فيها.

والآفات في نقل الأخبار متعددة ومتنوعة؛ بعضها يأتي من أن الراوي ينقل الخبر بعمومه، ثم يروي عنه السامع الخبر كما ارتسم في ذهنه، فيختار الكلمات والمعاني في حدود المعنى العام الذي فهمه وتصوره في ضوء الكلمات والجمل، ونبرة الصوت، وملامح الوجه، وحركات الأيدي، وقد يغيّر في الخبر عندما يرويه، مرة إثر مرة، مستعملاً كلمات غير الكلمات الأولى، مادامت الرواية بقيت شفهية؛ وقد يبعد في التعديل، فيتصور خللاً فيفسده مجتهداً، أو غموضاً فيوضحه متبرعاً، وقد يسقط جزءاً تبين، عند روايته له، أن عليه اعتراضاً من السامعين، أو نقداً من العارفين، لمغايرته لما تعورف عليه، أو لتعارضه مع جزء آخر من الخبر، أو لتناقض أدى إليه سوء نقل الراوي للمروي.

وقد تأتي الآفة من الاجتهاد في إكمال ما خانت فيه الذاكرة صاحبها، فعندما ينسى الراوي، أو يشتبه عليه اسم في الخبر، يعوضه باسم آخر يتناسق مع طبيعة الخبر؛ فإن كان الخبر مضحكاً، فأشعب وأمثاله من المضحكين، تسعف بهم الذاكرة سريعاً، وإذا كان أمراً يخص الذكاء، فإياس بن معاوية مشجب مُعَدّ يعلّق عليه ما تاه عن الطريق، وإذا كانت القصة عن كرم شخص غاب اسمه عن الراوي فاسم حاتم طي ينجد المستنجد، وإذا شك الراوي في قصة عن الحلم، وبطلها، فالأحنف بن قيس قريب التناول، وهكذا تدخل الآفة تدرج بخطى ثابتة، على أرض سهلة، الطريق فيها معبد، ومعالمه هادية.

وقد يجد الراوي غير الأمين أن وقوف الرواية عند حد معين، يجعلها شبه ناقصة، ولا تأتي بالإعجاب المطلوب، والدهشة المتوقعة، فيعمد الراوي إلى جبر الكسر، وإضافة لحم إلى العظم، أو شحم إلى اللحم، ويكمل بذلك ما ظنه نقصاً، ويسد ما حسبه ثغرة، ويقوّم ما ظنه معوجاً، وقد يصل بهذا إلى بغيته من الرضا، أو الإصغاء أو الانبهار.

وقد تكثر الإضافات على الرواية مع كل راوٍ جديد، وقد تتغير المعالم الأصل، ويتبدل الاتجاه، فيهتز الهدف، وتبهت الغاية، حتى يصبح الخبر غير الخبر والقصة غير القصة، وتنتصر الآفة.

وقد تأتي الآفة من أن الراوي يتوهم في تحديد وقت الخبر، فيجتهد، أو يتسرع فلا يجتهد، ويضع تاريخاً غير التاريخ، أو وقتاً غير الوقت، أو مكاناً آخر غير المكان، أو ظرفاً غير الظرف، فيهتز الخبر من أساسه عند المتمعن، وتتهاوى أعمدته عند الفحص والتدقيق، فيُجتثُّ من أصوله، ويرمى به جانباً، ويصبح من سقط المتاع، أو يُجتهد في إعادته إلى مجراه، عن طريق نص آخر، يسلب منه بريقه، فإن جاء في كتاب سل منه الثقة، وجره إلى مكان متدنٍ من الاعتبار.

والرواية الآتية من الأمثلة على خروج الرواية من طريقها، وابتعادها عنه، حتى يأتي عالم بالأمر، يعيدها إلى الجادة، ويردها إلى طريق الصواب، فيصحح خطأها، ويسدد سهمها، ويبعد عنها الآفة التي نخرت جذرها، والسوسة التي تغلغلت إلى عروقها؛ وهذا مثل من الأمثلة التي دلّ على الخطأ فيها الزمان، والأشخاص، وهدى الله أحد النابهين، فكشف عن الخلل فيها، وبرهن بدليل قاطع على ما أبداه:

«ذكر المسعودي في «شرح المقامات»: أن المهدي، لما دخل إلى البصرة، رأى إياس بن معاوية، وهو صبيّ، وخلفه وقدامه أربع مئة طيلسان من العلماء، وغيرهم؛ فقال المهدي:

أفٍ لهذه العثانين، أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غيرُ هذا الحدث، ثم قال له المهدي:

كم سنك؟

فقال: سنّي أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ سنّ أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جيشاً فيهم أبو بكر وعمر.

فقال: تقدم، بارك الله فيك.

وكانت سنه سبع عشرة سنة.

القصة جميلة، ولكن بها آفة، قد لا يدركها إلا الفطين المثقف، وقد لَحظ صاحب كتاب «تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون»، خليل بن أيبك الصفدي، هذه الآفة، وبين مدخلها، وصحح مسار القصة، فقال: «هذا غير صحيح؛ لأن إياساً توفي في دولة بني أمية، سنة إحدى وعشرين ومئة، والمهدي تولى الخلافة سنة ثمان وخمسين ومئة؛ والذي يصح في مثل هذا: أن يحيى بن أكثم ولي القضاء في زمن المأمون ببغداد، وله عشرون سنة، ولما ولي قضاء البصرة استصغروه، فقال أحدهم: كم سنّ القاضي؟

فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد، الذي ولاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاضياً على أهل اليمن، وأكبر من سوّار بن كعب، الذي وجّه به عمر قاضياً على اليمن».

[تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون] صفحة (١٧٧).

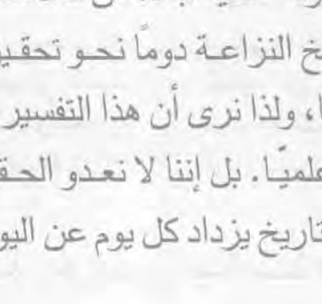
في كتابي «في طرق البحث»، تجربة مع طلاب السنة الرابعة، قسم التاريخ، في جامعة الملك سعود، كلية الآداب، عام ١٣٨٧هـ، تبين ما دخل على النص المُعطى من خلل، (ص٤٤)، الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

توينبي والتفسير الحضاري للتاريخ

مصطفى محمد طه

يُعد التفسير الحضاري للتاريخ محاولة علمية جادة من فلاسفة التاريخ، وذلك من أجل فهم الأبعاد الناشطة (الديناميكية) لحركة التاريخ النزاعة دوماً نحو تحقيق طابع من التكاملية للواقع الحياتي للإنسان صانع هذه الحركة ومفجرها، ولذا نرى أن هذا التفسير يحتل الآن وضعية لا بأس بها على بساط البحث التاريخي منهجيًا وعلميًا. بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الاهتمام بالتفسير الحضاري للتاريخ يزداد كل يوم عن اليوم الذي قبله.

وفي هذا السياق يُعد أرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥م) من أبرز مفسري التاريخ تفسيراً حضارياً - حيث كان يعدّ نفسه مؤرخاً سعيد الحظ؛ لأنه قد أتيحت له الحياة في فترة اضطرابات سياسية وحربين عالميتين، وفرت له مادة خصبة.



أرنولد توينبي

ولقد تعمق توينبي في دراسة اليونانية واللاتينية، ومعرفة الحضارة الهيلينية التي يعدّها ضرورية لفهم الحضارة الغربية. كما أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)، فضلاً عن كتاب شبنجلر «تدهور الغرب» قد أثارا قلقه على مصير الحضارة الغربية، فانكبّ على دراسة الحضارات السابقة لتعرف أسباب تدهورها وفناء بعضها. وكانت ثمرة هذه الدراسة موسوعته الضخمة في التاريخ، وهي كتابه «دراسة التاريخ» الذي استغرق بين التفكير في جمع مادته إلى تأليفه ثم الرد على منتقديه أربعين عامًا (١٩٢١ - ١٩٦١م) . ويقع في عشرة مجلدات ملحق بها مجلدان للرد على الانتقادات ومصير الحضارة الغربية. وقد اختصره سومرفيل في أربعة مجلدات، وترجمه الأستاذ فؤاد محمد شبل إلى اللغة العربية. ومن كتبه الأخرى: «تاريخ الحضارة الهيلينية، ومعالجة مؤرخ للدين، ومحاكمة الحضارة، والحرب والحضارة، وأمريكا والثورة العالمية، والثورة الصناعية، والتجربة الحاضرة في الحضارة الغربية، والعالم والغرب»(١).

موضوعية المعطيات المنهجية

وتتبلور معالم التفسير الحضاري للتاريخ لدى توينبي في دراسته المسحية الدقيقة للهيكل العام (البانورامي) لتاريخ البشرية على ظهر هذا الكوكب الأرضي، بدءاً من اللحظات الأولى لتشكيل القسمات البارزة لهذا التاريخ، في ضوء المنجزات الحضارية للإنسان الأول، وانتهاءً بالحضارات المعاصرة، سواء أكانت تلك التي تعيش في مرحلة النماء الحضاري - حضارة الشعوب الصفراء - أم تلك التي تمتلك إمكانات الانبعاث الحضاري - الحضارة الإسلامية - وأخيراً تلك الحضارات المتحجرة - الحضارة اليهودية المزعومة -، وفي هذا دلالة أكيدة على مدى موضوعية المعطيات المنهجية، التي تكوّن آفاق التفسير الحضاري للتاريخ وملامحها لدى توينبي الذي أنكر بشدة أن يكون الغرب هو حجر الزاوية ومركز الدائرة الإنسانية حضارياً.

ومن هنا جاء تفرد نظرية التحدي والاستجابة التي بزت غيرها من النظريات لمن سواه من المؤرخين في مضمار تفسير التاريخ. يضاف إلى ذلك أنه قد تميز أيضًا بدراساته التاريخية والحضارية التي خالف بها نهج المؤرخين الذين يرون الأمم المستقلة أو الدول القومية مجالاً للدراسة التاريخية. وفي هذا المجال يقول: «إن المجتمعات الأعظم اتساعًا في الزمان والمكان من الدول القومية، أو دول المدن المستقلة، أو أية جماعات سياسية أخرى، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية. إذ المجتمعات لا الدول هي (الوحدات الاجتماعية)، التي يجب أن يُعنى بها دارسو التاريخ»(٢).

وبناء على هذا لم يعتمد توينبي تقسيم التجارب الحضارية للبشرية إلى دول أو أمم كما فعل من سبقوه من المؤرخين، بل

إنه قد أخذها مجموعات COMMUNITIES- SOCIETIES، وفي كل جماعة تدخل مجموعة من الأمم تشترك في تجربة حضارية واحدة. وقد اختار توينبي من هذه التجارب إحدى وعشرين تجربة عكف على دراستها في تعمق واستيعاب موضوعي، متبعًا في ذلك منهج شبنجلر في تحليل التاريخ أو فولوجيته - أي فقه التاريخ - ولكنه حرص على ألا يفقد نفسه في عناء تتبع الحوادث وتفاصيلها، بل إنه مضى يبحث عن أسباب قيام الجماعة التي يدرسها ويستقصي عوامل نجاحها أو فشلها»(٣).

وهكذا نرى أن توينبي قد حاول بهذا الذهن الاستيعابي، أن يوجد شعوراً شاملاً في قصة نشوء الحضارة مستعيناً في ذلك بما توافر لديه من دراسات إنسانية (أنثروبولوجية) وأسطورية (ميثولوجية) ودراسات مقارنة للمجتمعات البدائية. إضافة إلى كل ما توصل إليه علماء التاريخ والجغرافيا(٤).

أنكر توينبي بشدة أن يكون الغرب هو حجر الزاوية ومركز الدائرة الإنسانية حضاريًا

وبذلك يكون توينبي قد أكد أن نشوء الحضارات، إذا لم يكن ناتجًا من تأثير العوامل (البيولوجية) وحدها أو تأثير العوامل الجغرافية وحدها، فهو ناتج في استقرائه من تأثير نوع من التفاعل الحيوي بين هذه العوامل المختلفة «ليس السبب في نشوء الحضارات بسيطًا ولكنه متعدد، ومن ثم فهو ليس وحدة مستقلة، ولكنه علاقة مشتركة»(٥).

ولقد قام توينبي، بعد ذلك، بدراسة ما انطوى عليه التاريخ الحضاري من المجتمعات دراسة مقارنة، ومن ثم قرر وجود عدد محدد من الوحدات الاجتماعية التي تميزها خصائص معينة وتجمعها أطوار حضارية متشابهة، وتصلح وحدها للدراسة التاريخية(٦).

كيانات باقية

إن غالبية هذه الكيانات الحضارية التي سادت ذات يوم كما هو معروف تاريخيًا، قد بادت ولم يبق منها إلا خمسة كيانات، لاتزال باقية حتى يوم الناس هذا، فضلاً عن أنها لا تزال أيضًا ترفد المد الحضاري الإنساني الصاعد بكل القيم الحضارية. وهذه الكيانات هي على النحو التالي:

- **الكيان الحضاري الأول:** الحضارة الغربية الأوروبية المسيحية بفرعيها.

- **الكيان الحضاري الثاني:** الحضارة الأوروبية المسيحية الأرثوذكسية (روسيا وجنوب شرق أوروبا).

- **الكيان الحضاري الثالث:** الحضارة الإسلامية وموطنها الشريط الصحراوي والمداري الذي يبدأ عند المحيط الأطلسي ويستمر إلى سور الصين ويشمل مناطق استوائية واسعة.

- **الكيان الحضاري الرابع:** الحضارة الهندية في شبه القارة الهندية ومعظمها استوائي.

- **الكيان الحضاري الخامس:** الحضارة الشرقية القصوى، التي تقوم في وسط الشرق الأسيوي المعتدل وجنوب شرق آسيا الاستوائي(٧).

وقد لاحظ توينبي من خلال النظر في المجتمعات الحضارية التي نشأت، أن هناك بعض المجتمعات لم تستطع الصمود أمام التحديات الطبيعية والبشرية، وذلك لشدة هذه التحديات. ويسمي توينبي هذه الحضارات باسم (الحضارات المتعطلة) أي التي أخفقت في استمرارها. ويؤدي وجود مثل هذه الحضارات إلى دراسة مشكلة نمو الحضارات. ومن هذه الحضارات التي أخفقت في الاستمرار، وكانت نشأتها نتيجةً واستجابة لتحدٍ ماديٍّ هي: حضارة (البولينزيين والأسكيمو والبدو). فالبولينزيون على سبيل المثال: يلاحظ فيهم استجابتهم الرائعة المتمثلة في إنجازهم لرحلاتهم عبر المحيط عن طريق الزوارق فقط، حيث عبروا مسافات شاسعة، من دون أدنى قدر من الأمان، وظل الحال هكذا إلى أن ضعفت حدة التوتر وانهار هؤلاء الذين كانوا في الماضي أسيادًا، فلم تعد لديهم القدرة على السيطرة على المحيط، وإذا ما انتقلنا إلى استجابة بعض هذه المجتمعات للتحديات البشرية فيمكننا أن نأخذ مثالاً على ذلك «الإسبرطيين»، إذ واجه الإسبرطيون التحدي الطبيعي والبشري(٨).

وفي هذا السياق يؤكد توينبي أن لهذه التحديات الطبيعية والبشرية بعد ذلك مدى معينًا ينبغي ألا تتعداه، وذلك حتى تكون الاستجابة الخلاقة ممكنة، فهي ليست مما يُعجز الجهد البشري بصعوبته كل الإعجاز، ولا مما ينقاد له بسهولته كل الانقياد، ولكنها مما يثير أقصى طاقته على الكفاح، ويمكنه من حقه بالظفر المكتسب. فالرخاء المفرط في البيئة عدو الحضارات اللدود، ولذلك ظلت الشراذم البشرية في (نيازالاند) وغيرها من المناطق الاستوائية الدافقة بالخيرات الطبيعية، بدائية في حياتها، ولهذا فإن الدافع الحيوي إذن في عمليات النشوء الحضاري هو الاستجابة لتحدي البيئة المناسبة. ولكن توينبي يرى بعد استعراض مفصل للمنبهات التي واكبت قيام الحضارات المختلفة ودفعتها في مراقي التكامل، أن ثمة خمسة دوافع تتصل بطبيعة البيئة المناسبة وتستثير تفاعلها الخلاق وهي: دافع الأراضي الصعبة، ودافع الأرض البكر، ودافع النكبات، ودافع الضغط، ودافع العقوبات(٩).

خلط بين الأعراض والجواهر

وفي هذا الإطار التفسيري تناول توينبي النظريات الشائعة التي فسرت النمو الحضاري الذي يقيسه بمقياس ما تحققه الأمة المتحضرة من انتصارات على البيئة الخارجية.. انتصارات في ميادين الفتوحات الجغرافية، وانتصارات في ميادين الصناعات والعلوم والتقنية، ولذا يرى أن هذه النظريات تخلط بين الأعراض والجواهر، وتعدّ التقدم (الكمي) سبباً للازدهار، على الرغم من أنه في أكثر الأحيان يكون ظاهرةَ سقوطٍ وانحلال، فالتوسع الجغرافي يحدث عادة زمان النهضات العسكرية في تاريخ الحضارات، وهو زمان (الدول الجامعة) التي تؤسسها الأقليات المسيطرة للتعويض عن إخفاقها في قيادة المجتمع قيادة واعية ترتقي به من انتصار إيجابي إلى آخر في سلسلة لا تنتهي من الانتصارات البناءة. وأما تطور الصناعات والعلوم التقنية فإنما يتم في استقراء توينبي لطائفة كبيرة من الأمثلة المختلفة، بمعزل عن سير الحضارات في مجال التقدم أو التأخر(١٠).

ومما هو جدير بالذكر أن توينبي يرد نشوء الحضارات إلى الأديان، وذلك لأن الإمبراطوريات ليست هي مقياس الحضارة، بل هي على العكس، تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة، إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع، وهي لا تحمل إلا سلاماً مؤقتاً ولا تقدم حلولاً جذرية لمشكلات مجتمعاتها، على عكس ذلك الأديان، إذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ. وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما من الحضارات الخمس السالفة الذكر، فإن ذلك سيكون في حدود هذه الأديان وبسبب منها. والحضارات الدينية تنتسب بالبنوة إلى حضارات سابقة عليها، فالحضارة الغربية الحديثة وليدة الحضارة الهيلينية (اليونانية والرومانية) والعقيدة العبرانية التي تعد المسيحية امتداداً لها هي وليدة المجتمع السورياني. أما الحضارة الإسلامية فهي حصيلة اندماج المجتمعين العربي والإيراني - وخصوصاً في بداية نشوئها - وهما بدورهما وليدا المجتمع السورياني(١١).

تصور قاصر

ولعله من الضرورة بمكان أن نشير هنا، إلى أن الرؤية الإسلامية المترعة بالأصالة القرآنية، للإبداع الحضاري، تخالف - ولا ريب - هذا المنظور التوينبي من حيث المحتوى والتوجه، ولا سيما في جعله كل الأديان، وبلا استثناء، في مستوى واحد، من حيث قدرتها وفعاليتها في إحداث التغيير الحضاري الشامل، فضلاً عن كونها، هي السبب المباشر في تفجير الإبداع الحضاري من أساسه. ولذا يُعد هذا التصور التوينبي قاصراً، حيث إنه صادر عن عقل غربي على الرغم من أصالته في التنظير التاريخي، لأن قدرة الدين على التغيير الحضاري لا تشمل كل الأديان السماوية، ولا سيما التي حرفت منها عن مواضعها - كاليهودية والمسيحية - وكذلك الأديان الوضعية. وبذلك تكون القدرة الحيوية للدين في هذا المضمار، هي من نصيب الإسلام وحده بلا منازع، فالإسلام هو دين الله الحق الذي ارتضاه لعباده حتى تنصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة. ألم يقل الحق سبحانه وتعالى: *صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون*. **البقرة:١٣٨**.

وإذا كان تاريخ البشرية سلسلة من الين واليابخ أو (التحدي والاستجابة) فما الذي يفسر انهيار الحضارات؟ ولماذا عجزت مجتمعات عن الاستجابة الناجحة لما واجهها من تحدٍّ؟ لقد اهتم بالإجابة عن هذا التساؤل عدة فلاسفة ومؤرخين، فربط بعضهم بين مصير البشر ومصير الكون، فجعل الإنسان كوناً أصغر، فكما يتعاقب الليل والنهار أو الفصول الأربعة تتعاقب الحضارات، وكما يتمثل في الوجود صراع الأضداد كذلك الأمر في المجتمعات، وكما تستهلك الطاقة الكونية تُستهلك طاقة الحضارات، وكما تقتضي الدورة الكبرى في الكون أن يشيخ العالم وأن تنتهي كذلك الحضارات، وقد فسر شبنجلر ذلك تفسيراً بيولوجياً (حيوياً) فشبه المجتمعات بالكائنات الحية التي تمر بأدوار الطفولة والفتوة والشيخوخة والفناء، ولكن قوانين علم الأحياء، وإن خضع لها الأفراد، لا شأن لها بالحضارات، وهنالك من فسر التدهور بأنه تلف يصيب الحضارة نتيجة توارث التحضر، وأنه لابد من دم هجين لتجديد الحضارة يتمثل في غزو بدو أو برابرة حتى يبعث مجتمع جديد وليد تشكل نتيجة التجديد بدم جديد، كما سكب الغزاة من القوط واللومبارديين في عروق الإيطاليين فقامت النهضة الأوروبية في إيطاليا بعد أن كانت قد انهارت الدولة الرومانية فيها(١٢).



ابن خلدون

نقد نظرية توينبي

وعلى الرغم من تفرد نظرية توينبي، التي جعل منها محور ارتكاز معطياته في مضمار التفسير الحضاري للتاريخ، فإنها لم تسلم من نقد كثير من الباحثين. ومن أشهرهم بترم سوروكن وبيتر جيل حيث يرى سوروكن أن النظرية متهافتة في مبدأين أساسيين، أولهما: عدّ توينبي الحضارة وحدة معقولة للدراسة التاريخية. وثانيهما: جعل الأدوار الحضارية من النشوء إلى النمو ثم الانحلال وأخيراً السقوط أساساً لفلسفته التاريخية. ومن هنا

تجدر الإشارة إلى أن أرنولد توينبي على الرغم من كل هذا، قد اقترب بنا خطوات واسعة صوب الرؤية الصحيحة والنظرة الأكثر انفتاحاً، عندما وضع على ساحة الصراع والحركة طرفي المسألة وهما: البيئة والإنسان والجماعة، وأعطى للجانب الآخر اختياره وحريته في تقرير المصير(١٣).

أما بيتر جيل فقد أخذ - ومعه عدد من النقاد - على توينبي سوء تطبيقه للمنهج العلمي، على الرغم من أنه أعلن في عدة مواضع من دراسته أنه يتبع المنهج التجريبي في أبحاثه التاريخية. فقد انتخب من مجموع الظاهرات ما يناسب فرضه، وعرض شواهده المختارة بالطريقة التي تلائمه، وفسرّها تفسيراً مؤاتياً للفكرة العامة الجاهزة التي بدأ منها. فأدلته مثلاً على صحة نظرية التحدي والاستجابة أو نظرية الاعتكاف والعودة، منتزعة انتزاعاً من إطارها الكلي وظروفها الشاملة في حياة هذه أو تلك من الحضارات التي وقع عليها اختياره. ولما

يرى توينبي أن المجتمعات لا الدول هي (الوحدات الاجتماعية) التي يجب أن يُعنى بها دارسو التاريخ

كانت حياة الحضارات كلاً متحركاً متغيراً (ديناميّاً) كما يقرر هو نفسه، أي إنها عملية وليست شيئاً ثابتاً جامداً، فقد كان ينبغي أن ينظر في أعضاء ذلك الكل على أنها أحداث داخل تلك العملية الكلية، أحداث متجهة باتجاهها ومكيّفة وفقاً لظروفها، وليس لها كيان مستقل بذاتها. وهكذا فإن إخفاق توينبي في تحقيق الغرض بالتجربة الحاسمة، وعزله الأجزاء بحيث لم تعد ذات دلالة معينة في بناء الكل، يقوضان دعائم المنهج التجريبي الذي حاول أن يعتمده في تفسيره(١٤).

وأخيراً وليس آخراً ، فقد قيل الكثير بشأن التفسير الحضاري للتاريخ لدى توينبي. ومع ذلك فإن نظرية التحدي والاستجابة، التي هي لحمة هذا التفسير وسداه عنده، ما هي إلا نظرية جادت بها قريحة مؤرخ غربي. وقد أكد ذلك الطابع العام لها، حيث إننا نرى شيوع ظاهرة الفصام النكد فيما بين الثنائيات التي جاءت بادية عبر سياقها ومحتواها، الذي يكوّن البنية الأساسية لنسيجها العضوي. ولا غرابة في أن يكون ذلك شأن فكر توينبي، فهو بمنزلة إفراز طبيعي لهذا الفكر الوضعي، الذي يتسم بهذه السمة. فضلاً عن أنه يؤمن بالتوحيد الخالص لله عز وجل، وتلك السمة تعد الملمح البارز لفكرنا الإسلامي الذي يتسم أيضاً بسمة الوحدة والتنوع؛ ولذا رأينا الفكر الغربي الوضعي يقوم في لحمته وسداه - بعكس الفكر الإسلامي - على مبدأ الانشطار بين الروح والمادة، والدنيا والآخرة، والطبيعة وما وراء الطبيعة على سبيل المثال لا الحصر. والقائمة طويلة بتلك الثنائيات المنشطرة، التي يعج بها قاموس الفكر الغربي (الوضعي). ومن منطلق أن توينبي ينتمي إلى هذا الفكر عقدياً وأيديولوجياً (فكريّاً). لذا جاءت بصمات هذا الفكر واضحة عبر نتاجه الفكري في هذا السياق.

وقد أكد مدى موضوعية هذه الرؤية الإيمانية الدكتور عماد الدين خليل، وذلك من خلال ملاحظته الدقيقة، التي جاءت ضمن محتوى قراءته الواعية لمفردات الفكر الغربي الوضعي المعاصر. وكما يؤكد المنظور النسقي، فإن هذه الرؤية إسلامية، لأنها واعدة بقدر ما هي واعية، نظراً لأنها جاءت مترعة بإشعاعات الإيمان الجازم، فضلاً عن الأصالة القرآنية عندما يتغلغل في سويداء القلوب، فيلامس شغافها ملتحماً بها التحاماً عضوياً عبر آصرة ودية تربو على آصرة الدم واللحم.

وعلى الرغم من ذلك فإن نظرية التحدي والاستجابة قد اتسمت بالأصالة الفكرية والمنهجية، وإن كان قد وجه إليها الكثير من الانتقادات، إلا أنها لا تقلل بأي حال من الأحوال من الحركية (الدينامية) المتفجرة لمعطياتها، ولعل في هذا ما يضفي عليها طابعاً من الحيوية التاريخية، التي جعلت منها فعلاً نظرية متألقة في التفسير الحضاري للتاريخ، وربما كان هذا راجعاً إلى اللمسات الفكرية الحية لنظرية ابن خلدون - فيلسوف الحضارة الإسلامية الأول - عليها، كما أكد ذلك أكثر من باحث منصف. وبذلك يكون توينبي قد أعاد للأذهان صدى عبقرية ابن خلدون الإبداعية في إطار التفسير الحضاري للتاريخ. وفي هذا رد مفحم على هؤلاء الذين يريدون هدم رمز من رموز فلسفة التاريخ على المستوى الكوني.

المراجع

١. د. أحمد محمود صبحي - في فلسفة التاريخ - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م - ص٣٦٠.
٢. د. عماد الدين خليل - التفسير الإسلامي للتاريخ - دار العلم للملايين - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - ص٧٠.
٣. د. حسين مؤنس - أرنولد توينبي ونظرية التحدي والاستجابة - مجلة العربي - العدد رقم (١٨٢) - وزارة الإعلام - الكويت - ذو الحجة ١٣٩٣هـ - يناير/كانون الثاني ١٩٧٤م - ص ١٠٢ - ١٠٣.
٤. نيفين جمعة علم الدين - فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٤١١هـ/١٩٩١م - ص١٦.
٥. د. عماد الدين خليل - المرجع السابق - ص٧٤.
٦. د. محمد بيومي مهران - التاريخ والتأريخ، دراسة في ماهية التاريخ وكتابته وتفسيره ومناهج البحث فيه - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م - ص٥٦ - ٥٧.
٧. د. حسين مؤنس - الحضارة - سلسلة عالم المعرفة - رقم(١) - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت المحرم/صفر ١٣٩٨- يناير/ كانون الثاني ١٩٧٨م - ص٢١٥ - ٢١٦.
٨. نيفين جمعة علم الدين - المرجع السابق - ص١٢٢.
٩. د. عماد الدين خليل - المرجع السابق - ص٧٦ - ٧٧.
١٠. د. منح خوري - التاريخ الحضاري عند توينبي - دار العلم للملايين - بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م - ص٣٤.
١١. د. أحمد محمود صبحي - المرجع السابق - ص٢٦٧ - ٢٦٨.
١٢. د. أحمد محمود صبحي - المرجع السابق - ص٢٧١ - ٢٧٢.
١٣. د. محمد بيومي مهران - المرجع السابق - ص ٦١ - ٦٤.
١٤. د. عماد الدين خليل - المرجع السابق - ص٩٣ - ٩٤.

مدن عربية

قِنَّسرين المدينة المنسية

علي جمعة الخويلد



مدينة قنسرين، وتبدو في القسم الجنوبي قلعة قنسرين

هيهات مِنْكَ بنو عمْرو ومسكنُهُم
إذا تشتَّيْتَ قنسرينَ أو حَلَبا(١)

بقرب خط الطول ٣٧ْ وخط العرض ٥٩َ ٣٥ْ، وإلى الجنوب الغربي من حلب، وعلى بعد ثلاثين كيلاً، تقع قنسرين. وليس ثمة أثر لمدينة إنما هي أطلال تلك المدينة العظيمة وقد طمرتها الأتربة، بعد أن كانت في يوم من الأيام تضارع أنطاكية عظمة واتساعاً، وبقيت كذلك بعد الفتح الإسلامي لها.

أما اليوم فتقوم على أطلال تلك المدينة، بلدة صغيرة تسمى العيس، ندعو المعنيين بالآثار إلى التنقيب في هذه المنطقة ليكشفوا عن كثير من آثارها الدفينة تحت التراب وينقذوها من العبث الذي يصيب كل ما هو ظاهر وباطن(٢).

التسمية

إذا بحثنا في أصل كلمة قنسرين نجد أنها لفظة سريانية أصلها قنشرين (بالشين المعجمة) ومعناها قن النسور، لأن الياء والنون في أواخر الكلمات السريانية علامة على الجمع. وقد جرت عادة العرب في الكلمات السريانية أن تقلب الشين سيناً فصارت باستعمالهم قنسرين(٣).

وقال آخرون: سبب التسمية أن أبا عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه -

دعا ميسرة بن مسروق القيسي فوجهه في ألف فارس في أثر العدو فمر على قنسرين فجعل ينظر إليها فقال: ما هذه؟ فسميت له بالرومية، فقال: والله لكأنها قِنُّ نَسر، فسميت قنسرين بذلك(٤).

أما الإغريق فقد كانوا يسمون قنسرين بـ (خالكيس) ويسميها الروم: خالسيس دي بيلوم، تمييزاً لها من خالسيس لبنان «غجر شرقي البقاع»(٥).

محطات في تاريخ قنسرين

قبل الفتح الإسلامي

بعد وفاة الإسكندر سنة (٣٢٣ ق.م) اقتسم قواده البلاد التي فتحها، وقد آلت سورية إلى قائده سلوقس الذي ينتسب إليه السلوقيون(٦) ، وكان سلوقس أقدر قادة الإسكندر، وقد اتبع سياسة نشر الهيلينية التي وضعها الإسكندر فشيد ما لا يقل عن ستٍّ عشْرَةَ مدينة تحمل اسم والده أنطياخوس، وتسع مدن تحمل اسمه، وخمس مدن تحمل اسم أمه لاوديسا، وإحداها اللاذقية، وثلاث مدن باسم زوجته آباما، إحداها مدينة أفاميا(٧).

ومن المدن التي بناها سلوقس قنسرين(٨).

وعندما أراد الملوك السلوقيون الذين أتوا بعد سلوقس أن يزيدوا على بناء حلب ويوسعوها لم يمكنهم ذلك؛ لأن القوافل التي تأتي من البحر إلى الفرات ومن الفرات إلى البحر كان طريقها إلى مدينة قنسرين، ولم تكن حلب حينئذ ممراً لها لأنها كانت مدينة صغيرة، ولم يكن يوجد بها ما كان يوجد في قنسرين من صناعات وغيرها. ومن أجل هذا تركوا توسيع حلب، إذ إن قنسرين كانت محطاً لرحال التجار وتقصدها القوافل التجارية من شتى أنحاء أوربا، حتى إن تجار أوربا كانوا يأتون إليها من السويدية في طريق أنطاكية، ويأتي إليها تجار العجم من الفرات بطريق بالس يجتمعون فيها كل سنة مرتين يبيعون فيها أموالهم(٩).

وكانت المزارع الواسعة في سهلي قنسرين وحلب تزود أنطاكية بمواد متنوعة من إنتاجها الوفير(١٠).

وفي عهد أنطياخوس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧ ق.م) نسمع أول مرة عن دار الكتب العامة في أنطاكية، بيد أن مثل هذه المكتبة لابد أن تكون قد أنشئت في وقت مبكر جداً، وقد أسند أنطياخوس الثالث منصب أمين دار الكتب إلى يوفوريون من خالكيس (قنسرين) وكان شاعراً واسع العلم عظيم الأثر في عالم الفكر في ذلك العصر(١١).

وفي سنة ٣٧٥م قرر القديس جيروم الاعتزال في صحراء خالكيس (قنسرين)، غير أنه عاد إلى أنطاكية في سنة ٣٧٩م وتمت رسامته قسيساً على يد بولينوس الأسقف اليوستاني(١٢).

أما في سنة ٥٤٠م وفي عهد كسرى الأول أنو شروان، فقد زحف هذا الملك النشيط على رأس ثلاثين ألف رجل على سورية بطريق هيرابلس (منبج) وأشعل النار في مدينة حلب التي لم تستطع جمع الجزية الثقيلة التي فرضت عليها وهي ضعف المقدار الذي اشترت به هيرابلس سلامتها. ثم تابع كسرى سيره من حلب إلى أنطاكية، فنهبت المدينة، وهدمت بكاملها، وأخذ سكانها أسرى، وكانت خالكيس (قنسرين) الضحية الثانية، وقد اشترت سلامتها بكمية من الذهب(١٣).

فتح قنسرين

بعد أن تم فتح دمشق في أيام الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وأصحابهما (رضي الله عنهم) وذلك سنة ١٧هـ/٦٣٣م في أيام



بقايا برج متهدم قرب نهر قويق في الجهة الجنوبية من المدينة



قوس منحوت في الصخر من سلسلة أقواس هندسية



قبة غير معروف تاريخ بنائها تحتها ضريح

الخريف، ونزعوها من أيدي الروم، وبعد أن رتبوا أمرها رحلوا عنها، وساروا إلى حمص وحماة، وبعد حصارهما مدة قليلة، تم فتح هاتين المدينتين. أما قنسرين فقد بعث أبو عبيدة بن الجراح خالد بن الوليد إليها فنزل بالحاضر (حاضر قنسرين)، حيث التقى بجيش الروم الذي قُتل قائده ميناس، فأرسل أهل الحاضر إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا، ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم ودعاهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم، وأقام بعضهم على النصرانية، فصالحهم على الجزية(١٤)، ثم إن خالداً نزل على قنسرين فقاتله أهلها، ثم لجؤوا إلى حصنهم فتحصنوا فيه، وبعد أن عاينوا إصرار خالد على فتح بلدهم، نظروا في أمرهم، وذكروا ما لقي أهل حمص فطلبوا منه الصلح فصالحهم على صلح حمص،، وبعد ذلك غلب المسلمون على جميع أرضها وقراها وذلك سنة ١٦هـ(١٥). ولما توجه أبو عبيدة إلى حلب بلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا عهدهم فبعث إليهم السمط بن الأسود الكندي، فحاصرهم، ثم فتحها، وقسم ما غنم فيمن حضر، وجعل الباقي في المغنم.

قنسرين بعد الفتح الإسلامي

لم يجمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام لعامل واحد بعد وفاة أبي عبيدة سنة ١٨هـ، إذ عين عياش ابن غنم على قنسرين وحمص والجزيرة، ولم تكن الجزيرة قد فتحت بعد، وكان ولاة الشام بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على دمشق والأردن والسواحل وأنطاكية، وعلقمة بن مُجزِّز على فلسطين، وعُمير بن سعد على حمص وقنسرين والجزيرة(١٦) فمرض عمير في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه مرضاً طال به فاستعفى عثمان واستأذنه في الرجوع إلى أهله، فأذن له وضم قنسرين وحمص إلى معاوية سنة ٢٦هـ، فاجتمعت ولاية الشام إلى معاوية الذي تمتع في خلافة عثمان بصلاحيات واسعة استطاع أن يستغلها في جعل ولاية الشام وحدة منسجمة(١٧).

وبعد انتقال الخلافة إلى بني أمية، كان من نتائج اهتمامهم بمحاربة الدولة البيزنطية براً وبحراً أن اتجهوا إلى جعل قنسرين جنداً مستقلاً منفصلاً عن جند حمص، وكانت قنسرين وحلب مضافتين إلى حمص، فأصبحت حلب مضافة إلى قنسرين حتى نهاية الدولة الأموية. واختلف المؤرخون فيما إذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم ابنه يزيد، فيذكر البلاذُري أن قنسرين وكُورَها(١٨) كانت مضمومة إلى حمص، حتى كانت خلافة يزيد بعد معاوية فجعل قنسرين ومنبج ودلوك ورعبان وأنطاكية وسماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها. بينما يذكر ابن الأثير أن معاوية هو الذي جند قنسرين ممن أتاه من أهل العراقين أيام علي كرم الله وجهه، وإنما كانت قنسرين رستاقاً من رساتِيق حمص(١٩) حتى مصَّرها معاوية وجنَّدها بمن ترك



كسور الأعمدة الضخمة الموجودة في قنسرين

الكوفة والبصرة وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق(٢٠).

ولما استخلف هارون الرشيد «أيام الدولة العباسية» أفرد قنسرين بكُوَرها فصير لها جنداً واحداً، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وأنطاكية وسماها أيضاً العواصم(٢١) وجمع الثغور إلى الشام، وبعض هذه الثغور كانت تعرف بثغور الشام، وبعضها كانت تعرف بثغور الجزيرة، وكلها من الشام.

وكُور الشام هي جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم والثغور. أما قنسرين فقصبتها حلب، ومن مدنها أنطاكية وبالس والسويدية ومنبج والتينات ومرعش وإسكندرونة وشيزر ومعرة النعمان ووادي بطنان(٢٢).

وبقيت قنسرين آهلة بالسكان حتى كانت سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م عندما هاجمت الروم مدينة حلب وارتكبوا فيها مجازر فظيعة، فخاف أهل قنسرين، وتفرقوا في البلاد، فبعضهم عبر الفرات وبعضهم الآخر نقله سيف الدولة الحمداني إلى حلب، وقال بعض المؤرخين: إن خراب قنسرين كان في سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م قبل موت سيف الدولة بأشهر حيث عجز عن لقاء ملك الروم نقفور الذي أمال عنه، وجاء إلى قنسرين، وخربها، وأحرق مساجدها.

ثم عمرت مرة أخرى وعاد سكانها إليها واستمرت إلى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م(٢٣) فغزاها الروم، وخربوها ورحلوا عنها فجاء إليها بنو البصيص التنوخيون، من أمراء جبل لبنان وعمروها، ثم خربها الروم عند قصدهم حلب سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م ثم عمرها سليمان بن قتلمش السلجوقي(٢٤) وتحصن بها سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٧م ثم خربها تاج الدولة تتش السلجوقي بعد أن قتل سليمان بن قتلمش.

وفي شوال سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م نقل نور الدين زنكي أعمدة سورها إلى جامع حلب وبناه بها، وأخذ الناس حجارتها لعمائرهم.

وقد زار قنسرين الرحالة ابن جبير الأندلسي في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م فقال:

«وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان، لكنها خربت وعادت كأنها لم تكن بالأمس، فلم يبق إلا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة، لكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم، مد البصر عرضاً وطولاً، وتشبهها من بلاد الأندلس جيان، لذلك نذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان(٢٥).

ولمحمد بن علي العشايري المتوفى سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م كتاب سماه «تاج النسرين في تاريخ قنسرين» لم يعثر عليه(٢٦).

ولم تزل قنسرين خراباً إلى أن عمرت فوق آثارها الطامسة قرية عندما أسست إدارة المزارع السلطانية المعروفة في يومنا هذا باسم «أملاك الدولة» في أواخر عهد السلطان عبدالمجيد العثماني(٢٧)، وسميت بالعيس (العيص) باسم النبي الذي يزعم السكان أن له



مغاور أو مدافن لها واجهة عريضة ذات أقواس هندسية



النسر يظهر نحته في أماكن كثيرة في قنسرين واتخذ شعاراً في العهد السلوقي



جزء من سور قلعة قنسرين

مقامًا في ذروة الجبل لمجاور لها.

وتنوسي اسم قنسرين إلا من أحد أبواب حلب، وهو باب قنسرين(٢٨)، وبيوت قنسرين (العيس) اليوم مختلطة بعضها من الطين، وبعضها الآخر من الإسمنت، ولكن الإسمنت بدأ يغلب عليها بعد التوسع، وبعد تأمين معظم الخدمات التي يحتاج إليها السكان.

من آثار قنسرين الدارسة

إن آثار قنسرين الدارسة تمتد على مسافة بعيدة في سفح جبلها من جنوبه وشرقه إلي نهر قويق. وتدل أساسات الجدران والأسوار العريضة وكسور الأعمدة الضخمة الباقية على أنها كانت مدينة عظيمة ذات بنيان وازدهار في فترة ما من التاريخ.

في جنوب هذه المدينة تقع قلعة قنسرين التي تعلو نحو ثلاثين مترًا وهي تشرف في جنوبها على سهول المطخ أو مطخ قنسرين(٢٩)، وفي غربها على قرى تلك المنطقة، أما شرقها فإننا نلمح بلدة الحاضر (حاضر قنسرين).

وسطح قلعة قنسرين مستوٍ متسع يتجاوز عدة هكتارات، كان يحيط به سور عريض ويظهر منه أساسات جدرانه.

وتدل المشاهدة الأولية على أن هذا السور كان محصنًا في زواياه الأربع بالأبراج والقلل المربعة. ويظهر أنه كان داخل السور مساكن وأزقة، أما في الجهة الشرقية فينفصل عن سور القلعة جدار مستقيم ينحدر إلى أسفلها، وهذا الجدار كان يحيط بالمدينة من جهة الجنوب حيث نجد بقايا برج متهدم قرب نهر قويق. وكذلك من الجهة الشمالية للقلعة ينفصل جدار آخر يمتد نحو الشمال حتى يصل إلى سفح جبل قنسرين. ولا يزال بعض أجزاء أساس هذا الجدار ماثلاً للعيان. وكان الجداران المذكوران يؤلفان قسمًا من سور المدينة الذي دثرت بقية أقسامه، وهو من بناء يوستنيانوس أو ترميمه (٥٥٠ - ٥٥٥م)(٣٠).

ونجد في الطرف الغربي من قلعة قنسرين ضريحًا تحت قبة يزعم السكان أنه ضريح الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك(٣١) ولكن يغلب الظن أن هذا الضريح لسليمان بن قتلمش. والضريح غير معروف تاريخ بنائه لعدم وجود أية إشارة تدل على ذلك، ندخل إليه من باب صغير يقودنا إلى القسم الأول الذي سقفه غمس نصف أسطواني، والقسم الثاني غرفة مربعة تعلوها قبة صماء تقوم على عنق دائري ذي إطار عريض تستند إليه القبة، ويستند العنق إلى أربعة عقود دائرية الشكل. أما الضريح نفسه فهو مهمل تعرض للتخريب والنهب عدة مرات. ونصعد إلى السطح بواسطة تسع درجات ضيقة.

أما إذا تجولنا في سفح جبل قنسرين فنجد مقالع كبيرة حفرها القدماء حيث استخدموا حجارتها للبناء، ونجد أيضا كثيرًا من المدافن والمغاور التي نحتت في الصخور، وأخذت مداخلها أشكالاً مختلفة؛ فبعضها لها واجهة عريضة ذات أقواس هندسية ننتقل منها إلى مدخل المدفن المنحوت في جوف الصخر. وبعض المدافن تزين مداخلها صورة النسر(٣٢) أو صور آدمية منحوتة على واجهة هذه المدافن. وإذا دخلنا أحد هذه المدافن نجده متسعًا قليلاً، ذا شكل مستطيل، على جوانبه تتوزع غرف صغيرة ذات سقف نصف أسطواني منحوتة في جوف الصخر. ونجد في بعض هذه الغرف عددًا من الجرون المستطيلة الصخرية يعتقد أنها مخصصة لوضع توابيت



واجهة عريضة ذات أقواس هندسية تنتقل منها إلى المدخل المنحوت في جوف الصخر

الأموات. وتشبه هذه المدافن إلى حد ما الدياميس(٣٣).

وقبل أن نختم ما بدأناه، نذكر أنه في قرية كفر كرمين إلى الغرب من حلب وعلى بعد ٤٠ كيلاً نصادف جزءاً من الطريق الروماني المرصوف بالحجارة الصخمة، وهو بحالة جيدة وبطول (١٢٠٠ متر) تقريباً، ويعد هذا الجزء من أجمل الطرق الرومانية المحفوظة في العالم، وهذا الطريق كان يصل أنطاكية بقنسرين. ومنها يتجه نحو حلب فالفرات، وذلك لنقل المعدات الحربية من ميناء السويدية إلى الفرات، لمواجهة الفرس الذين كانوا في قتال مستمر مع الرومان.

إن الآثار التي تحدثنا عنها ليست كل آثار قنسرين، فالمدفون تحت التراب أكثر، وخصوصاً قلعتها التي تكتنف في جوفها أسرار العصور التاريخية التي مرت عليها، وهذه الآثار الدفينة تنتظر من المنقبين والمختصين الأثريين كشفها ودراستها، فإلى أن يتم ذلك أهلاً بكم في قنسرين.

المراجع والهوامش

١- حمد الجاسر: شعر الأحوص الأنصاري لتوسم مواقع المواضع المذكورة فيه - مجلة العرب السعودية، العددان (٧ - ٨)، عام ١٩٩٢م - ص٥٣٩.

٢- علي جمعة الخويلد: من تاريخ قنسرين - مجلة التراث العربي السورية - العدد ٥٨، عام ١٩٩٥م - ص١٠١.

٣- خير الدين الأسدي: موسوعة حلب المقارنة - تحقيق محمد كمال، ج٦ - جامعة حلب عام ١٩٨٣م - ص٢٦٤.

٤- ابن العديم: الصاحب كمال الدين بن عمر بن أحمد بن أبي جرادة - بغية الطلب في تاريخ حلب - تحقيق الدكتور سهيل زكار، ج١ - دمشق عام ١٩٨٨م - ص٦٩.

٥ - أحمد وصفي زكريا: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية - المطبعة الحديثة - دمشق ١٩٣٤م - ص١٧٦.

٦- السلوقيون: سلالة أسسها سلوقس الأول (٣١٢ - ٦٤ ق.م) أخذ ملوكها اسم سلوقس أو انطياخوس وعرفوا بملوك سورية، وامتدت مملكتهم إلى آسيا الصغرى وفلسطين وبلاد ما بين النهرين، وقد ساهم السلوقيون في نشر الحضارة الهيلينية في الشرق فأسسوا مدناً كثيرة لهذا الغرض، أصبحت من مراكز التفاعل بين الحضارتين الإغريقية والشرقية.

٧- جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة - ترجمة بإشراف الدكتور إبراهيم نصحي - دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة ١٩٦٧م، ص٤٥.

٨- ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب - تحقيق د. سامي الدهان - نشر المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥١م - ص١٧.

٩- تيودوربيتشوف: تحفة الأبناء في تاريخ حلب الشهباء - ترجمة وتحقيق د. شوقي شعث وفالح بكور - حلب - ص١٠، الدكتور مفيد رائف العابد: سورية في عصر السلوقيين - دار شمأل للطباعة والنشر - دمشق - ١٩٩٣م - ص٢٧٠.

١٠- جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة. ص٣٠، د. مفيد رائف العابد: سورية في عصر السلوقيين ص٢٧٠ - ٢٧١.

١١- جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة - ص٧٧.

١٢- المصدر السابق - ص٢٣٦، أحمد وصفي زكريا: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ص١٧٦.

١٣- د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ترجمة جورج حداد وعبدالمنعم رافق، ج١ - دار الثقافة - بيروت، ١٩٥٨م - ص٤١٤ - ٤١٥.

١٤- أحمد بن زيني وحلان: الفتوحات الإسلامية «بعد مضي الفتوحات النبوية» - ج١ - مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة ١٩٦٨م - ص٤٦.

١٥- ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب - ص٢٩.

١٦- د. نجدة الخماش: الشام في صدر الإسلام «من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية» - دار طلاس، ط١ - دمشق ١٩٨٧م - ص٢٣٢.

١٧- كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب - ج٣ - المطبعة المارونية بحلب - ١٩٢٣م - ص٢١.

١٨- الكورة: كل صقيع من الأرض يشتمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها.

١٩- الرستاق: اسم فارسي يعنون به كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد.

٢٠- د. نجدة الخماش: الأجناد وإدارتها - المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام - عمان ١٩٨٩م - ص ٢٨٥.

٢١- ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - دار الكتاب العربي - دمشق ١٩٨٤م - ص٩.

٢٢- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - طبع مدينة ليدن ١٩٠٦م - ص١٥٤.

٢٣- د. محمد أسعد طلس: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب - مديرية الآثار والمتاحف في سورية - ص٣١.

٢٤- سليمان بن قتلمش: مؤسس دولة السلاجقة الروم في أنطاكية التي حررها من أيدي البيزنطيين سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م مع قلعتها بعد حصار دام مدة شهر تقريباً، وقد ساعدة فتح أنطاكية على التطلع إلى بلاد الشام فأخذ يغير منها على حلب، وقد قتل على يد تاج الدولة تتش السلجوقي في موقع يعرف بعين سليم (وهو على بعد ثلاثة أميال من حلب) وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتقابل فيها جيشان نظاميان سلجوقيان على أرض الشام. والسلاجقة قوم من التركمان الغز ينتمون إلى عدة قبائل أشهرها قبيلة قنق التي منها سلاطين السلاجقة، وموطنهم الأصلي سهوب أوراسيا «تركستان» وكان جدهم الأول تقاق قد أنجب ولداً سماه سلجق، وهو الذي ينتسب إليه السلاجقة.

٢٥- ابن جبير: رحلة ابن جبير - دار صادر، بيروت ١٩٥٩م - ص٢٢٨.

٢٦- علي جمعة الخويلد: من تاريخ قنسرين - مجلة التراث العربي السورية - العدد ٥٨ - ص١٠٦.

٢٧- السلطان عبدالمجيد محمود الثاني: ولد سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م ولي السلطنة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، وتوفي سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦١م، وهو أول سلطان عثماني ساوى بين المسلمين وغيرهم، ومد يده للاقتراض من أوربا، اشترك مندوبوه في مؤتمرات أوربا الدولية ١٢٧٣هـ انظر: أوليات سلاطين تركيا - لمحمد جميل بيهم - صيدا - ١٩٣١م.

٢٨- باب قنسرين: يقع في الجزء الجنوبي من سور حلب، ويقع بين برجين دفاعيين، بني الباب بين قسمين ناتئين من السور، ولا يوجد دليل قاطع على تاريخ إنشاء هذا الباب سوى بعض التواريخ التي تذكر أن سيف الدولة الحمداني قد شيده ثم جدده الملك الناصر يوسف سنة ٦٥٤هـ//١٢٥٧م.

٢٩- مطخ قنسرين: هو بطيحة في جنوب قنسرين، كالمنخفض يقل ارتفاعه عن ٢٥٠ متراً فوق سطح البحر، ونجد في حوض المطخ حيث يضمحل نهر قويق توضعات حديثة نسبياً مؤلفة من مخاريط لحقية واطئة جداً تتلاقى في السهل وهكذا يتشكل قاع هذا الحوض من سلسلة معقدة من توضعات متنوعة المنشأ وكتيمة نوعاً ما.

٣٠- أحمد وصفي زكريا: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية - ص١٧٦.

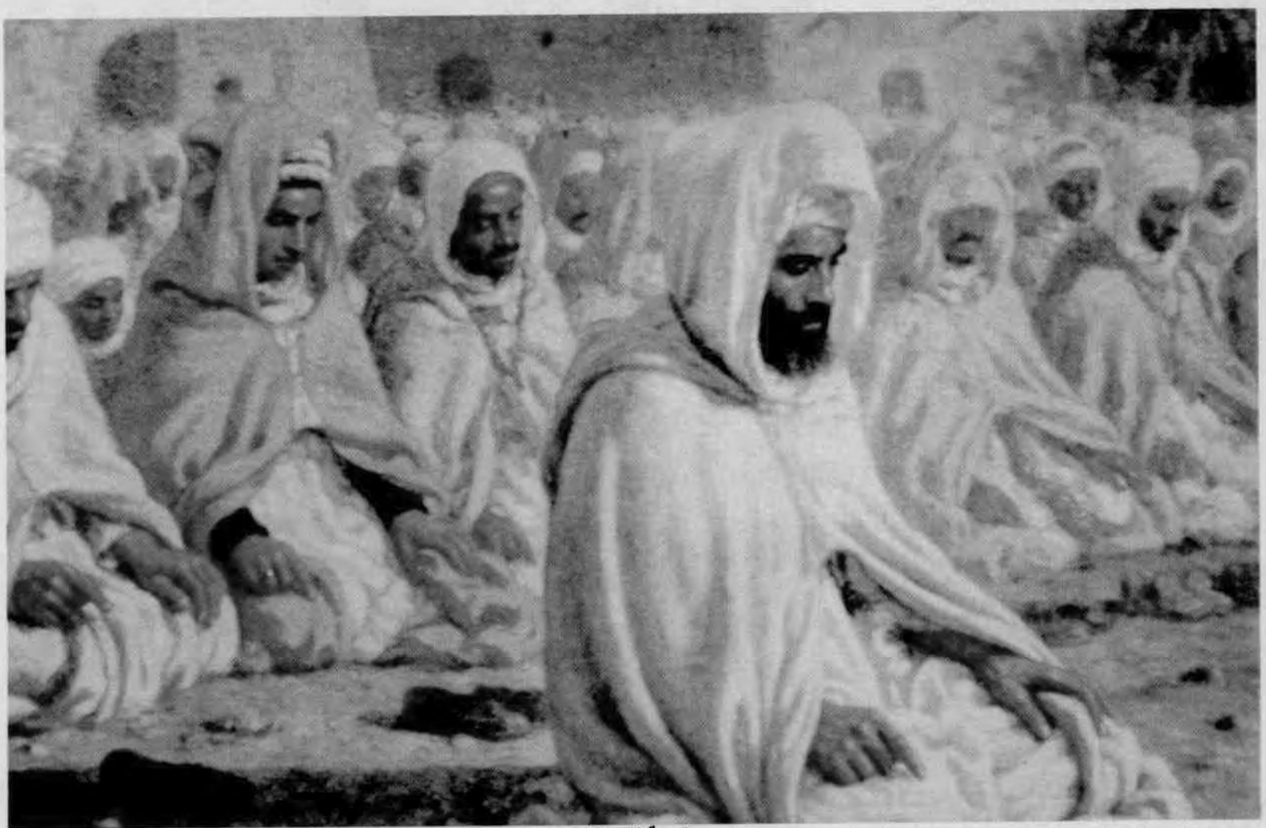
٣١- المعروف أن سليمان بن عبدالملك قد توفي في مرج دابق شمال حلب في صفر من سنة ٩٩هـ/٧١٧م عندما كان يوجه جيش الغزو إلى بلاد الروم لغزو القسطنطينية.

٣٢- اتخذ النسر شعاراً تكريماً لطائر زيوس الذي أرشد سلوقس إلى الموقع الذي كان ينبغي أن تقام عليه مدينة أنطاكية، وتخليداً لذكرى بعض الأحداث التي وقعت عند الإنشاء، وكان النسر الشعار الذي كثيراً ما نقش على العملة ليس في العصر الهيليني فحسب، بل في العصر الروماني أيضاً.

٣٣- الدياميس: هي ليست أبنية بالمعنى المفهوم للبناء وإنما هي ممرات ودهاليز محفورة تحت الأرض ينزل إليها بأدراج، وهي مظلمة إلا في بعض مناطقها المتسعة التي تتلقى النور من الأعلى بواسطة فتحات صغيرة؛ وقد اكتسبت هذه الدياميس أهمية خاصة بعد ظهور المسيحية، إذ أصبحت المكان الذي يضم رفات القديسيين والقديسات.

حياة رسَّام الواحات ناصر الدين ديني وآثاره

أحمد عبدالكريم



لوحة الصلاة

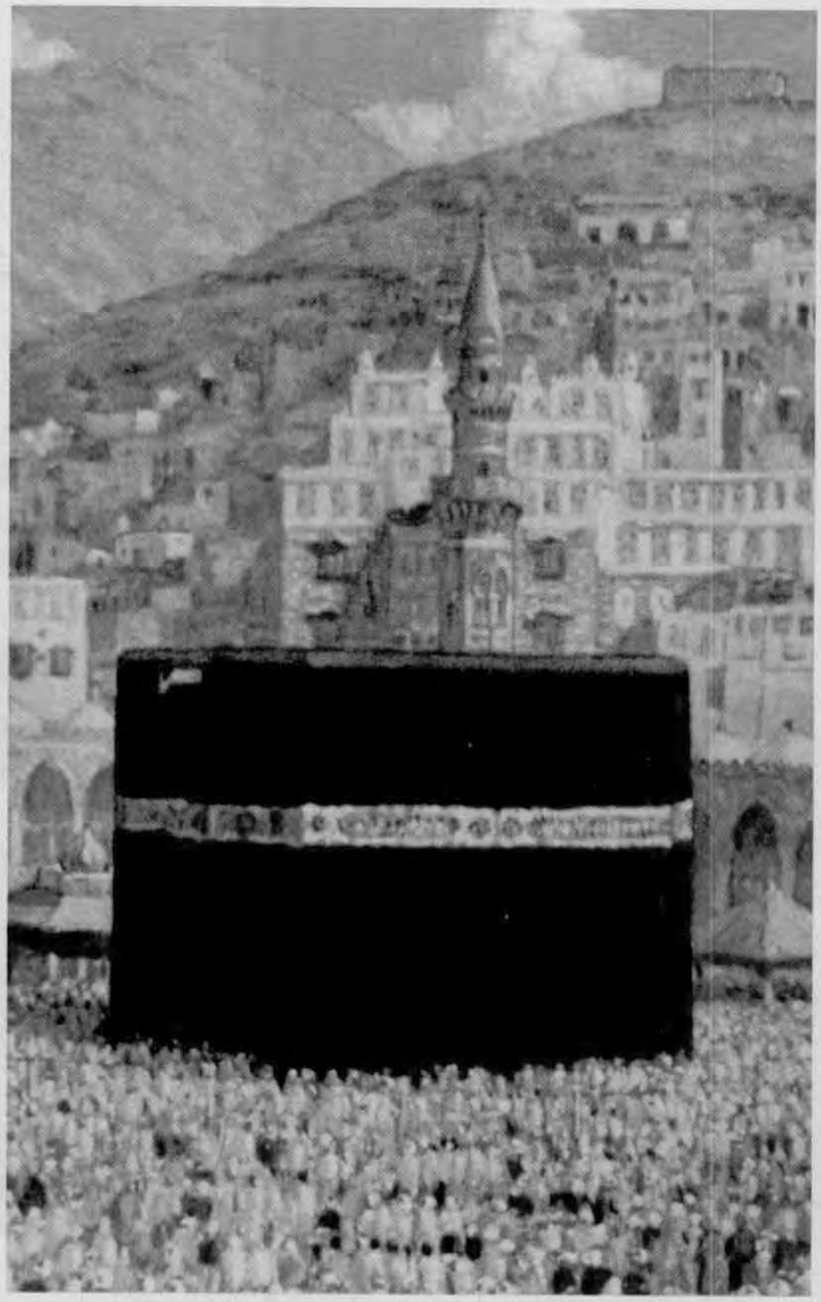
إن المتأمل للوحات الفنان الفرنسي المسلم ناصر الدين ديني، سيقف مندهشًا أمام تلك الحساسية التشكيلية الأخاذة، التي تشف عن موهبة استثنائية.

يقر العارفون بالفن بأن مواهب ديني النادرة تُتَوِّجُه واحداً من أقدر الفنانين في التعامل مع قيم الضوء واللون، ومن أكثرهم براعة في تجسيد الملامح والتعبير عن النفس البشرية، بأسلوب يراوح بين الواقعية والانطباعية، ويطفح بالمعاني النبيلة والشاعرية المرهفة.

إن لوحاته تمارس سحرها وتأثيرها في متلقيها، بما تملك من أدوات تشكيلية وتقنية عالية قلَّ نظيرها، كما يؤكد ذلك الفنان محمد راسم:

«ديني فنان أصيل ومتقن تمام الإتقان لمهنته، وكان من ذوي العواطف النبيلة والفكر النيِّر».

لقد بدأ ديني مصوراً مستشرقًا



الكعبة الشريفة (زين بها كتاب الحج إلى بيت الله الحرام)

وانتهى مسلمًا صادقًا، يسمه الغربيون «بالمصوِّر العربي» بعد أن اعتنق الإسلام عن دراية واقتناع، وكان أن غيَّر هذا الدين مجرى حياته الدينية والفنية، وحقق سعادته الروحية، كما يعترف هو بذلك.

وفي ظنِّي، أن من يدرجون اسم ديني ضمن فناني الاستشراق الإفريقي مخطئون كل الخطأ، ذلك أن فنه يختلف اختلافًا بيّنًا عن نظرائه المستشرقين، لأن أعمال هؤلاء تصدر عن نظرة غربية متعالية، غايتها التباهي وإرضاء الفضول، وتجسيد الجمال في المدهش والغرائبي، بينما لم يكن الأمر كذلك مع الفنان ديني الذي كان منفعلاً متفاعلاً مع ما يرسم من مظاهر الحياة العربية الإسلامية في الصحراء الجزائرية، من موقع المنتمي لا الدخيل، متوخيًا إبراز قيم الحق والخير والجمال، وفي هذا يقول الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي:

«إن الآثار الأساسية لديني لوحات كانت أم مؤلفات، مستوحاة من الجزائر، من مناظرها الطبيعية، من سكانها بمسراتهم وأحزانهم وعقيدتهم الفطرية والعميقة.

ولقد عرف في وقت مبكر كيف ينبذ تلك الموضوعات التي كانت مألوفة لدى المستشرقين التقليديين، ليحقق بطريقته الخاصة فنًا من ذلك الجمال ضمن الحقيقة، كما وصفه بحق أحد النقاد.

ومع أنه خصص الكثير من أبحاثه وعنايته للألوان والأضواء، فقد كان الرسام الماهر للتقاليد الشعبية، والشادي الذي تغنّى (ببوسعادة) والفنان الكريم النفس الذي لم يتجاهل ما كان يلاقيه السكان من بؤس وظلم وإهانة».

إنه لحريّ بنا أن نفسح لهذا الفنان مكانًا مضيئًا في ذاكرتنا الثقافية والفنية، ونشمله بالتثمين والاحتفاء الذي يليق بمكانته بوصفه فنانًا عالميًا لا يقل موهبة وقيمة عن معاصريه من فناني الغرب.

لقد تعمَّدت الأوساط الإعلامية في الغرب التعتيم على آثار ديني

الفنية والفكرية بسبب ميوله العربية وانتمائه الإسلامي. غير أن القيّمين على الثقافة في الجزائر خاصة، حاولوا التصدي لذلك من خلال إصدار كتب تتناول سيرته وفنه، ومن خلال إعادة طبع كتبه ومؤلفاته المختلفة، ثم من خلال إقامة متحف يحمل اسمه في بيته في مدينة بوسعادة، جنوب العاصمة الجزائرية حيث استقر ديني فترة طويلة، وأنجز القسم الأعظم من لوحاته، ويضم بعض لوحاته وآثاره، وكثيراً من الوسائل والأغراض التي كان يستعملها في حياته اليومية والفنية.

إن قناعتنا بأن قطاعاً كبيراً من القرّاء العرب لا يعرفون الشيء الكثير عن هذا الفنان الفذّ، هي التي أملت علينا الاجتهاد في إعداد هذه الكلمة الوفيّة، آملين بذلك تسليط بعض الضوء على سيرته وآثاره الفنية ومشروعه الفكري.

تحت ضوء القمر الصحراوي

يعد ناصر الدين ديني واحداً من رسامي القرن التاسع عشر الذين حققوا حضوراً عالمياً لا يضاهى.

كان اسمه قبل أن يعتنق الإسلام ألفونس إتيان ديني. ولد بباريس في ٢٨ مارس/آذار عام ١٨٦١م، وظهرت ميوله ومواهبه الفنية في سن العاشرة، عندما كان يدرس بثانوية هنري الثاني.

بعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا)، أمضى خدمته العسكرية في نورماندي، ثم قرَّر الاتجاه إلى دراسة الفن على الرغم من اعتراضات العائلة، فكان أن انخرط في مدرسة الفنون الجميلة، و(ورشة فالون) عام ١٨٨٠م، وقضى أربع سنوات في أكاديمية (جوليان)، حيث تتلمذ لأستاذيه وليام بوفرو وتوني روبير فلوري، وتوج ذلك بحصوله على تقدير جمعية الرسامين الفرنسيين عن لوحتيه «الأم كلوتيد» و«صخرة صاموا» اللتين جلبتا له الصيت الذائع.

في عام ١٨٨٤م، عرض عليه أصدقاء له القيام برحلة إلى الجنوب الجزائري، بحثا عن فراشة نادرة، فكانت دهشته كبيرة أمام عظمة الصحراء،



المؤذن



الفنان ناصر الدين ديني (بريشته)

وغناها بالضوء، فكأنه وجد ضالته المنشودة، وجنته المفقودة، لذلك قرر العودة ثانية، وذلك ما حدث فعلاً في عام ١٨٨٥م، عقب حصوله على منحة مكنته من تحقيق هذه الرحلة، وفيها استأنست روحه بجمال المكان ورحابته، وكرم الإنسان وطيبته، فطاف الواحات من الأغواط حيث أقام فترة، ثم توجه إلى ورفلة وسدراتة عاصمة الميزابيين القديمة، ولم يفته أن ينجز بعض اللوحات والكثير من الدراسات، ثم كانت وجهته إلى المسيلة وبوسعادة.

في عام ١٨٨٨م التقى شاباً من بوسعادة، هو سليمان بن إبراهيم باعامر، الذي أنقذ حياته وناصره عندما اعتدى عليه اليهود، وقد توثقت بين الرجلين صداقة متينة استمرت أكثر من أربعين عاماً، عرّفه سليمان خلالها عادات الأهالي ومعتقداتهم، وشاركه حياته

وأعماله. بداية من عام ١٨٩٥م، قرر ديني بأن مصدر إلهامه لن يكون سوى الصحراء الجزائرية طبيعة وإنساناً، وذلك ما دفعه إلى الاستقرار نهائياً ببوسعادة واحته المفضلة، التي لم يكن يغادرها إلا باتجاه باريس لعرض لوحاته في صالون جمعية الفنون الجميلة، وقاعة جمعية الرسامين الفرنسيين.

ديني في موكب الإيمان

منذ رحلته الأولى، انخرط ديني في مدرسة خاصة بالمستشرقين ليتعلم مبادئ اللغة العربية، وليتمكن من فهم الروح العربية، وقد اكتملت معرفته لهذه اللغة وإلمامه بها بمساعدة معلم القرآن أحمد الصغير عند استقراره بواحة بوسعادة. كما انخرط بكل جوارحه في الحياة الإسلامية للأهالي، مشاركاً لهم في كل أحوالهم.

وكانت سنة ١٩١٣م، السنة التي أعلن فيها ديني إسلامه رسمياً أمام مفتي الجزائر بالجامع الكبير، في حفل حاشد أقيم لهذا الغرض، ليتقلد اسمه الجديد: ناصر الدين ديني.

قبل هذا التاريخ، كان ديني يحظى بكل التقدير في محيطه الفرنسي، لذلك فقد كان لاعتناقه الإسلام وقع كبير على الأوساط الغربية التي لم تتوانَ في التجنّي عليه والتنكر له ولمواهبه الفنية، ولم تتورع عن نعته بخائن الغرب الذي باع نفسه للعرب، فقد كتب أحد المؤرخين:

«باعتناقه الإسلام، يكون ديني قد فقد أوربيته، وتخلى عن إيمانه ليصبح مسلماً».



صخرة صامُوا

وكتب الفرنسي ج. ديني:

«إن مواهبه كفنان نادرة، وأما بخصوص اعتناقه الإسلام، فهذا أمر لا تقبله عقليتنا الغربية العريقة والدينية، وذلك ما جعله إنساناً فريداً».

أما الأوساط الإسلامية، فقد احتفت بهذا الحدث أيما احتفاء بالنظر إلى المكانة التي احتلها، وقد عزّز ذلك مكانته المحترمة لدى الدوائر الإعلامية والسياسية والفنية في العالم الإسلامي كله، ومن ذلك ما جاء في جريدة الشهاب، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

«إذا عرضنا لإسلام ناصر الدين ديني، فمن الواجب التنويه بهذه البشرى العظيمة، التي كانت لها دلالاتها العميقة في كل العالم الإسلامي».

في حين تصدى ديني لدحض كل المزاعم والأراجيف التي راجت حول اعتناقه للإسلام قائلاً:

«إن اعتناقي الإسلام لم يكن محض مصادفة، لقد كان ثمرة لأربعين سنة من التقصّي والتأمل والبحث في الدين والتاريخ، والمقارنة بين الأديان».

توج الفنان ناصر الدين ديني اعتناقه الإسلام بالحج إلى البقاع المقدسة في أبريل/نيسان ١٩٢٩م، وخصّ هذه الرحلة بمؤلف خاص هو كتابه: «الحج إلى بيت الله الحرام» ومما جاء فيه: «لقد تركت هذه الرحلة في نفسي انطباعات لم أشعر بما هو أسمى منها في كل حياتي، فلا أحد في العالم يستطيع أن يعطي فكرة عمّا شاهدته من جوانب هذه العقيدة الوحدانية من حيث المساواة والأخوة».

بعد أشهر من أدائه فريضة الحج، أي في ٢٤ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٩م، توفي ديني في باريس عن عمر يناهز الثامنة والستين عاماً، وأقيمت له صلاة

الجنازة في مسجد باريس، حضرتها شخصيات إسلامية مرموقة، وعملا بوصيته التي جاء فيها:

«هذه رغباتي فيما يخص جنازتي، التي يجب أن تشيّع طبقا للتعاليم الإسلامية؛ لأنني اعتنقت الإسلام بكل إخلاص منذ سنوات، وقدمت كل منجزاتي ومجهوداتي لتمجيد الإسلام.. يجب أن تدفن جثتي بالمقبرة الإسلامية لمدينة بوسعادة، التي أنجزت فيها القسم الأعظم من لوحاتي، وإذا كانت وفاتي في بلاد أخرى، فيجب أن تعاد جثتي إلى بوسعادة، وتكون تكاليف النقل من تركتي، وإذا وافاني الأجل في باريس، ولم يتواجد أي مسلم لإقامة صلاة الجنازة، فإن جنازتي يجب أن تكون مدنية فقط، ريثما تشيع جنازتي حسب التعاليم الإسلامية في بوسعادة. إن هذا التصريح يلغي جميع القرارات التي ربما كنت قد اتخذتها في تاريخ سابق».

نقل جثمانه في ١٢ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٠م، ليدفن بالمقبرة الإسلامية ببوسعادة في ضريح أعده بنفسه قبل وفاته، بحضور جموع غفيرة فاقت ستة آلاف شخص، جاؤوا من كل الجهات ليحضروا مراسيم دفن هذا الرجل الفذ الذي كان أكثر من رسام.

ديني رسام الجمال والحقيقة

يقول أحد النقاد إن «ديني استطاع أن يصوّر الجمال أروع تصوير وأن يستخرجه من الحقيقة التي لا توجد حقيقة سواها».



فتيات بو سعادة

ذلك الجمال الذي لا يعرف التمويه، الكامن في الطبيعة الصحراوية الزاخرة بواحاتها ومائها، وظلالها وأضوائها، والكامن في الإنسان الخيِّر والمعتز ببداوته وصحرائه، الذي قاسمه الألم والفرح والدهشة.

إن جميع صوره، كما يؤكد الأديب راشد رستم في الأهرام عام ١٩٢٩: «تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء، كما تدل على قدرة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة، وهو ذو مركز خاص، مشهود به بين إخوانه المصورين، وامتاز منهم بتخصصه في الحياة الإسلامية، وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر، وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح، حتى قيل عنه: إنه المصوِّر الفريد بين إخوانه، الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل».

على مدار حياته التي عاشها، أنجز ما يربو على خمسمئة وأربعين لوحة، موزعة في عدد من متاحف العالم، فضلا عما لا يمكن حصره من الرسوم المائية والمخطوطات والدراسات التي تدل على أنه كان يحيط عمله بالكثير من الجدية والعناية والبحث في العناصر التشكيلية المختلفة، وها هو ذا يعلق على قدرته في تجسيد الملامح والتعبير عن الانفعالات الإنسانية بالقول: «لقد درست أشخاص لوحاتي أربعة عشر عامًا، قبل أن أقبل على رسمهم، وقد كان لزاما عليّ التغلغل في نفوسهم، كي أتمكن من التعبير عنهم بشيء آخر غير الخطوط، هو ما يشكل الشخصية؛ لأن التفاعل أمر ضروري لكي تكون قدراتنا على الإحساس والملاحظة فاعلة إلى أبعد الحدود، وتحقق الاتحاد الكامل بينك وبين نموذجك».

حملت لوحات ناصر الدين ديني مضامين كثيرة، وتوزعتها موضوعات وعناوين مختلفة، يقترح أحد الباحثين المتخصصين في فنه تقسيمها إلى:

لوحات مستوحاة من فرنسا

وهي مجمل أعماله التي أنجزها في فرنسا، كالصور والنماذج (البورتريهات) التي رسمها لنفسه ولأفراد عائلته وللمقربين منه، ثم التصاوير المسيحية، ولوحاته التي تمثل مشاهد من الحياة الفرنسية، فقد أنجزه بعد استقراره نهائياً في بوسعادة، وتمثل مناظر طبيعة بواديها ونخيلها، ومشاهد من حياة الأهالي بعاداتهم ومعتقداتهم، وقد خصَّ صبيتها بعدد من لوحاته، مجسداً الطفولة في براءتها وشغبها وحيويتها، وكانت ألعاب الأطفال من المواضيع الأثيرة إلى نفسه، مثلما جسد المرأة بجمالها ولباسها وحليها وأوشامها أبرع تجسيد، كما رسم البدو في فطرتهم وأزيائهم العربية وتقاسيم



ابن المرابط

وجوههم، وكل ذلك في دقة متناهية.

وتجدر الإشارة هنا إلى لوحتيه الرائعتين «صخرة صاموا» و«الأم كلوتيد».

لوحات مستوحاة من الجزائر:

وهي المناظر التي رسمها للجنوب الجزائري في أثناء رحلاته وتطوافه بالواحات ومنها رائعته المعروفة «سطوح الأغواط».

أما القسم الأكبر من لوحاته،

وعلى الرغم من أصله الفرنسي، فإن ناصر الدين ديني لم يتجاهل ما كان يلاقيه السكان من إهانة السلطات الاستعمارية وظلمها، فقد ندّد بالقمع الكولونيالي للأهالي الجزائريين في مناسبات كثيرة، ونجح في إدانته بريشته، بما رسمه من مظاهر رهيبة، تدين القهر الاستعماري إدانة واضحة، كما في لوحاته: الأهالي المحتقرون، وعهود الفقر، والزوجة المهجورة..

يقول الدكتور يوسف نسيب: «إننا نحس أن نظرة كل واحد من أولئك العرب الذين رسمهم رسام الواحات ناصر الدين ديني، كانت تدين الاستعمار الفرنسي»، كما أن بعض لوحاته ومنها: المتربصون، واستراحة المحاربين، والجريح التي تجسد مشاهد من الانتفاضات الشعبية التي قام بها الشعب الجزائري ضد المحتل الفرنسي، تعبر عن اعتزازه بهذه الثورات ومؤازرته لها.

في قسم آخر من لوحاته، اختار ديني التعبير عن المظاهر الروحية والدينية للإسلام، ولوحاته: موكب الإيمان، والدعاء، والصلاة، والمؤذن خير شاهد على هذا المنحى، ومما تجدر الإشارة إليه، هو أن ديني بعد عودته من البقاع المقدسة، كان قد عقد النية على طرق آفاق جديدة من التعبير عن الحياة الإسلامية، مستلهماً ما تركته رحلة الحج في نفسه من مشاعر، لكن وفاته حالت دون تحقيق تلك الرغبة، وإلى ذلك يشير في قوله: «ستكون أعمالي اللاحقة مشاهد دينية بالخصوص، وستكون تتويجاً لآثاري كلها، لأنني منذ أربعين عاماً، ما برحت أخلد الأشياء التي تدمرها المدنية الشرسة شيئاً فشيئاً، لقد كنت ربما الوحيد الذي فعل ذلك

قبل زوالها الكلي.

لقد استنفدت ما استطعت عن الأطفال، والحروب، والمحبين، ومشاهد الحياة البدوية، وبدأت رسم المشاهد الدينية، غير أن تلك التي رأيتها أكثر روعة، وبواسطتها أرغب في أن يقاسمني الجميع دهشتي».

ديني المسلم الحالم

فيما كان ناصر الدين ديني يتحف العالم بروائعه الفنية ذات اللمسات السحرية تعاطى الكتابة والتأليف، معبراً بقلمه عمّا قصرت دونه ريشته من أفكار وانشغالات نظرية، ولذلك يجب ألا تغيب عن أذهاننا حقيقة كونه كاتباً ومفكراً أوقف منجزاته الفكرية، والفنية، على تمجيد الدين الإسلامي وتبيان دلالاته السامية التي يتجاهلها خصومه المستشرقون.

ويمكن تصنيف مؤلفات ديني وكتاباته في الأقسام التالية:

أولاً: حكايات وقصائد وأساطير ونصوص عن الحياة في الصحراء زيّنها بلوحات مرسومة له، وموقعة باسمه وباسم صديقه سليمان إبراهيم، ونذكر من هذه الكتب: قصائد عنترة، وخضرة، وربيع القلوب، والسراب، ولوحات الحياة العربية.

ثانيا: تأملات في الفن ومباحث في تقنياته من وحي خبرته بوصفه فناناً ضمّها كتابهُ: «مأزق الرسم»، الذي عرض فيه للألوان الزيتية وخصائصها المختلفة والبرنقة ومساويها ليقترح التلوين باستخدام البيض.

كما تعرض في هذا الكتاب بالتحليل المستفيض ليعبر عن إعجابه بالفنان رامبرانت وأسلوبه، والفنانين: سيزان وفان جوخ جاعلاً إياهما علامتين مضيئتين في مسار الانطباعية، آخذا على هذه المدرسة كونها لا تعتمد على الموضوع.



لعبة العليلو

ثالثا: نصوص فكرية حول الإسلام، هاجسها الرئيس هو الكشف المستفيض عن أخطاء الغرب حول الإسلام، ودحض أطروحات المستشرقين ومغالطاتهم فيما يتصل بنظرتهم لهذا الدين عقيدة وحضارة، التي يشوبها الكثير من المسخ والتشويه.

لقد مكنته ثقافته وسعة اطلاعه على كل ما كتب شرقًا وغربًا من تجسيد مشروعه الفكري الذي بدأه منذ نشره كتاب: «حياة محمد صلى الله عليه وسلم» في عام ١٩١٨م، وفيه يسرد بروح الفنان فصولاً من السيرة النبوية بأسلوب شائق، متفاعلاً ومتماهيًا كل التماهي مع ما يكتب، وليكمله في كتابيه: «الشرق في نظر الغرب»، و«الحج إلى بيت الله الحرام»، وفي كل هذا حاول ديني بلورة اجتهاداته حول الإسلام من منطلق «المسلم الحالم»، كما يسمي نفسه هو، شانًا هجومه على بعض الكتابات الاستشراقية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، المشككة في كتاب الله وفي السنة المطهرة، وفي المعجزات الإلهية، هذه الافتراءات التي يدّعي أصحابها امتلاك الحقيقة المطلقة، غير معترفين بالحقائق والقرائن، إلا إذا تعلق الأمر بتعليل مزاعمهم وأوهامهم حول الإسلام، وذلك ما يسميه ديني (بالإسلاموفوبيا)، مشدداً على الأبعاد الاجتماعية التي تتبناها بعض النظم والحركات الجديدة، التي أسس لها الإسلام منذ قرون خلت.

ملاحظة

للموضوع مراجع أهمها كتب ووثائق محفوظة بمتحف ناصر الدين ديني بمدينة بوسعادة، حيث قضى الفنان الشطر الأكبر من حياته، وحيث يعيش كاتب المقال.

حول إشكالية النظام المعرفي والقراءات المعاصرة

عبدالله بن سليمان القفاري

تطرح الفلسفة مفاهيمها وأدواتها في مدى واسع لا تحده سوى حدود الفلاسفة أنفسهم، ومناهجهم التي يذهبون فيها مذاهب شتى.

وإذا كانت الفلسفة، حسب التعبير اليوناني، تعبر عن حب الحكمة، وكشف العلل لظواهر الواقع، فإنها أصبحت تعرف بمفهومات اقتربت من إبداع المفاهيم ذاتها ومقاربتها واكتشاف تلك العلاقات بين الظواهر وتحليلها وربطها بعضها ببعض، ومن رحم الفلسفة نشأ كثير من العلوم تلبية لحاجة الإنسان إلى فهم الواقع والارتباط به.

مباحث

والفلسفة التي توزعت منذ ظهورها بين عدة مباحث، منها مبحث الوجود، وهو الذي يشمل النظر في طبيعة الوجود على الإطلاق مجرداً من كل تحديد (الوجود اللامادي ـ الميتافيزيقي) أو ما وراء الطبيعة كي يعبر عنه، ومنها مبحث القيم، وهو الذي يعرض للبحث في المثل العليا، والقيم المطلقة، مثل قيم الحق والخير والجمال، وهو ما يهتم بما يجب أن يكون لا من حيث ما هو كائن، ومنها ما يتعلق بنظرية المعرفة أو الأبستمولوجيا، وهي التي تبحث في طبيعة المعرفة وحدودها التي يسعى الإنسان إلى تحصيلها، وتتعرض للبحث في إمكان العلم بالوجود، وتواجه مشكلة الشك بالحقيقة والاطمئنان التي صدق إدراكها، والتفرقة بين المعرفة الأولية التي تسبق التجربة والمعرفة التي تجيء اكتساباً، وتدرس شروط الأحكام الممكنة لوصف حدود المعرفة بين الاحتمال واليقين، كما تبحث نظرية المعرفة في منابع المعرفة وأدواتها: أهي العقل أم الحس أم الحدس، وتبحث في طبيعة المعرفة وقيمتها.

وفي نظرية المعرفة ظهرت عدة مذاهب فلسفية رئيسة تبحث في مشكلة المعرفة، منها المذهب العقلي الذي يرى أن العقل، بما رُكب فيه من استعدادات أولية أو مبادئ قبلية، هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة اليقينية. وهناك المذهب الحسي أو التجريبي الذي يرجع المعرفة كلها إلى ما تمدنا به الحواس، وما تصدقه التجربة. وهناك أصحاب النزعة النقدية (لا من حيث نقد الفكر أو الشك فيه، وإنما من حيث اختبار قدرات الإنسان على المعرفة)، وهم يؤمنون بالحاجة إلى العقل والحس والحدس مجتمعة بوصفها مصادر للمعرفة.

وقد ساهم الاهتمام بهذه المباحث في إحراز تقدم سريع في مختلف فروع العلوم، لأن البحث في نظرية المعرفة يتعرض في أحد مجالاته لتحليل المقولات العلمية ودراستها لمعرفة صوابها من خطئها، كما يساعد على تكوين النظرة الكلية الشاملة للموجودات والعلاقة فيما بينها.

يقول ألبرت أينشتاين عن أثر نظرية المعرفة في التربية العلمية الحديثة: «أستطيع أن أؤكد وأنا على يقين أن أنْبَهَ الطلاب الذين قمت بتدريسهم كانوا يهتمون اهتماماً عميقاً بنظرية المعرفة، وأعني بأنبه الطلاب أولئك الذين كانوا يتمتعون بقدرة فائقة على الاستقلال بالرأي إلى جانب بلوغهم درجة ممتازة من المهارة، خصوصاً عندما تثار مناقشات حول بديهيات العلم ومفاهيمه، ويبرهنون

على حججهم ويدافعون عنها بإصرار، وكأن لهذا الأمر أهمية بالنسبة إليهم».

وعلى الرغم من اختلاف المذاهب الفلسفية حول إمكانية المعرفة ومصادرها، إلا أنه من الأهمية بمكان، ونحن نعالج المسألة المعرفية، إدراك المفهوم الغربي للعلم الذي تشكل في ضوء التجربة الغربية التي تكونت نتيجة تاريخ خاص بتطور المعرفة في أوروبا.

الصراع والعلم المطلق

لقد تبلور مفهوم العلم في أوروبا من خلال الصراع الذي خاضه عدد من الباحثين في بداية عصر النهضة ضد الكنيسة التي كانت تحتكر العلم المطلق، كما أسموه، سواء ما تعلق منه بالقضايا الغيبية أو الأمور المادية الحسية، وقد كانت المعارف التي تروج لها الكنيسة آنذاك ملأى بالخرافات والأساطير التي لا تخضع لمعيار منطقي سليم.

وعندما توصل بعض الباحثين الأوروبيين منذ القرن الخامس عشر من أمثال كوبير نيكوس وجاليليو وبرونو إلى وقائع فلكية وفيزيائية عن طريق الملاحظة الموضوعية التي أثبتت خطأ معلومات رجال الكنيسة المعتمدة على أفكار الفلاسفة اليونان، نشب صراع بين الفريقين أدى إلى زعزعة الثقة بأفكار الكنيسة، بل أدى ذلك إلى رفض العلم فيما بعد بالمفهوم الكنسي الذي يرتكز على تقبل المعلومات دون أن يقوم عليها دليل حسي أو عقلي.

مع هذا التطور في مفهوم العلم لدى الأوربيين أصبح العلم كما يرونه مناقضاً للدين، لكونه اكتسب شرعيته على الرغم من الكنيسة وعلى حسابها، وفي ضوء هذه التطورات والتحولات الفكرية التي عرفتها أوروبا ظهرت الفلسفة الوضعية كمحاولة لتجاوز مشكلات المعرفة الدينية - الكنسية التي تم إقصاؤها عملياً من الدوائر العلمية، بطرح وجهة النظر المادية حول الكون والإنسان، لكونها البديل المستقبلي.

حقائق موضوعية

ومنذ منتصف القرن الماضي أصبح مفهوم العلم السائد في الأوساط الغربية هو المفهوم الوضعي، وهو الذي يتضمن العناصر التالية: معالجة ظواهر قابلة للملاحظة والقياس يمكن التحقق منها بالتجريب، وإمكانية صياغة نتائج البحوث والدراسات العلمية بصورة رياضية، وقابلية المعطيات العلمية للاستفادة منها في التطبيقات التقنية، وبناء على ما سبق فإن العلم بهذا المفهوم يقود إلى حقائق موضوعية لا علاقة لها بالمجتمعات أو بالأشخاص الذين أنتجوها، بمعنى أنها قابلة للتداول في كل زمان ومكان.


آينشتاين

وأما النقلة الحضارية والمدنية التي كانت إفرازاً طبيعياً للثورة الصناعية التي كانت بدورها نتاجاً للتحولات الفكرية، وعلى رأسها تقنين مفهوم العلم على ذلك النحو، فقد أكدت أن المجتمع الغربي أصبح ينتظر من المعرفة العلمية والتطبيقات التقنية المنبثقة عنها أن تعطيه الحل لكل المشكلات التي تعترضه.

وتجدر الإشارة هنا، ونحن نقرأ شيئاً عن النظام المعرفي في الغرب، أن نشير إلى مسألة كثيراً ما تثار حول الاختلاف في تصور مفهوم العلم، وأنه بمفهومه الغربي لا ينسجم مع التصور الإسلامي للعلم، وهو الذي يقوم على إدراك أن مصدر العلم الأول هو الوحي المنزل من عند الله الذي اشتمل على حقائق بعضها يتعلق بعلم الغيب، والآخر بعلم الشهادة، وإنما تبقى مع ذلك مصادر أخرى تعتمد على نتائج إعمال العقل فيما يلاحظه الإنسان من بديع صنع الله، وتبقى اجتهادات الإنسان لمعرفة أسرار الكون والحياة باستخدام وسائله المعرفية التي على رأسها المنهج التجريبي الذي أشرنا إليه. فهذه الوسائل تبقى أدوات فاعلة لم تستثمر على نحو أفضل يعطي للعقل والمنهج التجريبي السليم موقعه في إنتاج هذه المعرفة في المجتمع العربي والإسلامي.

إن منهج المعرفة في الإسلام يقوم على دعوة الناس إلى التأمل في الواقع الكوني والإنساني بالعقل ومصاحبة هذا الواقع للوقوف على أبعاد الحقيقة، والآيات الكريمة التي تحض على إعمال العقل، والنظر في الكون، والتدبر،والتعقل والتفكر فيه كثيرة، حتى ذهب بعض الفقهاء إلى أن النظر العقلي فرض كفاية على كل مسلم، وأن الجمع بين العقل والنقل هو جمع مشروع مطلوب.

كما يدعو الإسلام إلى العلم واكتساب المعرفة بالعقل والحس والتجربة، فالملاحظة والتجربة

والتفكير كلها أدوات للبحث والتحصيل المعرفي، والربط بين الأشياء المختلفة التي تبدو غير مترابطة لا يقدر عليه إلا من يفكر، فالمنهج الإسلامي لتحصيل المعرفة بالإضافة إلى خبر الوحي هو منهج تجريبي عقلي في آن واحد.

وقد أخذ العرب والمسلمون في عصر الحضارة الإسلامية بهذا النهج في تفكيرهم العام، وفي دراساتهم المنطقية وبحوثهم في ميدان العلوم فدفعوا بركب التقدم العلمي، وأثروا تأثيراً إيجابياً في حركة التاريخ الإنساني.

إذا نحن أدركنا الأبعاد المهمة التي خلفها مبحث نظرية المعرفة على مستوى التقدم العلمي بشكل عام، وإذا أدركنا أن للعرب المسلمين منهجاً علمياً أعلى من شأن العقل وطرح مسألة التدبر والتفكر في قضايا الإيمان أولاً، وفيما هو من شأن الإنسان في هذه الحياة وهذا الكون ثانياً، فسنجد أن هناك منهجاً علمياً لو استثمرناه حقاً لطورنا نظاماً معرفياً لا يعاني من إشكالية الصدام الحضاري، أو إشكالية الأصالة والمعاصرة، أو إشكالية الموروث والحداثة أو الانكفاء الحضاري؛ لأن هذا البناء الذي يتطلب هذا النظام يتسق في منظومة تَملُك تقرير ماهية العلم والتحقّق من معطياته، وتقبّل الموروث وتفهمه ووضعه في منزلته الحقيقية دون مبالغة أو تهويل، ومن دون إسفاف أو تسفيه.

مدرسة تنويرية

إن الاستفادة من معطيات الفكر الإنساني والتعامل الإيجابي معها، وعلى رأسها المذاهب الفلسفية في حدود التصور الذي لا يصطدم عقدياً وفكرياً مع التصور الإسلامي للكون والحياة، جديران بأن يؤسسا مدرسة فكرية تنويرية تتجاوز الإشكالية التي تكونت لحظة الصدام الحضاري بين الأمة المغلوبة والغالبة، كما أن من شأن التحرر من المواقف الفكرية السياسية والتراثية التي مضى على تشكلها التاريخي مئات السنين، وإعادة قراءة هذا الموقف يؤازر هذه النظرة، ويساهم في إعادة تشكيل الخطاب العربي النهضوي على أساس جديد وبرؤية جديدة.

إن ما أصاب العرب المسلمين من مأزق حضاري ربما يعود في أصله ومبناه إلى خلل فكري وتعصب مذهبي على أثر غياب المنهج المعرفي

وقد يُصدم الباحث عندما يقبل على قناعات مسبقة اعتمد فيها بعض معتنقيها على تعميمات مفهومية بشرية للكون والحياة (فهماً للكون وقوانين الطبيعة وممارسة للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية) استناداً إلى اجتهادات بشرية ربما ابتدعها أصحابها قبل قرون اعتماداً على فهمهم بعض النصوص الدينية في مواقع ومصادر تقبل التمحيص والمراجعة، ومن ثم تعميم هذه الأحكام والمفاهيم، والدعوة إلى الأخذ بها، وإهمال كل القراءات والمفاهيم الأخرى لهذه النصوص، مع إهمال بيّن أحياناً لكل معطيات التراث الإنساني والعلمي والمجتمعي، ودون تبيّن آليات التقدم وفلسفة بناء المجتمعات، وكل هذا مؤطر بنظرة تدعو إلى الانكفاء على تلك القراءات، والاكتفاء بتلك المفاهيم وتعميمها، بحسبان أنها تمثل النظام المعرفي الحقيقي الذي يصطبغ بصبغة القداسة، وتحرم مجالات البحث فيه أو نقد أدواته.

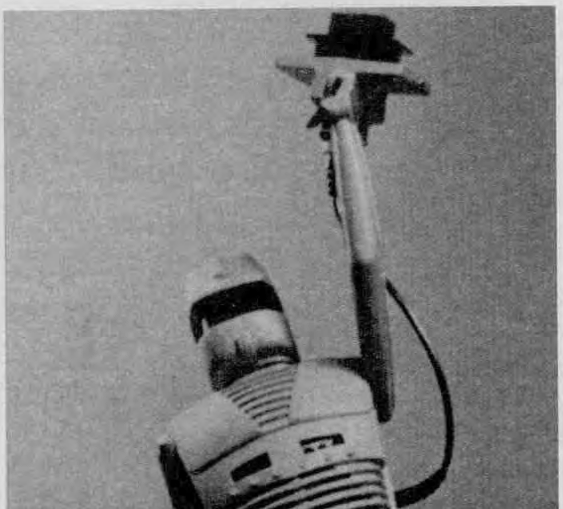
إن ما أصاب العرب المسلمين من مأزق حضاري ربما يعود في أصله ومبناه إلى خلل فكري وتعصب مذهبي على أثر غياب المنهج المعرفي الذي يمكن أن يواجه تراثاً ضخماً أفرزته معطيات عصره ومتطلبات زمانه، ووقف منا من يحاول أن يرسخه فهماً وتأويلاً في ظرف عصري زماني ومكاني مختلف، ربما تطلب قراءة جديدة وفهماً جديداً يؤطر ابتداءً بالإيمان بقداسة النص (القرآن الكريم والسنة النبوية) إلا أنه يبقى مجالاً لفهم هذا النص فهماً متجدداً، والتفاعل معه بعقل مفتوح لا يلغي الموروث ولا يقفز على ثوابت الأمة، ولكنه لا يسبغ أيضاً على الفهم البشري قداسة تحول دون تفكيكه وفهم بنائه ضمن سياقه الزماني والمكاني، كما لا يقف عند تلك الاجتهادات موقف التسليم والقبول المطلق، إنما يقرؤها قراءة واعية متبصرة تجعلها في سياقها تراكماً بشرياً معرفياً مفهومياً يقبل منها ويرفض ويضيف ضمن دائرة أوسع تستمد وهجها من معرفة إنسانية، وتراكم حضاري بشري متعاقب هدفه بناء الإنسان بناءً متوازناً سليماً، ومقصده مقاصد الشريعة التي لم تكن في كلياتها إلا وثيقة الصلة بكينونة الإنسان جسداً وروحاً وعقلاً تبحث عن جنته في الدنيا قبل الآخرة.

من
الأدب الغربي

الإنسان والآلة في نماذج من الأدب الأوربي

محمد عبدالقادر مرشحة

لا شك أن المعاناة الناتجة من التقدم الصناعي الكبير لهي معاناة متميزة وتظل مشكلة العصر الكبرى؛ ذلك أن التطور العلمي المدهش قد ترك آثاراً سلبية في المجتمعات الإنسانية؛ فأخذ الكتّاب في الغرب الأوربي يتناولون المشكلات التي خلّفها هذا التطور المتناقض، لأنه ساهم في تعقيد الحياة الإنسانية وفي ذوبان الإنسان في الآلة في الوقت نفسه، فغدت هذه الأخيرة تتحكم في مصيره، وأصبح لها القوة الكافية لفرض نفسها على الحياة اليومية للبشر، فانحسر بذلك شأن الكائن الإنساني الذي صار تابعاً للآلة بدلاً من أن يبقى هو المحور الرئيس، وأهم المخلوقات كلها في هذا الكون.



الإنسان الآلي: عمل بلا مشاعر

والحق أنه تنبه إلى هذه المشكلة أكثر من كاتب من كتاب القرنين التاسع عشر والعشرين، محاولين الغوص في أعماق الآثار السلبية لانحسار أهمية الكائن البشري في هذه الحياة، داقين ناقوس الخطر ومؤكدين شأن الإنسان في هذه الحياة وكأنهم يرددون الآية القرآنية: *ولَقد كرَّمْنا بني آدَمَ وحملناهُمْ في البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطّيباتِ وفضّلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً*. **الإسراء: ٧٠.**

ولعل أهم هؤلاء الكتاب الذين تناولوا هذه القضية تشالز ديكنز CH. DICKENS في رواية «أوقات صعبة» HARD TIMES، وكذلك الكاتب التشيكي كارل تشابك في مسرحية «الإنسان الآلي»، وأخيراً الكاتب الفرنسي مارسيل إيميه MARCEL AYME في مسرحيته «الذبابة الزرقاء» LA MOUCHE BLEUE.

وسنحاول أولاً الدخول إلى عالم

ديكنز CH. DICKENS بغية اكتشاف منهجه في تقويمه لأثر النهضة الصناعية الغربية في الإنسان، وطبيعة هذه العلاقة في الغرب، ومن ثم سنتناول الكاتب التشيكي كارل تشابك في مسرحية الإنسان الآلي، وأخيراً الكاتب الفرنسي مارسيل إيميه MARCEL AYME، لنخلص إلى نتيجة البحث التي تلخص انعكاس المشكلة في الأدب.

ديكنز والنقد الحماسي

ولد تشارلز ديكنز CH. DICKENS عام ١٨٢٠م، لأب فقير؛ وتؤكد المراجع الإنجليزية أنه تلقى تعليمًا متواضعًا، وعمل في مهن متعددة ومن بينها الصحافة، ثم عاش بفضل رواياته الأدبية المتميزة(١).

وقد ذهب الدكتور حسام الخطيب إلى أن ديكنز في روايته «أوقات صعبة» HARD TIMES «قد هاجم النظام الليبرالي في الصناعة وما ينطوي عليه من ظلم وقسوة. على أن ديكنز لم يضع دائماً الإصلاح مقابل الاستغلال، إذ كان يشعر أن الثورة الصناعية بنظامها الاستغلالي لا تعالج اجتماعياً بل فردياً عن طريق تأكيد النوازع الخيرة في النفس الإنسانية كالشفقة والمحبة والإيثار والصبر»(٢).

على حين أن جورج ونج يرى أن هذه الرواية «تهتم بصورة كاملة بالصراعات الصناعية التي نشبت في منتصف القرن التاسع عشر»(٣).

وواضح في روايات ديكنز أنه يربط بين الإنسان والمجتمع المملوء بالعيوب والفساد، ساعياً إلى معالجة القضايا الاجتماعية معالجة تميل إلى النقد الحماسي البعيد من النقاشات السياسية أو الاتجاهات الفكرية (الأيديولوجيات) المختلفة؛ إذ إنه ينتمي إلى مجتمعه الخاص الذي عايشه بتناقضاته المختلفة إبّان الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، فخلص إلى نظرة ذاتية تعكس رؤيته وتجاربه في الحياة الإنجليزية. ونعتقد أن ديكنز كان يشعر أن ثمة خطراً آتيًا من الآلة، الخطر الذي سيزيد حالة الإنسان بؤساً وشقاء بدلاً من إسعاده. ولا شك أن روايات ديكنز تهتم بالتنبيه، ولم تكن تعبر عن مفكر

> اتسمت روايات ديكنز بالنقد الحماسي سعيًا إلى معالجة القضايا الاجتماعية، ومع ذلك لم يكن مفكراً متمرداً

متمرد على النظام الاجتماعي تمرداً يعكس الميل الثوري الذي سنجد أصداءه في الأدب الواقعي الاشتراكي. لذلك لا ينبغي لنا أن نحمّل الأدب الديكنزي ما لا يحتمله من دراسات تطغى على طبيعة مذهب ديكنز الفكري. ولكن العصر كان في بدايات التطور الصناعي والتقني؛ ذلك أن الآلة ستتقدم سريعًا في القرن العشرين، لتسعد الإنسان في أول الأمر، ولكن هذه الأحلام سرعان ما ستتبدد حين تغدو الآلة رمزًا لخطر البطالة؛ المشكلة التي ستصبح كابوساً حقيقيًا يهدد الإنسان الغربي. وهذا الأمر سيشعر به أكثر كل من الكاتب التشيكي كارل تشابك والكاتب الفرنسي مارسيل إيميه MARCEL AYME.

حتى لا تأكلكم الآلة

والحق أن الكاتب التشيكي كارل تشابك ولد عام ألف وثمانمئة وتسعين وتوفي عام ألف وتسعمئة وثمانية وثلاثين في براغ، ويعد من كتّاب تشيكيا المشهورين. وقد تبنى رأيًا لافتًا للنظر بالنسبة إلى عصره الذي شهد التطور الكبير في المجال التقني، ذاهبًا إلى أن الحياة تتطور بالعلم ولكنه نظر إلى المختبرات العلمية نظرة يسيطر عليها القلق، لما رآه من شروط الحياة المعقدة في ظل ظروف العمل السيئة، لأنها لا تفيد ولا تطور الإنسان، لافتقادها إلى العنصر الأساسي الذي تقوم عليه الحياة الإنسانية الحقة، ومن دونه تتعذر وتنقطع عنها السبل الكفيلة بالسعادة، وكأنه يشير إلى فقدان القيم الروحية الضرورية للحياة الحقة والأساسية. ونكتشف في مسرحيته «الإنسان الآلي» أن التطور التقني قد يدمر عوضاً من أن يبني، إن لم يستطع أن ينمي إنسانية الكائن البشري، وانصب على تشييئه. وهكذا تميل الكفة إلى الضد وتجافي مصلحة الإنسان. وأخذ الكاتب يهاجم الإنسان الآلي بقوة، ليعالج قضية جوهرية ظهرت في العصر الحديث: إنها الصراع بين المادة والروح. ذلك أن المادة تمثلها الآلة، وأما الروح فيمثلها الإنسان. صحيح أن المسرحية بسيطة في بنيتها الفنية، إلا أنها معقدة في

تناولها فكرة جوهرية تمس بني آدم بين كتل من الآلات، وتتحدث عن معمل لإنتاج الإنسان الآلي. ويبدو دومين المدير المركزي العام لمصنع الروبوت منتصراً للآلة على الإنسان الطبيعي الذي خلقه الله عز وجل من لحم ودم؛ إذ يعتقد أن العامل الأرخص ثمناً هو الأفضل، وهو الذي يتطلب الحد الأدنى من الأشياء، وبهذا كان عليه أن يميل إلى تسهيل العمل بالتخلي عن كل ما لا يخدم العمل مباشرة، فترك الإنسان وصنع الإنسان الآلي ليحل محل المخلوق الإنساني: «هو العامل الأرخص، العامل الذي يتطلب الحد الأدنى من الحاجيات (...)، وهكذا ترك الإنسان وصنع الروبوت (...). إن الروبوت ليس بشراً. إنه، من الناحية الميكانيكية، أدق منا صنعاً ولديه ذكاء عقلي وعملي رائع ولكنه بلا روح»(٤).

ولعلنا نلمس عداوة للجنس البشري في قول مهندس المعمل فابري لهيلينا عضوة إحدى الجمعيات الإنسانية: «إنه لتقدم عظيم أن تلد الآلات. فكل تسريع وتعجيل هو تقدم. لم يكن لدى الطبيعة أي إلمام بزخم العمل العصري. طفولة الإنسان بكاملها، من الناحية التكتيكية، غير ذات قيمة، إنها تبذير بالزمن(...)»(٥).

ونلمس إصرار الكاتب على الانتصار للقيم الإنسانية، لأن الآلة محرومة من هذه القيم النبيلة، ومن الإرادة ومن الضمير الذي هو رمز للخير(٦). كما نجد تأكيداً لعالم الروح الذي يتميز به الإنسان، حين تسأل هيلينا: «ولِمَ لا تخلقون لها أرواحاً»؟

ويجيبها الدكتور جالا: «ليس هذا بوسعنا». وأما فابري فيضيف: «ولا هو من مصلحتنا». على حين أن بوسمان يقول: «سيؤدي هذا إلى زيادة تكاليف الإنتاج»(٧). ونلاحظ التركيز على الآثار السلبية للبطالة في المجتمع، وذلك على لسان هيلينا الرافضة للإنسان الآلي: «وهم لذلك يلقون بالعمال على أرصفة الشوارع»(٨).

ولا ريب أن السبب يعود إلى طبيعة النظام الصناعي في أوربا القائم على السعي خلف المال، والمتجاهل للمشاعر الإنسانية النبيلة. وهكذا تمثل أوربا مصدر الشر في سعيها إلى الحرب: «لقد ارتكبوا جريمة تحويل العمل الحي إلى جنود»(٩).

صحيح أن الناس الآليين يتغلبون على العاديين بقيادة الإنسان الآلي راديوس، وأننا نجد أن البشر قد ماتوا جميعاً، ولم يبق هناك إلا أليكست الذي طلب إلى الناس الآليين البحث عن الإنسان بلا جدوى، وذلك لإعطاء الإنسان الآلي سر التكاثر. بيد أن النهاية كانت متفائلة نوعاً ما، إذ أحبّت الإنسانة الآلية هيلينا الإنسان الآلي بريموس، لينتصر الحب أخيراً. وكأن الكاتب أراد أن يشير إلى ضرورة العودة إلى الإنسان ولو تعرض للهزيمة، لأن الانتصار الإنساني حتمي. ولكن، وعلى الرغم من أنه أنهى مسرحيته نهاية طالبت بها مدرسة الواقعية الاشتراكية المتفائلة إلى درجة خروجها عن معطيات الواقع المعيشي، فإننا نلمح عنصراً تشاؤمياً واضحاً في النهاية، وكأن المؤلف أراد القول: انتبهوا معشر الناس فإنكم معرضون للفناء والدمار إن غاب عنكم الحب وأكلتكم الآلة.



الإنسان والآلة: صراع أم تكامل؟!

صراع المال والحب

وأما الكاتب الفرنسي مارسيل إيميه Marcel Ayme (١٩٠٢ - ١٩٦٧م) فقد تعرض في مسرحيته «الذبابة الزرقاء» LA MOUCHE BLEUE لمسألة جوهرية متنبهاً إلى أن للمال آثاراً هدامة وخطيرة في العلاقات الإنسانية، لما قد يساهم فيه من تدمير

كل ما هو عزيز عند الإنسان، حتى يصبح هذا الأخير شيئًا أو آلة ينبغي له العمل ليكسب ويحيا، على حساب السعادة والمشاعر البشرية النبيلة. وينتصر المال على الحب بين جيمس دي وباربارا في هذه المسرحية.

ويركز إيميه هنا على قضية جوهرية هي أن تجريد الإنسان من إنسانيته ينتصر لمصلحة الوهم والمظاهر الخداعة، وبدلا من أن يكون المال وسيلة يصبح هدف الإنسان الجشع في بحثه عن اللذة الوهمية، ويزيده هذا الأمر قلقًا وألمًا عظيمين؛ ذلك أنه يأمل أبدًا في امتلاك ما هو عزيز عليه. ويبدو المخلوق البشري في مثل هذه المجتمعات الصناعية منقادًا إلى أوامر الآلة، عوضًا من أن يقودها هو. ويتعلق مصيره من الآن فصاعدًا بالآلات التي تستعبده، وليس على المرء إلا الطاعة في ظل شروط حياتية صعبة. ومكبرات صوت مسجلة في مصنع هي التي توجه العمال وترشدهم في معمل الأفكار الجديدة: «إنها تمام الثانية عشرة وتسع وعشرين دقيقة، وتسع وعشرين ثانية ظهرًا. تنفسوا الصعداء. لا تفكروا. لا تفكروا. لا تفكروا»(١٠).

ولعل السبب في طاعة الإنسان للآلة بشكل كامل أنه يخشى في هذه المجتمعات من البطالة. لذلك أخذ جيمس في مسرحية «الذبابة الزرقاء» LA MOUCHE BLEUE يتخيل غضب زوجه إن طرد من عمله في يوم من الأيام؛ ذلك أنها عُرفت بنزواتها الطائشة والكثيرة معًا. وما عليه، والحالة هذه، إلا أن يشكو همومه لأصدقائه، ومن هؤلاء مساعدته باربارا: «ليس لديك مسؤولية إعالة عائلة وأولاد. فأنا، حين أفكر في هيئة زوجتي إذا طردت من العمل، أشعر بماء بارد يسيل فوق ظهري»(١١).

ومن المرجح أن يكون إيميه في مسرحية «الذبابة الزرقاء» LA MOUCHE BLEUE قد لخص فكرته المتشائمة التي هي خلاصة حياة غربية تديرها الآلة وتتحكم بمصير أفرادها قوى غير عاقلة تسيطر منذ الآن على المجتمعات، طاحنة في الوقت نفسه المشاعر الإنسانية النبيلة التي هي

> مسرحية «الإنسان الآلي» لتشابك تحذر من أن التطور التقني قد يكون مدمرًا إذا تم «تشييء» الإنسان

وحدها يمكنها تمييز الكائن البشري من بقية المخلوقات على سطح البسيطة.

وهكذا انطلق إيميه من الحب ليصل إلى المعضلة الحقيقية التي تقع على الفرد الغربي مسؤولية مواجهتها اليوم، في ظل تَحَكُّم الآلة به واستعبادها له. ويصل إلى نتيجة فحواها أن الحب عاجز عن تحقيق الانتصار هنا؛ لأنه نسبي وخاضع لمؤثرات أخرى تفسده من دون أن يستطيع المقاومة. والحق أن الكاتب وجّه نقده صراحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يعيش الناس حياة مملة لا معنى لها، لتحكّم الآلة بمصير الناس من سعادة وشقاء، خانقة بذلك الأحاسيس الإنسانية كلها، وينهك العمل الإنسان الذي يستسلم لهذه الظروف الحياتية السيئة على حساب سعادته. وقد جسّد جيمس دي في مسرحية الذبابة الزرقاء LA MOUCHE CBLEUE الإنسان الغربي الأمريكي دائب السعي بحثًا عن الاستمرار في العمل ومقاومة البطالة، لأنه إن لم يجد أفكارًا جيدة في معمل الأفكار المسمى (لاكرويل) فسيخسر عمله. ومع ذلك، فإن حبه لساعدته باربارا هود، يبدو عاجزًا عن الوصول إلى مخرج إيجابي بسبب ظروف العمل القاسية والمقلقة: إذ إنهما يتسابقان والزمن دائمًا. والنتيجة أن طبيعتهما الإنسانية تتحول إلى شيء يشبه الآلة، ومن ثم يصبحان عاجزين عن التفكير في السعادة الحقيقية. ولعل هذا المشهد بين هذين المحبين يمكنه أن يشرح ما ذكرناه:

«باربارا: جيمس، تستطيع ابتلاعي. أحب الإحساس بأنك تبتلعني.

جيمس: لكن بينما أبتلعك، ماذا سيحصل للعمل، ياباربارا؟»(١٢).

وتتعمق المأساة حين يدخل الحب في صراع العمل وظروفه التي جعلتها الآلات شديدة القسوة، فنتج من ذلك معضلة مؤلمة. ذلك أن المخلوق البشري لم ينس قط أنه حكم عليه بالعمل فقط، وقيمته تنبع من كونه منتجًا (أو شيئًا) وليس إنسانًا مكونًا من مشاعر وعواطف مختلفة. وها هو ذا جيمس يقول بعد محاولته تقبيل باربارا في مكتبه: «هيا، كنت سأرتكب حماقة. وفي مثل سني، ينبغي لي مع ذلك أن أعلم أن العمل والحب شيئان

متعارضان. وأن فتاة جميلة تشغل ذهني ما ساعدت قط على زيادة الإنتاج..(١٣).

ولا شك أن إيميه مدرك هذه المشكلة التي يعيشها الغربي الأمريكي، لأنه فسر هذا الموقف المسرحي هنا للصحفي أندريه بارينو في مقابلة نشرت في صحيفة ART: «فإذا كان جيمس يريد الاحتفاظ بعمله، يجب عليه أن يحافظ على زيادة الإنتاج. ولن يترك له هذا الأمر وقتاً لمداعبة امرأة والتغزل بها. أما هي (باربارا) فتريد أن تكون محبوبة، لكنها أنثى أمريكية»(١٤).

ولعل هذه الفكرة لإيميه قد تشرح نهاية المسرحية حيث رئيس معمل الأفكار ينجح في إقناع جيمس بالعودة إلى العمل كسابق عهده، ولكن براتب شهري جد مرتفع، فحزنت باربارا، لعجزها عن إقناعه بأن السعادة لا يمكن تحقيقها في هذا المصنع المعتمد بشكل تام على نظام عمل قاس لا يقيم وزناً للمشاعر والأحاسيس الإنسانية، ذلك أنها تحلم في أن تحيا حياة سعيدة بصحبة جيمس بعيداً عن معمل الأفكار الذي سبب لها ولجيمس أشد أنواع المعاناة إيلاماً. وقد وبخت جيمس معلنة سخطها عليه، لتفضيله المال على حبه وسعادته. بيد أن مدير المعمل الذي يفكر بمنطق الآلة تضايق منها وأجابها بكلمات فيها غير قليل من معاني السخرية:

«لماذا تريدين من رجل أن يصبح سعيداً؟ فالسعادة شغل النساء. أما سعادة جيمس فهي كسب الأموال»(١٥).

ويبدو لنا أن جواب هذا المدير يعكس موقفاً عاماً، وليس موقفاً فردياً محدداً، إذ إن الغربي اليوم مضطر، للأسف، إلى التفكير بمنطق المال، ومنطق المال هذا مستند إلى منطق أعلى: إنه منطق الآلة بكل ما يرتبط به من قوانين وأنظمة صارمة ومرتبطة بنظام العمل. والحق أن هذه الأنظمة هي التي فرضت نفسها على المنطق الإنساني؛ فبدلاً من أن تكون المادة هي وسيلة تصبح غاية. وتصبح المشاعر والأحاسيس الإنسانية ضحية انقلاب



ديكنز

مفاجئ للموازين والقيم، وليس على الإنسان، في ظل هذه الظروف، إلا الاستسلام إلى قوى قاهرة لا يمكن مقاومتها.

الخوف من المستقبل

يتضح مما سبق أن هؤلاء الكتّاب الذين تناولوا جميعاً هذه القضية أي: تشارلز ديكنز CH. DICKENS، وكذلك الكاتب التشيكي كارل تشابك في مسرحية الإنسان الآلي، وأخيراً الكاتب الفرنسي مارسيل إيميه يشعرون بعمق المأساة، ويعكسون خوف الإنسان الغربي من المستقبل الذي لن يكون حاملاً للمفاجآت السعيدة، على عكس ما ينتظره وفقاً للتقدم العلمي الكبير. وقد رأينا أن كل واحد منهم أخذ يعالج المشكلة بطريقة مختلفة، ولكنهم يبقون متفقين على أن الإنسان هو الخاسر الوحيد في معركة المستقبل التي فرضتها عليه ظروف النظام الآلي في المجتمع. والحق أنه تنبه إلى هذه المشكلة أكثر من مفكر من مفكري الغرب الذين عاشوا مأساة تغير القيم وحصار الإنسان والمشكلات المترتبة على ذلك كله، معلنين صراحة عن مستقبل حالك يبشر بتشاؤم عميق. ولعل كولن ولسن في كتابيه «اللامنتمي»، و«ما بعد اللامنتمي» قد عبر بوضوح عن إحساس مفكر مدرك أبعاد مشكلة قريبة منه، لأنها أضحت أزمة حقيقية يعيشها الإنسان الغربي بسبب تهميش دور الإنسان، أو تشييئه. وقد عبر كذلك المفكر والناقد الاجتماعي الأمريكي إريك فروم في كتابه «الإنسان بين الجوهر والمظهر»، عن إحساسه بوصفه غربياً يعيش هذه الأزمة، فقد كتب موضحاً هذه النظرة التشاؤمية للحياة الغربية: «الوعد العظيم بالتقدم غير المحدود - وعد السيطرة على الطبيعة، والوفرة المادية، والسعادة القصوى للأغلبية العظمى (...) هذا الوعد كان محط الآمال ومنبع الإيمان للأجيال منذ بدأ الجنس البشري سيطرته الفعالة على الطبيعة. غير أن هذه السيطرة ظلت محدودة إلى أن جاء العصر الصناعي. وبإحلال الطاقة الميكانيكية ثم الطاقة النووية محل طاقة الحيوان والإنسان، إلى إحلال الحاسبات الإلكترونية محل المخ

البشري، شعرنا بأننا بسبيلنا إلى الإنتاج غير المحدود، ومن ثم إلى الاستهلاك غير المحدود كأننا قادرون على كل شيء(...). فالحق أن العصر الصناعي أخفق في الوفاء بوعده العظيم(...) لقد أصبح الإنسان كائنًا أعلى (سوبرمان)، ولكن هذا الإنسان الأعلى الذي يمتلك قوة تفوق قوة الإنسان، لم يرتفع إلى مستوى عقلاني أعلى، بل إنه ليزداد فقرًا بقدر ما يزداد قوة. وأحرى بضميرنا أن ينتابه القلق ونحن نشهد أنفسنا نزداد تجردًا من إنسانيتنا كلما ازددنا اقترابًا من حالة السوبرمان (الإنسان الآلي)»(١٦).

وقد رأينا أن الكاتبين تشابك وإيميه يهتمان بمعالجة طغيان الآلة على الإنسان واستعبادها له، إذ صورا تحكّم الآلة بالذات البشرية، مركزين على مدير المصنع وسلوكه الآلي، لأنه وليد ظروف اجتماعية خاصة فرضتها ظروف المجتمع الآلي. وقد لاحظنا أن النهاية مأسوية عند مارسيل إيميه؛ ذلك أن الآلة وقوانين العمل هي التي تهزم الإنسان على حساب العواطف الإنسانية، على حين أن النهاية عند تشابك يشوبها الغموض: صحيح أن

تجريد الإنسان من إنسانيته ينتصر لمصلحة الوهم والمظاهر الخداعة

الآلة منتصرة هنا، إلا أننا لسنا جانب الإنسان يظهر من خلال الحب في نهاية المسرحية. وكأن الكاتب التشيكي أراد القول إنه ينبغي أن نتفاءل بقدرة الإنسان على الانتصار إن تحلى بالقيم الإنسانية النبيلة؛ ولعله منطلق إلى هذه النظرة التفاؤلية بتأثير الواقعية الاشتراكية التي كانت سائدة في عصره. وأغلب الظن أن الشيء الذي ركز عليه تشابك كثيراً هو الصراع بين الآلة والإنسان؛ وأما إيميه فركز على الصراع الإنساني: بين متطلبات الحياة ومشاعره. أو بين ظروف حياته ومشاعره. وكان متشائمًا في نظرته المستقبلية إلى الإنسان؛ إذ انتصرت الآلة على المشاعر الإنسانية. ولكنه، في رأينا، أكثر واقعية من تشابك الذي أنهى المسرحية نهاية لا تنسجم والحبكة المسرحية التي كانت من البداية إلى النهاية في تشاؤم متصاعد؛ إذ بدت الخاتمة المتفائلة حلاً غير مقنع للطروحات التي انطلق منها الكاتب التشيكي وصولاً إلى الفكرة العامة للمسرحية.

ومهما يكن من أمر، فإننا نعتقد أن الحياة في البلدان الصناعية الكبرى ليست مرتع السعادة والرفاهية (كما يتخيل بعضهم)، وإنما هي ضرب من ضروب الشقاء والألم لما سببته هذه الظروف السيئة من آلام حادة مازلنا نجد آثارها تكبر رويداً رويداً، جاعلة الإنسان العادي إنسانًا آليًا. ذلك أن شروط العمل الآلي القائم على الربح المادي فقط قد قضت على كل أمل في انتصار عالم الروح. ونحمد الله أننا في مجتمعنا العربي الإسلامي مازلنا نعطي الأولوية للإنسان الروح وليس للإنسان المادة، وذلك بفضل تمسكنا بقيمنا الروحية الدينية والأخلاقية التي ساهم الإسلام في غرسها في نفوسنا والتي تبقينا حذرين، ومعادين لكل تهميش لدور الإنسان في الحياة، لأنه من الضروري لنا عدم التخلي عن الإنسان كمنظِّر ومسيِّر لحياته، لأنه المسؤول عنها أولاً وأخيراً.

المراجع

١ - انظر ١-- SYLVERE MONODO: HISTOIRE DE LA LITTERATURE LIBRAIRIE ARMAND COLIN PARIS 1970, PP39 - 44 ANGLAISE.

٢ - د. حسام الخطيب: محاضرات في تطور الأدب الأوربي، جامعة دمشق ١٩٨١ - ١٩٨٢م، ص٢٥٦.

٣ - جورج ونج (ترجمة فريدة النقاش): ديكنز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠م، ص٩٠.

٤ - كارل تشابك (ترجمة حسين العامل): الإنسان الآلي، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨١م، ص٢٣.

٥ - المصدر نفسه، ص٣٧.

٦- المصدر نفسه، ص٣٩.

٧- المصدر نفسه، ص٤٠.

٨- المصدر نفسه، ص٤١.

٩- المصدر نفسه، ص٩٧.

10 - M. AYME: LA MOUCHE BLEUE, GALLIMARD, 1957, P.37.

١١- المصدر نفسه (P.P.17 - 18).

١٢- المصدر نفسه (P.58).

١٣- المصدر نفسه(P.157).

14 - M. AYME: (INTERVIEWE PAR ANDRE PARINAUD). "L'AMERIQUE A PEUR DE L'AMOUR" ART, 28 AOUT 1957,P1.

15 - M.AYME: LA MOUCHE BLEUE, P.252.

١٦- إريك فروم (ترجمة سعد زهران): الإنسان بين الجوهر والمظهر، عالم المعرفة ١٤٠، آب/أغسطس ١٩٨٩م، ص١٩ - ٢٠ - ٢١.

جماليات اللغة العربية على مستوى الحروف والأصوات

باسمة العسلي

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. **يوسف:٢**

اختار الله تعالى اللغة العربية مظهرًا لوحيه، وجعلها بيانًا لتشريعه. فكان أن تحلّى كل منهما بالصبغة الربّانية، وصلُحا للحياة على مدى الأيام بما فيهما من ثوابت من جهة، وقدرة ومرونة للتطور من جهة أخرى. ولهذا يقول مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - : «إن هذه العربية بُنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالدًا عليها، فلا تهرم ولا تموت، لأنها أعدت من الأزل فلكًا دائرًا للنيّرين الأرضيّين العظيمين كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثمّ كانت فيهما قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخْذَة السحر، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع»(١).

وإذا كان الحب دافعًا مؤثرًا وعامل ترغيب في تعلم اللغة العربية، فإن الإحساس بواجب تعلمها ومسؤولية فرضيتها عامل آخر لا يقل في أهميته عن الحب. قال ابن تيمية: «فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب»(٢).

وفقه اللغة بعد ذلك يرتبط بالفقه الحضاري أيما ارتباط، يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «إن وحدة الأمة لا تتم إلا بوحدة اللغة، ولا لغة تجمع المسلمين وتربطهم إلا لغة الدين الذي جعلهم بنعمة الله إخوانًا. ولهذا كان يجتهد مسلمو العجم في خدمة هذه اللغة، كما يجتهد مسلمو العرب بلا فرق ويعدّونها لغتهم، لأنها لغة القرآن التي تقوم بها حجته، وهم من أمة القرآن كالعرب بلا فرق»(٣).



مصطفى صادق الرافعي

بذا تلتحم اللغة بذاتية الأمة، تعلو بعلوها، وتسمو بعزّتها، فكان من جرّاء ذلك أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التعلم بغير العربية لغير ضرورة. روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يحسن أن يتكلم بالعربية، فلا يتكلم بالعجمية، فإنه يورث النفاق»(٤).

لقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته الاستعلاء، فلما استخذت تجلّى ذلها في خجلها بلغتها وتبعيتها للغة الغرب، وصدقت فيها مقولة ابن خلدون في «أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما

وفر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغَلَب طبيعي إنما هو الكمال الغالب، وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء(٥). وهو ما ترجمه الرافعي بلغة العصر:

«والشرق مبتلى بهذه العلة، وليس في العالم أمة عزيزة الجانب تقدِّم لغة غيرها على لغة نفسها، فاللغات تتنازع القومية، ولَهِيَ والله احتلال عقلي في الشعوب التي ضعفت عصبيتها، وإذا هانت اللغة القومية على أهلها أثَّرَت اللغة

تمتاز اللغة العربية بحسن توزع أصوات حروفها توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن بين الأصوات

الأجنبية في الخُلق القومي. أما إذا قويت العصبية وعزّت اللغة، وثارت لها الحميّة، فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يُرتفق بها، ويرجع شبر الأجنبي شبراً لا متراً»(٦).

نحن اليوم أمام انحسار حضاري، وهذا الوهن والتراخي أمام لغة الأجنبي لا يرجعان إلى ضعف لغتنا العربية في خصائصها ومقوماتها، بل إلى روح التبعية والخنوع المبثوثة في هذه الأمة، ودليلنا على ذلك الظاهرة التاريخية لانتصار اللغة العربية على سائر اللغات الأخرى في البلاد التي فتحها الإسلام.

وكانت وما زالت دواعي انتصار اللغة العربية تبرز في عاملين مهمين:

أحدهما: يتعلق بصلة اللغة العربية بالقرآن الكريم، وحديث رسول الله، وباللغة العربية كتبت في العصور الإسلامية الأولى جميع المؤلفات في الإسلام، عقائده، وشرائعه، وباللغة العربية يؤدى كثير من شعائر هذا الدين وعباداته.

وثانيهما: الخصائص الذاتية للّغة العربية نفسها. فمن المقرر في علم اللغة أن تفوّق إحدى اللغتين المتصارعتين في خصائصها الذاتية على اللغة الأخرى عامل مهم من عوامل تغلّبها في الصراع اللغوي. فصراع اللغات أشبه شيء بصراع الأفراد، ويقابل القوى الجسمية والحيل الرياضية في الأفراد ما تمتاز به اللغة من غزارة في مفرداتها، ودقة في قواعدها، وسمو ومرونة في أساليبها، وثروة في آدابها وتراثها، وقدرة على الإبانة عن مختلف مناحي الفكر والوجدان»(٧).

ومسلم اليوم مطالب بالوعي السليم. هذا الوعي لا ينحصر في فهم اللغة وحسن التكلم بها والكتابة بأساليبها. «ولكن الوعي السليم في مجال اللغة - أن يفقه المرء طبيعة لغته وحقائق خصائصها، ويتخذ - بعد ذلك - من مشكلاتها موقفاً واعياً مبصراً ينسجم مع وعيه لجميع جوانب حياته الروحية والسياسية والقومية والفكرية»(٨).

فلنمضِ قدماً نبحث في خصائص العربية مستدلين بنوع من القيافة اللغوية على طبيعة هذه الأمة التي أنتجت هذه اللغة، كما يستدل صاحب القيافة النظرية من الأثر في الطريق على مذهب صاحبه، فماذا ترانا سنجد؟

أصوات اللغة العربية

عرّف علماؤنا الأوائل اللغة بأنها: «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»(٩). وكان للدافع الإيماني وحب القرآن تلاوةً وتجويداً وحفظاً دور كبير في دراستهم المادة اللغوية الصوتية، فمن علم تجويد القرآن ظهرت الدراسة لكل حرف صفة ومخرجاً وحركة، وعُرف لكل حرف إيحاؤه، دلالة ومعنى.

وإذا كانت الدراسات المعاصرة تنحو إلى جعل الكلمة الوحدة الأساسية التي تتكون منها اللغة، إذ تقابل المفهوم في ميدان التفكير، فإن الاعتراف قائم بأن الحرف هو: «العنصر الذي يدخل في تركيب الوحدة الحية المستقلة التي هي الكلمة، وباختلاف تركيب الحروف تختلف الكلمات»(١٠).

وتتميّز العربية في حروفها وأصواتها بما يلي:

- أنها واسعة الأفق كاملة في مدرجاتها الصوتية.
- حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج.
- متميزة المخارج والصفات.
- ثابتة الأصوات عبر القرون يتوارثها جيل بعد جيل.
- متنوعة الوظائف: ففي بنية

الكلمة لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى وتثبيت أصله.

- القيمة التعبيرية للحروف في اللغة العربية.

- التناسب بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة(١١).

وللتفسير نقول: أولاً: إنها واسعة الأفق كاملة في مدرجاتها الصوتية:

إن أول ما يبدو من صفات الحروف العربية توزعها في أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات؛ ذلك أن الحروف العربية تتدرج وتتوزع في مخارجها ما بين الشفتين من جهة وأقصى الحلق من جهة أخرى. فقد تجد في لغات أخرى غير العربية حروفًا أكثر عدداً، ولكن مخارجها محصورة في نطاق أضيق وفي مدرج أقصر، قد نجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين وما والاهما من الفم أو الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنّة، أو تجدها متزاحمة في جهة الحلق، وفي كلا الحالين، ضيق في الأفق الصوتي، واختلال في الميزان الصوتي، وفقدانٌ لحسن الانسجام بسبب نشوء وتوزيع الحروف(١٢).

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «ليست الأبجدية العربية أوفر عدداً من الأبجديات في اللغات الهندية الجرمانية، أو اللغات الطورانية، أو اللغات السامية. فإن اللغة الروسية - مثلاً - يبلغ عدد حروفها خمسة وثلاثين حرفًا، وقد تزيد ببعض الحروف المستعارة من الأعلام الأجنبية عنها. ولكنها على هذه الزيادة في حروفها لا تبلغ مبلغ اللغة العربية في الوفاء بالمخارج الصوتية على تقسيماتها الصوتية، لأن كثيراً من هذه الحروف الزائدة هو حركات مختلفة لحرف واحد، أو هو حرف واحد من مخرج صوتي واحد تتغير قوّة الضغط عليه، كما تتغير قوة الضغط في الآلات، دون أن يستدعي ذلك افتنانًا في تخريج الصوت الناطق من الأجهزة الصوتية في الإنسان. كما تمتاز اللغة العربية بحروف لا توجد في اللغات الأخرى كالضاد والظاء والعين. وعلى هذه الصورة استغنت عن تمثيل الحرف الواحد بحرفين مشتبكين أو متلاصقين. كما يكتبون الثاء والذال والشين في بعض اللغات TH. TH. SH. CH»(١٣).

وهكذا يقابل كلَّ حرف في اللغة العربية صوتٌ لا يتغيّر باختلاف موقعه من الكلمة، بينما نرى أحرف الهجاء في كثير من اللغات لا تمثل جميع الأصوات في اللغة. فالإنجليزية مثلاً تتألف من أربعين صوتًا، ولكن حروف هجائها ستة وعشرون حرفًا(١٤).

وتكون اللغة العربية: «اللغة التامة الحروف الكاملة الألفاظ، إذ لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينها نقصانه، ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته»(١٥).

إن هذه الخصيصة التي جعلت الأبجدية العربية قادرة على استغراق معظم مخارج الصوت مكّنت العربي أن ينطق بكل لغة كأهلها. أما الأجنبي فيتعذّر عليه النطق بالعربية على الوجه الصحيح(١٦).

وتبرز المشكلة اليوم في امتهان علم التجويد في المدارس ضمن العملية التعليمية - التعلّمية، مع ما يؤدي ذلك إلى ضعف أبناء المسلمين كمرحلة أولى في إخراج الحروف من مخارجها على النحو السليم؛ ولا مجال لترميم هذه الخطوات المتعثرة إلا بإعادة تدريس مادة التجويد، ومنذ المراحل الابتدائية. هذا إذا كانت المدارس تقع تحت رعاية الدولة -



عباس محمود العقاد

فضلاً عن بعض المدارس التي تعاني أصلاً من ضعف أساتذتها في اللغة العربية، ونلحظ تمحّلهم بلفظ الحروف العربية، كالأجنبية، فتخرج القاف كافًا أو همزة، وتكثر التشوهات في النظام الصوتي للعربية التي هي في طبيعتها لغة صوتية هجائية. المطلوب التعامل مع اللغة العربية بوصفها لغة لها خصائصها وطبيعتها المتميزة من مثيلاتها من اللغات. ولا يمكن القفز من فوق حدودها، إذا أريد التجول بحريّة في أراضيها.

ثانيًا: إنها حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج:

تمتاز اللغة العربية بحسن توزع أصوات حروفها توزعًا عادلاً يؤدي إلى التوازن بين الأصوات. أضف إلى هذا أن العرب يراعون في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقى. قال ابن جني في الخصائص: «أما إهمال ما أهمل مما تحتمله قسمة التركيب في بعض الأصول، فأكثره متروك للاستثقال، وبقيته ملحقة به ومقفاة على أثره، فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه نحو: سص، وصس،وتط، وفش، وثص لنفور الحسّ عنه والمشقة على النفس لتكلفه»(١٧).

إن هذا الانسجام هو الذي دفع بالمستشرقة الألمانية آنا ماري شيمل إلى القول: واللغة العربية لغة موسيقية للغاية، ولا أستطيع أن أقول إلا أنها لابدّ أن تكون لغة الجنة(١٨).

ثالثًا: حروف اللغة العربية متميزة المخارج والصفات:

إن دراسة علمائنا للأصوات العربية لا يضاهيها في العمق والدقة والاستقصاء جميع الدراسات التي يقوم بها اللغويون الآن فيما يسمونه «علم الأصوات اللغوية» مما يؤكد أن حروفنا العربية محفوظة الأصول معروفة الأنساب.

وما برح علماء الأصوات العصريون يبحثون الأحرف المستعملة في كل لغة بحثًا مرددًا بين أفقين، أحدهما حركي عضوي، والآخر تنفسي صوتي، فلا يخرجون في كلا الأفقين عن المنهج الثنائي الذي رسمه علماء التجويد حركيًا عضويًا في المخارج، تنفسيًا صوتيًا في الصفات(١٩).

وتتوزع حروف العربية على سبعة عشر مخرجًا، تتباين مواقعها من جهاز النطق بين الجوف والحلق واللهاة وشَجْر الفم(٢٠) وذلْق اللسان وهو طرفه، وسقف الحنك الأعلى وأسَلَة اللسان، وهو ما دقّ منه، واللثة والشفة والخيشوم.



أنا ماري شيمل

أما صفات الحروف فيجمعها لقبان: المصمَتة والمذلقة؛ فالمذلقة ستة أحرف: ب، ر، ف، ل، م، ن. وهي أخف الحروف وأسهلها وأكثرها امتزاجًا بغيرها لسرعة النطق بها. «ولذلك كان لابدّ في كلّ كلمة على أربعة أحرف أو خمسة أن يكون فيها مع الحروف المصمَتة حرف من الحروف المذلقة لتعادل خفة المذلق ثقل المصمت(٢١).

رابعًا: ثبات الأصوات في العربية(٢٢):

إن الدارس لأصوات هذه اللغة يذهل أمام هذه الخصيصة للغتنا الحبيبة ألا وهي احتفاظها بأنسابها اللغوية، والسبب في ذلك: القرآن الكريم: كتاب العربية الخالد المتعبَّد بتلاوته في كل حرف وصوت من حروفه، يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٢٣)، ولقد قال الحق سبحانه وقوله الحق: *إنَّا نحن نزّلنا الذكْرَ وإنَّا لَهُ لحَافظون*. **الحجر:٩**.

إنها كلمة كونية وعد الله بها حفظ كتابه وشريعته، وليحفظ كتابه بقيت الأصوات العربية على ما هي عليه من ثبات، ولولا ذلك لتبدلت الأصوات واستحال على المسلم قراءة كتابه.

إن هذه الظاهرة مغايرة لقانون لغات العالم كافة. ذلك هو قانون التبدل الصوتي الذي ينص على «أن النظام الصوتي بعيد كل البعد من أن يكون ثابتًا طوال تطور لغة من اللغات»(٢٤). وعلماء اللغة استنتجوا هذا القانون من لغاتهم في أوروبا، وهي كثيرة التبدل خلال العصور، حتى ليعجز الباحث اللغوي عن تعليل اختفاء صوت الهاء المنفّسة "h" ASPIRE في اللغة الفرنسية فضلاً عن اختفاء الهاء الساكنة "h" MUET في مثل: عشب HERBE، رَجُلْ HOMME، بومة

HIBOU، ولا يستطيع تعليل هذا المسخ الصوتي الشنيع إلا أنه ضرب من التحول الداخلي الذي يتناول مادة اللغة وأصواتها ذاتها بسبب الانتقال من جيل إلى آخر.

هذا القانون لا ينطبق على لغتنا بكفالة ربّ العالمين، لذلك تراني لا أخشى من كل الدعوات الشعوبية لتغيير الأصوات، أو الخط العربي، أو اعتماد العامية بديلاً للفصحى، فليمكروا ما شاؤوا، فإنّ لهذا القرآن ربّاً يحميه.

حروف العربية متنوعة المراتب، مختلفة من حيث مكانتها في تركيب الكلم، ومن حيث درجة ثباتها

- طبيعة العرب في أصل فطرتهم من ميل إلى المحافظة على ما لا موجب لتغييره في حياتهم، وعلى ما يعتزون بالمحافظة عليه كحفظهم لأنسابهم ومكارمهم(٢٥).

- طبيعة اللغة العربية من حيث سعة مدرج العربية الصوتي، فإن أحرف الهجاء العربي تشتمل على جميع الأصوات الإنسانية وخارجها، حتى (P.V) وهما الحرفان اللذان لا ننطق بهما يوشكان أن يكونا من صميم لغتنا، لأن مخرجي الباء والفاء يغنيان عنهما، أو يعوضانهما عند الحاجة إليهما(٢٦).

خامسًا: حروف العربية متنوعة الوظائف:

حروف العربية متنوعة المراتب، مختلفة من حيث مكانتها في تركيب الكلم، ومن حيث درجة ثباتها. فالحروف الصائتة - وهي كل الحروف ما عدا حروف المدّ - أثبت وأقوى الحروف، فمنها تتكون حروف الكلمة الأصلية.

أما حروف المدّ فهي أضعف وأقل ثباتًا في الكلمة وبتغييرها يتنوع المعنى الواحد والأصل الواحد، وتلك هي وظيفتها الفكرية أو المعنوية. مثال ذلك: صابر، صبور. عالم، عليم.

ودون المدود في المرتبة الحركات، ولها وظيفتان: الأولى، أنها تساهم كالمدود في تنويع المعنى مع ثبات أصله: مثل علَم، علِم، عِلْم.

والوظيفة الثانية: الوظيفة النحوية حين تستعمل في أواخر الكلمات، فتدل على وظيفتها في الجملة، وعلى صلة الكلمات بعضها ببعض.

من أجل هذا حرص العرب في رسم لغتهم على كتابة الأحرف الصائتة أكثر من حرصهم على كتابة حروف المدود. وكان حرصهم على حروف المد كتابة أكثر من حرصهم على الحركات، لأنها دونها كذلك في المرتبة، بل إننا نجد أن الحركات لا تكتب إلا عند الالتباس.

ومن هنا يتبيّن أن بين طريقة الكتابة في اللغة العربية وخصائصها تناسباً، وأن الدعوة إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية أي بتثبيت جميع الأصوات من مدود وحركات وحروف صائتة تنطوي على غفلة شديدة عن خصائص الحروف العربية ومراتبها(٢٧).

وها هو ذا المستشرق الإيطالي نللينو، على الرغم من عداوته للإسلام وكتابته ضده، يعترف بالقول: إن الخط العربي موافق لطبيعة اللغة العربية، ولو أردنا استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتحتم علينا إيجاد حروف جديدة نضيفها إلى الأبجدية اللاتينية الحالية، لكي تعبر عن الأصوات العربية التي تمثلها حروف: ج، ح، خ، ط، ظ، ص، ض، ع، غ، ولاحتجنا كذلك إلى التمييز بين الحروف المتحركة الممدودة، وبين الحروف المقصورة(٢٨).

إن موازنة بسيطة بين لغتنا واللغات اللاتينية تظهر بوضوح سمتين:

الأولى: الهجائية، وبفضلها لا نكتب من الحروف في العربية إلا ما نحتاج إليه فنتلفظ به، بينما نكتب مثلاً علامة الجمع في اللغة الفرنسية ولا نلفظها، ونكتب في الإنجليزية حروفًا لا يمرّ اللسان عليها في النطق، كما في كلمة "RIGHT".

الثانية: الإيجاز في الكتابة العربية باستعمال الحركة فوق الحرف أو تحته مما يوفر الكثير من حجم الكتابة، أما في اللغات اللاتينية فإن الحركة تأخذ حجم حرف أو أكثر من الحروف الصوتية VOWELS(٢٩). ولاحظ الفرق في عدد الحروف بين

كلمة مثل: أنلزمكموها مع المثيل الإنجليزي: ANOULZEMKOU-MOUHA، ألا يحق لنا بعد ذلك تأكيد سمة الاختزال في خط العربية.

سادساً: الوظيفة البيانية والقيمة التعبيرية للحروف في اللغة العربية:

لاحظ اللغوي ابن جني في اللغة العربية خصيصة لافتة للنظر، أوردها في عدد من الفصول من كتابه «الخصائص»، ومن ذلك فصل بعنوان: «في تصاقب الألفاظ

التقابل بين جرس الحروف ومعاني الكلام في اللغة العربية يتجلى في أكمل أشكاله في كتاب الله

لتصاقب المعاني»(٣٠)، وفصل آخر بعنوان: «في إمساس الألفاظ أشباه المعاني». والفكرة تقول بالتقابل بين أصوات الألفاظ، وما تدل عليه من المعاني. فمن ذلك أنه يرى:

- أن تكرار الحروف في اللفظ يقابل تكرار الحدث، أو الفعل في الواقع، كما في زلزل وجرجر.
- أن تكرير العين في بناء الفعل «وهي أقوى حروفه» يقابل تكرير الفعل نفسه، كما في كسّر وغلّق.

ويرى ابن جني أن ما سبق لم يقع في هذه اللغة الشريفة مصادفة، وإنما هو أمر مقصود دلّت عليه حكمة العرب التي شهدت بها العقول(٣١).

سابعًا: تناسب بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة:

يجد الباحث في العربية، كما في غيرها من اللغات، نماذج صريحة - وإن تك قليلة - لألفاظ إنسانية اتضحت دلالتها التعبيرية الذاتية، وبلغت من الوضوح أن كانت لأصوات الطبيعة أشبه برجع الصدى أو ترداد النغم.

- فمن الكلمات الدالة على أصوات الإنسان: القهقهة، الدندنة، الصراخ، التأوه، الاصطكاك.
- ومن الكلمات الدالة على أصوات الحيوان: الصهيل، النهيق، الخُوار، الثُّغاء، الزئير.
- ومن الكلمات الدالة على أصوات الأشياء: الخرير، الأزيز، الجعجعة، الصرير.
- ومن الكلمات الدالة على الأفعال: القطع والقطف والقضم(٣٢).

إن التقابل بين جرس الحروف ومعاني الكلام يتجلى في أكمل أشكاله في كتاب الله، واقرأ إن شئت: كَلا *إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى*. **المعارج ١٥-١٧**. *وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ*. **التكوير: ١٧-١٨**.

مزايا العربية في حروفها وأصواتها تملأ جوانح المرء غبطة، وتشدّنا إلى أمر جامع مانع، إنه ذلك التشابه بين خصائص العربية التي اختارها اللّه لغة كتابه، والشريعة التي ارتضى لعباده. ونستقرئ نقاط التشابه فنجد:

- **الشمولية:** إذ تشمل أحرف الهجاء العربي جميع الأصوات الإنسانية ومخارجها، فلا إفراط ولا تفريط. ولا تكاثر للأصوات في جانب الشفتين والفم والخيشوم، ولا تزاحم في جانب الحلق. بل هي شاملة في مخارجها لكل الجهاز الصوتي للإنسان.
- **التوازن والانسجام:** فتتوزع الأصوات توزعًا عادلاً في تركيب الكلمة الواحدة. بحيث تنساب الحروف بتآلف تام يَعْذُب في أذن المستمع.
- **الواقعية:** وتتبدّى في استجابتها الواقعية لقدرة الإنسان على نطق الأصوات. فما استثقل جمعه بين الحروف صار متروكاً مهملاً، وما شملت فيه الكلمة أربعة أو خمسة حروف، فلابد فيها من حرف من الحروف المذلقة التي تتّسم بخفتها وسهولتها، وسرعة النطق بها.
- **الثبات:** وهي تبرز في ثبات أصوات العربية التي لم ولن تتغير مما يشكل أسسًا قوية وصلبة لمقومات أبنية اللغة.
- **المرونة:** إذا كان الثبات سمة أصوات العربية، فإن المرونة سمة أخرى تقابلها وتسير معها بخط مواز، وتتضح في أمرين:

الأول: خاصية حركات الإعراب، التي تجيز التقديم والتأخير لألفاظ الجملة.

«فتظهر طواعية اللغة للناظم والشاعر، وطواعية الألفاظ للحالات

النفسية التي تستدعي في كثير من الأحيان نظاماً خاصاً لا تساعد عليه اللغة ذات الحجرات الثابتة(٣٣).

وانظر لذلك مثالاً تقديم «إيَّاكَ» في قوله تعالى: *إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ*. **الفاتحة:**٥. وما تحمله من معانٍ، وهي: إفادة الاختصاص والحصر وإفادة الأدب(٣٤).

الثاني: خاصية التوالد وإنتاج مفردات جديدة، وفق نظامي الأبنية والاشتقاقات، كما سيمر معنا لاحقًا.

- **الكمال:** وقد لاحظ العالم اللغوي إرنست رينان ERNEST REANAN أن اللغة العربية بدت فجأة على غاية الكمال، وأن هذا أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب تفسيره. وقد انتشرت هذه اللغة سلسة أية سلاسة، غنية أي غنىً، كاملة لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، إذ ظهرت أول مرة تامة مستحكمة(٣٥).

العالمية: ليست العربية مقتصرة على العرب، مع كونها مقدسة. بل إنها تدمغ ناطقها بسمتها، حتى لو لم يكن عربيَّ الأصل، وقد ورد في الحديث: «أيها الناس إن الربَّ واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان. فمن تكلم بالعربية فهو عربي»(٣٦).

وقال المصطفى عليه السلام: «سلمان منا أهل البيت»(٣٧).



إرنست رينان

فلا نشك أن سلمان رضي الله عنه صار بعد استعرابه من العرب، بل من خاصة العرب. فعالمية اللغة تتوافق مع عالمية الشريعة:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا. **الأعراف:**١٥٨.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا. **سبأ:**٢٨.

وتمنح المنقبة لكل الشعوب التي أسلمت وتعربت وقامت بنشر الإسلام، ورفع لوائه.

- **الوظائفية:** الجمال والمنفعة سمة بارزة في التصور الإسلامي لا يكاد يعزب عنها شيء، تجلّت في الكون هدية من منعم قدير مبدع جليل، وتلوّنت بها لغة العرب، فكان لكل حرف فيها، إلى جانب جمالية نطقه ونغمته، وظيفة خاصة فكرية ونحوية وتعبيرية(٣٨) وهو أمر قلّما احتفت لغة من لغات العالم به.

فطوبى لمن تكلم بها وأتقنها، وأحبّها، وتعلّمها، وعلّمها.

المراجع والهوامش

١ـ مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، ٣١.
٢ـ ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، ٢٠٧.
٣ـ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ١/٢٩ ـ ٣٠.
٤ـ ابن تيمية: مصدر سابق، ٢٠٥.
٥ـ ابن خلدون: المقدمة، الفصل الثالث والعشرون، ١٦٢.
٦ـ مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ٣/٣٨.
٧ـ علي عبدالواحد الوافي: وحدة اللغة في الوطن العربي، مجلة الأمة، العدد ٢٥، ص ٣٠ ـ ٣٢.
٨ـ مازن المبارك: نحو وعي لغوي، ٤٣ ـ ٤٤.
٩ـ ابن جني: الخصائص ١/٣١، ومجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط مادة: لغا.. اللغة.
١٠ـ محمد المبارك: خصائص العربية، ص١٦.
١١ـ محمد المبارك: مصدر سابق، ص٢٥.
١٢ـ محمد المبارك: مصدر سابق، ص١٦.
١٣ـ عباس محمود العقاد: اللغة الشاعرة، ص ٨ ـ ١٠.
١٤ـ نايف معروف: خصائص العربية، ٤٧.
١٥ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ١/١٤٨ ـ ١٤٩.
١٦ـ حبيب غزالة: خصائص اللغة العربية، ١٨.
١٧ـ محمد المبارك: خصائص العربية، ١٦ ـ ١٧.
١٨ـ نايف معروف: خصائص العربية، نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٤٤، ١/٤٦ سنة ١٩٦٩م، مقال: عارف النكدي.
١٩ـ صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، ٢٧٦ ـ ٢٧٧.
٢٠ـ شَجْر الفم: وهو ما بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى.
٢١ـ ابن دريد: مقدمة جمهرة العرب، ٧.
٢٢ـ لمزيدٍ من التفصيل راجع صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، ٢٨٥ ـ ٢٩١.
٢٣ـ رواه الترمذي عن عبدالله بن مسعود، وقال حديث حسن صحيح.
٢٤ـ صبحي الصالح: م. س، ٢٨٥ نقلاً عن LA LANGAGE (J. VENDRYES) P. 74.
٢٥ـ محمد المبارك: خصائص العربية: ١٨ ـ ١٩.
٢٦ـ صبحي الصالح: مصدر سابق ٢٨٥.
٢٧ـ محمد المبارك: خصائص العربية، ١٩ ـ ٢٢ بتصرف.
٢٨ـ عبدالرحمن حبنَّكَة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة: ٣١٩.
٢٩ـ مازن المبارك: نحو وعي لغوي: ٥٣ ـ ٥٤ بتصرف.
٣٠ـ الصَّقَب: القرب، أصقبت دارهم، وصقبت: قربت.
٣١ـ مازن المبارك، النصوص اللغوية: ٧٢.
٣٢ـ الوافي: فقه اللغة: ١٦٩ ـ ١٧٠.
٣٣ـ مازن المبارك: مصدر سابق، ٨٩.
٣٤ـ محمد رشيد رضا: تفسير المنار: ١/٦٢.
٣٥ـ نايف معروف: مصدر سابق، ٤٠. نقلاً عن مجلة العربي (الكويت) عدد كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٠م مقال د. محمد محمود الدش.
٣٦ـ رواه الحافظ ابن عساكر.
٣٧ـ رواه الطبراني والحاكم، عن عمرو بن عوف وهو صحيح.
٣٨ـ لفهم هذه الوظائف بمزيد من الإسهاب، انظر محمد المبارك: خصائص العربية، ١٩ ـ ٢٢.

المسميات الأجنبية تخترق الحياة العربية

أكرم محمود قنوص

كثيرةٌ هي المخترعات التي دخلت حياتنا، ولكنها لما تدخل لغتنا؛ فما زلنا نسميها بأسمائها الأجنبية، ونتداول هذه الأسماء!. كأننا نؤكد عجزنا اللغوي - لا عجز لغتنا - إذ نستعمل الأشياء وأسماءها مما تقذفه إلينا الصناعة كل يوم. ولقد تراكمت مئات الإنجازات، بل ألوفها، مما لا يد لنا في ابتكاره، ولا في اختيار مصطلحه وتسميته!

وإذا كان الإبداع - اختراعًا وتصنيعًا - يحتاج إلى جهد خاص، يرتبط بخطط الدولة، ومعاهد البحث العلمي، وأسلوب التعليم، ومستوى الصناعة، فإن اختيار المصطلح، وإطلاق التسميات؛ لا علاقة لهما بكلّ هذه الشبكة المعقدة، وإنما علاقتهما باللغة مباشرة، وقدرات أصحابها، وتفاعل قدراتهم مع قدراتها، وهذا مُتاحٌ ميسور.

ومن المسميات التي دخلت حياتنا، وهي ما زالت شاردة عن لغتنا: الميكرفون، والتلفزيون، والاستديو، والتلكس، والفاكس، والرادار، والأوتستراد، والديكور.. إلخ.. علمًا بأن استئناسها - بتعريبها - ليس عصيًا، ولكن لابد من البحث والتنقيب.

اللغة والأدوات المادية

وربَّ معترض يقول: مادامت هذه الإنجازات أجنبية، وقد دخلت حياتنا بأسمائها، فما يضيرنا أن تكون أسماؤها أجنبية!؟. وليست أسماؤها بالتي تعوقنا عن استخدامها والإفادة منها، فما جدوى العناء في تفصيل أسماء عربية لها!؟ هل تغدو بتعريب أسمائها منجزات عربية!؟ أليس هذا تعصّبًا لا محلَّ له، وتعلُّقًا بالقشور دون اللُّباب!؟

والحق، أنه ليس من وظيفة اللغة - أية لغة - أن تخترع أو تبتكر الأدوات المادية. إن إبداع الوسائل المادية أمرٌ لم تزعمه لغة من اللغات؛ لأنه ليس من وظيفة اللغات في الحياة. وإنما يورد هذه الدعوى علينا - إرهاقًا للعربية - قومٌ بغاة، يُكلفون العربية ما لا تطيقه لغة من اللغات، ويطلبون إليها دورًا كأنها مخبرٌ علمي، أو ورشة صناعية! وغايتهم ألا تنزل العربية إلى معترك الواقع حتى تبقى سجينة قواميسها ومعاجمها، لا ترف راياتها في ميادين الحياة، وبذلك يقضون بوأدها حية! وهم لا يجهلون أن اللغة إنما هي رموز للأشياء، وليست صانعةً للأشياء، ولكنهم يخلطون الأوراق، ويوردون الحجج في غير مواردها تثبيطًا للعزائم، وتزييفًا للحقائق!

ثانيًا: إن تعريب الأسماء والمصطلحات - من اكتشاف بكر، أو اختراع جديد - يجعلها مأنوسة مفهومة، فلا تبقى بعيدةً عن عقول الجماهير العربية وفهمها. إنّ تعريب الاختراع - اسمًا ورسمًا - يُرَوِّض صورته الغريبة في عقول الجماهير، ويجعله قريبًا منها. وهذا ضروري جدًا للغة، ولجماهير اللغة في آن واحد.

لكم خسرنا من تباطؤ تعريب الحاسوب. لو بكّرت تجارب تعريب الحاسوب - أنظمة ولغةً - تُرى أكان موقعنا من الحضارة حيث نقف الآن؟.

إن التعريب يعني استئناس الإنجاز، وترويضه للاستخدام. فحين برزت (الإنترنت) - وهذا أقرب مثال لنا - لم يفهم كثير من الناس الفكرة العامة لهذا الإنجاز، إلا عندما أردفت بالترجمة العربية لها، أي شبكة المعلومات.

ثالثاً: إن الأسماء العربية للمخترعات لا تلغي الأسماء الأجنبية، وإنما تدفعها إلى الدرجة الثانية، فيتقدم عليها مصطلح لغتنا، وهو حقٌّ لنا ولكل أمة، أن تسمّي الأشياء بلغتها لا بلغة غيرها من البشر.. حتى تدخل في وعي أبنائها. وهذا وحده يسقط تهمة التعصب. وإن كانت اللغة - أية لغة - لا تحيا إلا بعصبية أهلها، ونصرتهم لها. وحسبنا أن نرى ما يحدث في فرنسة من عصبية الفرنسيين للغتهم!.. انتصاراً لها، وما تبذله الدولة الفرنسية لنصرة لغتها، على مختلف المستويات، من أعلى المقامات في الدولة: رئيس الجمهورية.. إلى أدنى المراتب المسؤولة.. حتى لا تغدو الفرنسية لغةً من الدرجة الثانية.

ولنستعرض الأسماء السابقة، اسماً اسماً وأمامه نظيره المقترح:

الميكرفون: الصَّيِّت - المِجْهار - المِهْتاف - الهاتوف

وهو من الأسماء المؤلفة من مقطعين: مقطع ثابت عام PHONE بمعنى صوت وميكرو لتخصيص الدلالة، وهذه الأسماء كثيرة



تسارع خطا التقدم يتطلب مرونة اللغة لاستيعاب كل جديد

عندهم: تلفون.. أنترفون... إلخ..

ولو تيسر لنا في العربية جذرٌ لغوي نشتق منه أسماء الأدوات المتشابهة لكان خيراً، ولكن لدينا خيارات كثيرة. وقد اقترح الأديب اللبناني كرم ملحم كرم اسماً بديلاً له في وقت مبكر، إذ سمّاه «الزّعاق» في إحدى قصصه(١).

ولدينا ألفاظ كثيرة كلٌّ يصلح لهذا المسمى؛ منها:

«**الصَّيِّت**» ويعني الرجل البعيد الصوت، أو البعيد الشهرة، وهي صفة مشبهة على وزن فَيْعِل. ومنها:

«**المِجهار**» اسم آلة من (جَهَرَ) على وزن مِفْعَال. أو صيغة مبالغة على الوزن نفسه. ومادة جَهَرَ تتعلّق بالسمع والنظر.

وفي القاموس المحيط: وجَهَرَ بالكلام: أعلن به، كأجْهَرَ، وهو مِجْهَر ومِجْهار، والصوت أعلاه، وكلامٌ جَهْرٌ ومُجْهَرٌ وجَهْوَرِيٌّ عالٍ.

وفي أساس البلاغة: وقد جهر بكلامه وقراءته: ارتفع بهما صوته. وجَهَرَ صوتُه جَهارةً: وهو جهير الصوت، وصوتٌ جَهْوَرِيٌّ، ورجلٌ جَهْوَرٌ جَهْوَرِيٌّ. وجَهْوَرَ الحديث بعدما هينَمَهُ: أي أعلنه بعدما أسرَّه. وخطيبٌ مِجْهَرٌ بخطبته. وجاهرتهم بالأمر جِهاراً: أي عالنتهم به علاناً.

وللمادة معانٍ أخرى، ولكنا انتقينا منها ما يفيد معنى ارتفاع الصوت. ونحن نستعمل «المِجْهَر» على وزن مِفعَل - اسم آلة - للمنظار العلمي، فليكن «المِجهار» - مكبر الصوت - من المادة نفسها اسماً «للميكروفون».

المِهْتَاف: اسم آلة على وزن مِفْعَال.

الهاتوف: اسم آلة على وزن فاعول مثل صاروخ وحاسوب.

فلدينا إذاً: الصَّيِّت - المجهار - المهتاف - الهاتوف.

فلنختر منها آنسها في السمع، وآلفها في الذوق، وأقترح «المهتاف» لأنها والهاتف من مادة واحدة، وقد زهدني في توثيق المادة سابقتها في هذا المجال.

التلفزيون: المِرْناء

من مادة (رَنَوَ) والرُّنُوُّ: إدامة النظر بسكون الطرف، ولهوٌ مع شغل قلب، وبصر وغلبة هوى.. أهناك وصفٌ لمشاهد التلفاز أدقّ وأشملُ من وصف القاموس هذا؟.

والرُّنا ما يُرنى إليه لحسنه، وبالضم والمدّ - الرُّناء - الصوت والطرب، وهو رَنُوُّها كعَدُوِّها: أي يرنو إلى حديثها ويعجب به، ورنا: طرب، والترنية: التطريب، والغناء والحنين. القاموس.

ومن المجاز: حدّثني فرنوت إلى حديثه: أصغيتُ سمعاً وبصراً، وترانيتُ عنه: تغافلتُ.. الأساس.

فهذه مادةٌ غنيةٌ مثلى، ليست لاشتقاق اسم لجهاز التلفاز فحسب، وإنما لحيازة مفردات كثيرة في

وصف الشاهدين مثل: الرَّانين - الرُّناة - الرَّنَّائين. والعلاقة بين الجهاز ومشاهديه في انجذابهم إليه واستغراقهم فيه مثل: المُراناة.. التَّراني.. الإرناء.

فحبذا لو عاد المذيعون إلى هذه المادة الخصبة في معاجم العربية: القاموس - الأساس - اللِّسان.. إذن لوجدوا جنًى طيّبًا، وذخيرةً وافرة.

فالتلفاز مرناءٌ حقًا - أي جذاب للسمع والبصر، شاغل للقلب في هوًى غلاب، يشدُّ إليه المشاهد - الرَّاني - سمعًا وبصراً.

ومِـرْنـاء: اسم آلة على وزن مِفْعَال. اسم للجهاز.

ومِرْناء: صيغة مبالغة من اسم الفاعل الرَّاني على الوزن نفسه.

فالجهاز مرناء يمكنك من الرُّنو. وأنت مرناء كثير الرُّنو إليه.

ومِرْناة: اسم آلة على وزن مِفْعَال أيضًا، مشاكلة للمرآة معنًى ووزنًا، وتزيد عليها بمشاركة السمع مع البصر.

والاسمان صالحان أن يطلقا على «التلفاز» فيمكننا أن نسمِّي الجهاز بهما أو بأحدهما: مِرْناء أو مِرْناة، أو نخصص كلاً منهما بجانب من الجهاز، فنطلق المِرْناء على الجهاز فنقول مثلاً: من مِرْناء المملكة العربية السعودية نوافيكم بنشرة الأخبار. ونطلق المِرْناة على اللوحة التي تُجلى عليها الصور، أي حالة عرض الصور فنقول مثلاً: نتابع برامجنا المحلية من مرناتنا العربية السورية.

كما يمكننا أن نسمي بلورة الجهاز: اللوحة، من حيث واقعُها لا من حيث وظيفتها، وبذلك نتخلص من «الشاشة الصغيرة» وهي تسمية غير مناسبة لا للمرناة ولا للوحة.

لكل أمة؛ أن تسمِّي الأشياء بلغتها لا بلغة غيرها من البشر، حتى تدخل في وعي أبنائها

الأستديو: المقصُورة

ومادة «قصر» غنيةُ المعاني، متفرعة الدلالة. من معانيها؛ الحبس، والمنزل، والحجرة الواسعة، والتخصُّص.

ففي القاموس: والمقصورة؛ الدار الواسعة المحصَّنة، أو هي أصغر من الدار.. ولا يدخلها إلا صاحبها.. واقتصر عليه؛ لم يجاوزْه.

وفي الأساس: وهنَّ قاصرات الطرف؛ قَصرْنَهُ على أزواجهن، وهو يسكن مقصورةً من مقاصير زبيدة، وهي الحُجْرةُ من حُجَرِ دارٍ كبيرةٍ مُحَصَّنة بالحيطان. واقتصرْ على هذا؛ لا تُجاوزْه.



علي الجارم

فهذه المعاني تُلبي المراد. من مكانٍ مقصورٍ على شيءٍ معين ومُحصَّنٍ من أجله. ونحن لا نريد أكثر من هذا المكان. نريد مكانًا مقصوراً على وظيفة محددة مُخَصَّص لها، ومُحَصَّنٍ من أجلها. ولهذا فـ «المقصورة» اسمٌ ملائمٌ ليكون بديلاً عن «الأستديو» فهي تعني الحجرة الواسعة التي يختص بها صاحبها دون أحد من الناس، وهي الدار الواسعة المُحصَّنة، كما في القاموس، والحجرة المخصَّصة المحصَّنة بالحيطان كما في الأساس.

فإذا كانت مقتصرة على صاحبها لا يدخلها إلا هو، ومُحصَّنة من أجل ذلك. فإنه لمن السهل أن ننقل دلالتها إلى معنى جديد، ووظيفة حديثة، من دون الخروج عن معناها في أصل مادتها. فيكون اختصاصها بعملٍ محددٍ ولكنه جديد؛ هو التحضير والتوضيب والتصوير. تكونُ مُختصَّة به مقتصرةً عليه. كما أن تحصينها ضربٌ من الدلالة الخاصة يجيز لنا أن نزيحها إلى دلالة حديثة؛ وهي تجهيزها بالأدوات والأجهزة من أجل وظيفتها الجديدة، وتبيح لنا دلالتها الصرفية وهي على وزن «مَفْعُولَة» أي خضوعها للفعل - مع كونها اسم مكان مخصص ليكون مقصوراً على أعمال جُهِّز من أجلها - لتكون صنواً «للاستوديو».

فلنطلق المقصورة على «الاستوديو» دون حذر. وليس على الإذاعي في الإذاعة أو المرناء إلا أن يعلن على الملأ: أننا نذيع عليكم

برامجنا من مقصوراتنا عوضاً عن استديوهاتنا من دار الإذاعة، أو نعود بكم بعد هذه المُراناة الخارجية إلى مقصوراتنا في مرناء جمهورية مصر العربية مثلاً.

الأتوستراد: المُستَراد

الأوتوستراد: ومعناه الطريق العريض ذو المسارين، ومن قواعد التعريب أنه إذا وجدنا في لغتنا لفظاً قريباً في معناه وفي مبناه من المسمى الأجنبي أطلقناه عليه. وعلى هذا اقترح الأستاذ علي الطنطاوي - رحمه الله - «الرَّاد» للراديو، وهو اسم فاعل من فعل ردَّ ومُشاكِل للراديو مبنًى ومعنًى لأنه يرد الكلام ويردِّدُه، ولكن المذياع غلب عليه.

وطبقًا لهذه القاعدة نحن ندين للأستاذ المرحوم علي الجارم بلفظة مُكْنَة - والعامة تنطقها مَكَنَة - عَلَماً على كل آلة مقابل: MACHINE.

وعلى هذه الشاكلة لدينا لفظٌ قريبٌ جداً من «الأوتوستراد» لفظاً ومعنًى، ورد في شعر النابغة في إحدى اعتذاريَّاته:

ولكنَّني كنتُ امرأً لي جانبٌ
من الأرض فيه «مُستَرَادٌ» ومذهب

والمُسْتَراد: المكان الذي يُرْتَاد. وقد استخدمه النابغة بمعنى المكان الواسع الذي يرتاده: «فإن لي من الأرض مكاناً واسعاً - لا يضيق بي - أرتاده، وأذهب فيه».

وهو معنى قريب من الطريق الواسع؛ الأوتوستراد ولفظهُ - المُسْتَرَاد - مأنوسٌ سهل على الناس، خصوصاً أن عامتهم يلفظون الاسم الأجنبي؛ أوستراد.. قريباً من اللفظ العربي الأصيل.

بقي أن نقول: المُسْتراد اسم مكان على وزن مُسْتَفعَل، والدلالة الصرفية لهذا الوزن تفيد - في جملة ما تفيد - طلبَ الشيء؛ أي طلب الارتياد، وهكذا يتآزر معنى المادة مع الدلالة الصرفية ليفسحا للمسافر حيِّزًا عريضاً في الطريق المُسْتراد.

الفاكس: المِرْسال
التَّلكس: المِرْسَل

وكلاهما اسم آلة على«وزن «مفْعَال» من مادة «رَسَل» ففي القاموس:

.. والمرسال أيضًا سهم صغير، والإرسال التسليط والإطلاق.. والتوجيه.. وتراسلوا: أرسل بعضهم إلى بعض.

وفي الأساس: راسلَهُ في كذا، وبينهما مراسلات ومكاتبات. وتَرَاسَلوا، وأرسلته برسالة ورسول. وأرسلت إليه؛ أن افعل كذا، وأرسل الله في الأمم رسلاً.. ووجهت إليه رسلي أرسالاً متتابعة، أي رسلاً بعد رسل، وامرأةٌ مُراسل؛ مات بعلها فبينها وبين الخُطَّاب مراسلة.

ومن المجاز: أرسلَ الله عليهم العذاب.. والسهامُ رُسُلُ المنايا، وظَلْنا نتراسلُ بالألحاظ. والمادة أغنى مما ذكرنا، ولكن انتقينا من معانيها ما يهمنا من الرسالة والإرسال، وهي معانٍ مناسبة لاشتقاق الأسماء المطلوبة.

الفاكس: المِرْسال اسم آلة على وزن مفْعال.

التلكس: المِرْسَل اسم آلة على وزن مفْعَل.

المِرْسَلة: اسم آلة على وزن مفْعَلَة.

ويمكننا الاختيار من بين هذه الأسماء الثلاثة.

الرادار: المرْصاد

ومادة رصد بمعانيها تفسر وظيفة هذا الجهاز، وقد استُعملت في وصفه. ولكن لم يشتق منها اسم خاص للرادار.

وفي القاموس: رصَدَهُ رَصْداً، رَقَبَهُ كتَرَصَّدَه، والرَّاصد الأسد، والرصيد السبع يرصُد للوثوب.. وأرصَدتُ له: أعددتُ له أي كافأته بالخير والشر، والمرصاد: الطريق، والمكان يُرْصَدُ فيه العدو، والرَّصَد - محركةً - الرَّاصدون.



كرم ملحم كرم

وفي اللسان: رصدتُه وارتصدتُه وتَرَصَّدتُه: نحو رقبته وارتَقَبْتُه وتَرَقَّبْتُه: قعدتُ له على طريق أترقَّبُه، وراصدتُه، وراقبتُه، وتراصد الرجلان: تراقبا، رَصَدٌ جمع راصد: نحو حَرَسٍ وخَدَم.. وسبعٌ رصيد يرصد لِيَثِب.

ومن المجاز: أنا لك بالمَرصَد، والمِرْصَاد، أي لا تفوتني.. والمنايا للرجال بمَرْصَد.

وقد أرصدتُ هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطِّراد، وهذا المالَ لأداء الحقوق، إذا أعددته لذلك، وجعلتُه بسبيل منه.

وفي القرآن الكريم:
وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مرصد. **التوبة:٥.**
فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا. **الجن:٩.**
فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا. **الجن:٢٧.**
إنَّ ربَّك لبالمرصاد. **الفجر:١٤.**

والرادار من هذه المعاني. ويمكننا أن نشتق منها أسماء الآلات التالية:
المرصاد - المَرْصَد - المَرْصَدة، وأوزانها على التوالي:
مِفْعال - مَفْعَل - مَفْعَلَة.

زخرفي، وإنما هو ضرب من الهندسة يغلب عليه طابع التنسيق، إذ هو يختار أنسب الأنساق الهندسية للمكان؛ قصرًا كان أو قاعةً أو محلاً تجاريًا، وترتيبه على نسق ما بصورة لا تخلو من الزخارف. فإذًا هو تنميط هندسي للمكان وفق طراز خاص، أي تنسيق له على نسق خاص، والتنسيق الذي هو غايته أو الأنساق التي يبدعها أنسب الأسماء لهذا الفن.

وفي القاموس: التنسيق التنظيم، وناسق بينهما تابع، وتناسقت

غريب، بل كل جديد غريب، حتى يروضه التداول في الأفواه، ويؤلفه في الأسماع. ولا يحتاج الأمر إلا إلى الرغبة عندنا أن يكون لهذه الأسماء نظراء في العربية.

على أنه لدينا عشرات الأسماء، نقلناها من دلالتها الأولى، وجعلناها أسماء لمسميات حديثة، وهي أبعد وثبةً، وأوسع نقلة من أسمائنا هذه. فنحن نستعمل المدفع لإطلاق القنابل، ومعناه مكان اندفاع السيل من سفح الجبل إلى الوادي. والقنابل نفسها معناها الجماعات، ونستعملها بمعنى المتفجرات، ونستعمل السيارة بمعنى أداة النقل، ومعناها الجماعة المسافرة، وقد وردت بهذا المعنى في كتاب الله(٢).

ونستعمل الحافلة للباص، وهي صفة - وليست اسمًا - تعني الملأى، ونستعمل الحوامة للطائرة العمودية، والنفاثة للطائرة تندفع بقوة النفث، والشاحنة.. والدبابة.. والمصفحة، وكلها صفات اصطلحناها أسماء، وكذلك الصاروخ والحاسوب والهاتف والقَطْر والقطار، لا تدل أساسا على مسمياتها، ومع ذلك لسنا نعرفها إلا بهذه الأسماء.

لدينا في اللغة العربية عشرات الأسماء، نقلناها من دلالتها الأولى، وجعلناها أسماء لمسميات حديثة

وكذلك المَرْصَد على وزن مَفْعَل؛ اسمًا لمكان الرصد.

والرَّاصد على وزن فاعل؛ اسمًا للقائم على الرَّصد، واسمًا لجهاز الرَّصد أيضًا.

والرَّاصُود على وزن فاعول مثل صاروخ، وزامور، اسمًا لشبكة الرَّصد كلها.

ويمكننا ترتيب الأسماء كما يلي:
الرَّادار: المِرْصاد
مركز الرصد: المَرْصد
نقطة الرَّصد الواحدة: المَرْصَدَة
شبكة الرَّصد كلها أو منظومة الرَّصد: الرَّاصود.

فن الديكور: فن التنسيق أو فن الأنْساق؛ جمع نَسَق

وقد يتبادر إلى الذهن أن الديكور يعني الزُّخرف، وهو لا يخلو منه ولكن الديكور ليس مجرد عمل

الأشياء، وانْتَسَقَت، وتنسَّقت بعضها إلى بعض بمعنى (أي بمعنى واحد).

وفي الأساس: نَسَقَ الدُّر.. ونَسَّقه، ودُرٌّ منسوق، ومنسَّق، ونَسَقٌ، وتَنَسَّقَت هذه الأشياء، وتناسقت، وكل هذه الألفاظ والأوصاف تعني التناغم والانتظام والاتساق، مما يزكي أن يُسمَّى الفن الذي يحقق هذا التناغم «فن الأنساق» أو «فن التنسيق».

وربما يبدو أكثر هذه الأسماء مأنوسًا مألوفًا للناس مثل المرصاد.. التنسيق، ويعجب المرء كيف غابت عن بالنا، فلم نصطلحها حتى الآن.. في حين يبدو بعضها غريبًا مثل الرَّاصود - المُسْتراد - وإنها ليست كذلك، ولكنها تطرق الأسماع أول مرة، وكل مصطلح في أول أمره

ونحن اليوم نجهد لتعريب لغة الابتكار والعلم، وتأصيلها في لساننا. نتطلع إلى يوم نَزُودُ فيه آفاق الإبداع، ونُصدِّر فيه العلم بلغتنا ولساننا، ونتقن صنع الآلة والأداة ممهورة بطابعنا.. وسمًا من أخلاقنا واسمًا من لغتنا، وإنه ليوم قريب إن شاء الله.

الهوامش

١- «سلسلة ألف ليلة وليلة»، كرم ملحم كرم.
٢- انظر سورة يوسف:١٠و١٩.

حكايات الأطفال الشعبية

نزار نجار

ما الحكاية الشعبية؟

إنّ تعريف مصطلح الحكاية الشعبية أمر يصعب تحقيقه، ويرجع هذا إلى التعريفات المتعدّدة والكثيرة للحكاية الشعبية بصفتها مصطلحًا عالميًا، على الرغم من وجود التقارب والتشابه بين التعريفات.



الحكايات الشعبية جعلت الحيوان يتصرف تصرفًا إنسانيًا وهنا سمكة تحاور إنسانًا

فالمعاجم الألمانية تعرّف الحكاية الشعبية بأنّها الخبر الذي يتصل بحديث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفهية من جيل إلى جيل، أو هي خلق حرّ للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمّة وشخوص ومواقع تاريخية.

وتعرّفها المعاجم الإنجليزية بأنها حكاية يصدّقها الشعب بوصفها حقيقة، وهي تتطور مع العصور ونتداولها شفاهًا، كما أنّها تختصّ بالحوادث التاريخية الصّرف أو الأبطال الذين يصنعون التاريخ.

والحكاية الشعبية بذلك لها صلة بالمجتمع الذي تنشأ فيه، أي إنّها تحمل ملامح هذا المجتمع وأنظمته السائدة، وهذا لا يخلع عنها صفة العالمية، بحيث إننا نجد كثيرًا من الحكايات الشعبية قد انتقلت من مكان إلى مكان دون أن تعوقها هذه الملامح التي تتمايز فيها.

إنّ الحكايات الشعبية بأسرها؛ ومثلها الحكايات الخرافية والأساطير، هي بكل تأكيد بقايا للمعتقدات الشعبية، كما أنّها بقايا تأمّلات الشعب الحسّية، وبقايا قواه وخبراته حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف، وحينما كان يؤثر فيما حوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها.

ويضيف عبدالحميد يونس إلى ما تقدّم بتعريفه مصطلحَ الحكاية الشعبية فيرى أنه: جديد لا بالقياس إلى الأدب العربي وحده، ولكن بالقياس إلى الآداب العالمية أيضًا؛ ذلك لأنّ وصف السرد القصصي بالشعبية إنّما كان استجابة مباشرة للإحساس بالحاجة إلى ضرب من التمييز بين إطار قصصي أدبي، وآخر يتّسم بالحرية والمرونة ومسايرة العقول والأمزجة والمواقف.

وقد تتوافر بعض الخصائص التي تتمتع بها حكايات شعبية في مكان ما لا تتوافر في مكان آخر، وعلى الرغم من هذا فإنّ الحكاية الشعبية هي

الحادثة التي تنشأ في المجتمع، وترتبط بثقافاته وعاداته، وتحمل بين طيّاتها التقاليد والنظم والعادات السائدة، وتكشف حياة شعب من الشعوب عاشها في هذه الفترة.

وتتميّز الحكايات الشعبية ببعض الخصائص الرئيسة التي تميّزها من أيّ لون من ألوان التعبير في الأدب الشعبي إذ إنها:

«ردّ فعل للظلم الواقع على المضطهدين» إنّها بيئة يسيطر فيها السادة ويحققون رغباتهم، ويوجد دائمًا من يساعد البطل في هجومه أودفاعه، وهذه المساعدة هي الفضيلة الرئيسة التي تفوق كلّ النزعات الأخرى، فالقوى الخارقة للطبيعة تساعد الضعيف والفقير والطفل.

ويتّضح من ذلك أنّ الحكاية الشعبية دائما تجد لها من المهتمين من أبناء الشعب لأنّها تعيدهم إلى واقعهم الذي يعيشونه، فهي تقف إلى جوار الطبقة المغلوبة على أمرها وتمدّهم بالعون لكي يحققوا هدفهم.

تتميز الحكاية الشعبية بأنها تنتقل من مكان إلى مكان عن طريق الرواية الشفوية، وذلك عن طريق الراوي الذي يردّدها حسبما تسعفه الذاكرة، وكثيرًا ما يضاف إليها أو يحذف منها، وربّما يحكيها كما سمعها ونستطيع القول:

إن الحكاية الشعبية ليست شيئًا جامدًا، بل هي مادة مرنة تخضع لعوامل التطور مما يضفي عليها صفة المرونة.

وتتميّز الحكاية الشعبية بأنها ليست مجرّد حكاية للترفيه، بل هي أيضًا مرآة العصر، وانعكاس لأفكار الشعب، وهي ذات هدف، فقصّة عنترة العبسي مثلا تحلّل مشكلة الرقّ في الجاهلية، وفضلاً عن هذا تبين القصّة أنّ الشرف أو النّبل ليس مصدره الحسب والنسب، بل عظمة الشخصية والسجايا والخصال.

إنّ الحكاية الشعبية نوع قصصي ليس له مؤلف لأنه حاصل ضرب عدد كبير من ألوان السّرد القصصي الشفاهي الذي يضفي عليه الرواة أو يحوّرون فيه أو يقتطعون منه، وهو يعبّر عن جوانب من شخصية الجماعة، لذا تُعدّ نسبته إلى مؤلف معيّن نوعًا من الانتحال، ولكن يظل في طبيعته شعبيًا.

تدور الحكايات الشعبية حول أحداث وأشخاص أبدعها خيال الشعب، وهي ترتبط بأفكار وأزمنة وموضوعات وتجارب إنسانية ذات علاقة بحياة الإنسان. وهي في العادة لا تخرج عمّا هو سائد في الحياة إلاّ في حدود.



الحكايات الشعبية تدور حول أحداث وأشخاص أبدعها خيال الشعب

والهدف من الحكايات الشعبية هو تأصيل القيم والعلاقات الاجتماعية، لذا فهي على الأعمّ الأغلب ملتزمة، وكل حكاية تنطوي على معنى أو نمط سلوكي تريد له أن يتحقق أو آخر تريد له أن يُنبذ.

فالحكايات الشعبية المروية ظهرت قبل عصر التاريخ بآماد بعيدة. وظلّت الشعوب تتناقلها جيلاً بعد جيل، وقد احتلّت موقع الصّدارة بين الفنون التي تذوقها الإنسان، عبّر فيها عن عواطفه وأفكاره وخيالاته ونظراته وأحلامه ورؤاه، لذا فهي تفصح إلى حدّ ما عن مضمون العاطفة والفكر والخيال والرؤيا، ولا يمكن تصوّر شعب لا حكايات شعبية له.

ما من طفل إلا تردّدت على لسانه عبارة:

ـ احك لي حكاية!

منذ أن وجدت الحياة الإنسانية على هذا الكوكب. ولا نجد تراثًا يخلو من فيض من الحكايات الشعبية التي كان يقدّمها الأولون إلى الأطفال، ويعود هذا إلى أنّ الكبار كانوا يتناقلون حكاياتهم ويُعنون بها؛ لأنها تعبّر عن حياتهم وحدهم، بينما كانت حكايات الأطفال تظهر في كل عصر، ولكنها سرعان ما تُنسى فتموت، ولم يبق إلاّ القليل من بين ذلك الفيض الذي يمكن القول فيه: إنّ الإنسان صاغه لأطفاله.

واليوم أهمل الكبار الحكايات الشعبية وأصبح تناقلهم لها نادرًا، إذ تركوا الكثير من الحكايات الشعبية للأطفال وللمختصين الذين يتناولونها بالدراسة..


الحكايات الشعبية تنقل للأجيال صورًا من الماضي

فإهمال الكبار للحكايات الشعبية ليس دليل عافية، لأننا في عصر يسمونه واقعيًا وماديًا ويظلّ الإنسان في أشد الحاجة إلى كل الأنواع التي تحمل القيم والمعايير الأخلاقية الرفيعة التي تطلبها واقعية العصر وماديّته.

إنّ من بين الحكايات الشعبية ما يصلح للأطفال، ومنه ما ينبغي إبعاده عنهم لما فيه من أضرار، ومنه ما يمكن إعادة كتابته في مضمون وشكل مناسبين.

وحين بدأت حركة كتابة الحكايات الشعبية وُجد أنّ هناك جزءًا منها يمكن أن يشكّل زادًا لأدب الأطفال، ووجد في بعض آخر قسوة أو خشونة، وكان أن أعقبت حركة التدوين للحكايات الشعبية حركة مُكمِّلة وهي تحوير بعض تلك الحكايات التي قيل عنها: إنها كانت للأطفال، إضافة إلى تطوير بعض الحكايات التي كان الراشدون يتناقلونها. وذلك بقصد أن تكون مناسبة للأطفال.

إنّ كثيرًا من قصّاصي الأطفال استمدّوا من الحكايات الشعبية أفكار قصصهم، ولاقت تلك القصص هوى في نفوس الأطفال، وسعدوا بأبطالها الذين يتحرّكون دون حواجز أو قيود، وأنسوا بالحيوانات التي تتصرّف - في الغالب - تصرّفًا إنسانيًا، وبالنباتات التي تتحرّك وتطير وتضحك وتذرف الدموع وتقرأ الشعر، وبالأدوات الجامدة التي تروح وتجيء وتقرع الطبول وتغني.

وأثارت هذه الحكايات مشاعر الأطفال وسط أجواء التضحية أو البطولة أو الصّدق أو العدل. حيث ينتصر الخير والأخيار، ويُخْذَل الشرّ والأشرار.

ولم يكن الأطفال بعامّة - قبل نشأة أدب الأطفال - بعيدين كلّ البعد عن الأدب، فقد كانوا يستمعون - أحيانًا - إلى الحكايات الشعبية والأمثال والروايات والحكم والرحلات التي كان الناس يتناقلونها أو يروونها في المجالس بقصد التسلية والتوجيه، ومن الأدب ما هو من التراث الديني، ومنه ما هو من التراث الشعبي الذي يحمل القيم والأفكار، ومن بين التراث الديني ما هو أدب حكمة أو أدب تهذيب.

ومن بين الآثار الأدبية الشعبية ذات التأثير الكبير في حياة الناس، والتي حاول بعض الكتّاب صياغة بعض الحكايات على غرارها حكايات البانجاتنترا أو خزائن الحكمة الخمس، أو الأسفار الخمسة. وهي حكايات هندية قديمة ترجمت إلى عدد من لغات العالم، وكانت تلك الحكايات تستهدف غايات عملية، وكانت حكاياتها منثورة، أما أمثالها وحكمها فقد كانت منظومة، وقد وضعت بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ ق.م باللغة السنسكريتية ونُقلت لأول مرة إلى اللغة البهلوية.

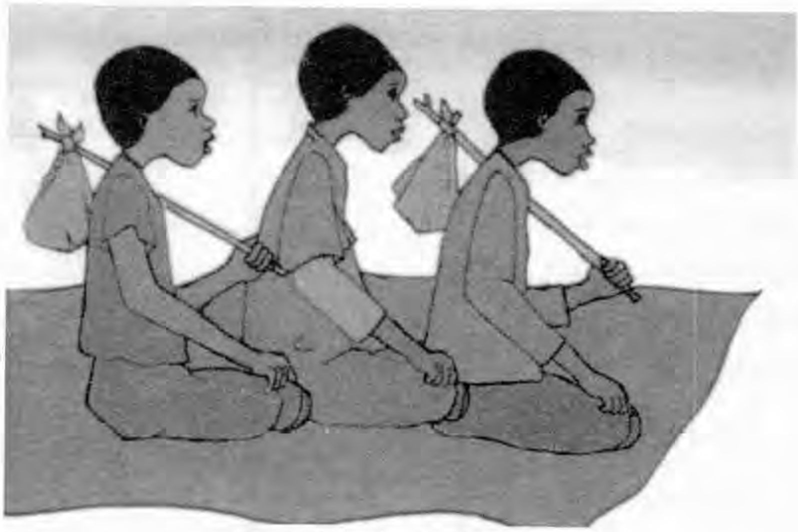
لقد كانت تجربة الأخوين الألمانيين جاكوب كريم وفيلهم كريم متقدّمة إذ جمعا أشهر الحكايات التي تشيع على ألسنة الناس، والتي يحكيها الآباء للأبناء في ألمانيا، وكان هدفهما الأول الحفاظ على ذلك التراث الشعبي من الضياع.

كان الأخوان يلتقطان الحكايات من أفواه الرواة، ويسجلانها كما هي دون تحوير في مضمونها، ولكنهما كانا يهذّبان أسلوبها، ويخرجان من أصلها الشفهي الكلمات الأجنبية والكلمات القديمة التي لم تعد مستخدمة في اللغة إلاّ في حدود ضيقة.

لقد أرادا من وراء التقاطهما هذه الحكايات أن يكشفا عن أصالة الثقافة الألمانية، ولكنّ التمعّن في بعض الحكايات يكشف أنّ بعضها مشابه لبعض الحكايات الشعبية الشرقية، وبخاصة الحكايات العربية، وبعض حكايات ألف ليلة وليلة. ومع ذلك فإن طبعة كتابهما «حكايات الأطفال والبيوت» تُعدّ محاولة لدراسة الحكاية الشعبية الألمانية.

ومن يتأمّل في حكايات الكاتب الدانمركي أندرسن، وفي بعض حكايات الروسي كريلوف، وحكايات الشعبية التي جمعت في أوربا أنّ لها أصولاً شرقية أو عربية، إذْ إن معظمها كانت معروفة في بقاع شتى جال فيها الأوربيون مستكشفين، أو حلوا فيها لسنوات مستعمرين.

ومن هنا يمكن أن نحدّد الأشكال الأساسية للحكاية الشعبية في أشكال خمسة، ومع ذلك لا نستطيع القول: إنّ هذا هو التحديد النهائي للحكاية الشعبية وأشكالها؛ لأنّ الحكاية الشعبية لها أكثر من شكل حقيقي، وهذه الأشكال تلتقي جميعاً وتتداخل، وتسعى من أجل هدف واحد..



لا يمكن تصور شعب لا حكايات شعبية له

الكاتب الفرنسي لافونتين يجد أن بضاعتنا - نحن أمة العرب - ردّت إلينا. إنّ قصة روبنسون كروزو لدانيال ديفو هي نفسها قصّة حيّ بن يقظان لابن طفيل الأندلسي (ت: ٥٨١هـ). وعلى ذلك فالحكايات الشعبية في العالم متداولة، بل إن كثيراً من هذه الحكايات تتشابه في أنحاء مختلفة من العالم، وتشير النظرة السريعة إلى أغلب الحكايات

- الأسطورة.
- السيرة - الملحمة.
- حكاية الحيوان.
- حكاية الجانّ والخوارق.
- حكاية الألغاز والمسائل والنوادر والقصص والفكاهة.

وعلى الرغم من تعدّد أشكال الحكايات وأنواعها إلاّ أننا نجد التقاليد الثابتة في جميع الحكايات الشعبية، وهي أن يبدأ الراوية عن طريق السّرد بمقدّمة ثابتة في جميع الحكايات، ثم يسترسل في سرد الحكاية، ثم يصل إلى الخاتمة التي تلتقي جميع الحكايات الشعبية فيها. وهذه نماذج متباينة من الحكايات الشعبية الموجّهة للأطفال:

- الحكاية الأولى: مأخوذة من الحكايات الشعبية المتداولة بين الناس في سورية:

صديق العمر

يروى أن امرأة اختلفت وزوجها في أمر، وصار بينهما خصام وشقاق، فما كان منها إلاّ أن حملت بعض ثيابها في صرّة، وهي أم لبضعة أولاد، ثم مضت إلى دار أهلها.

وشكت لأبيها الأمر، وأعلنت عن رغبتها في الطلاق، فلامها أبوها على ذلك، ونصح لها بالعودة إلى بيتها، فرفضت وأصرّت على البقاء، فلم يجد بداً من الترحيب بها.

وأمضت في بيت أبيها بضعة أيام.

وذات مرة حمل جدّها العجوز إبريقًا من الفخّار، ومضى إلى ركن ليتوضأ. وكانت في أثناء ذلك تكنس أرض الدار، فتعثر الجدّ وسقط الإبريق من يده، فانكسر فأسرعت إليه، وقدّمت إليه إبريقًا آخر، فأبدى الجدّ امتعاضاً شديداً، وقعد يتأمّل الإبريق المكسور، ويحزن لفقده، فعجبت لأمره وسألته: ألم أقدّم لك إبريقًا آخر غيره؟ فنظر الجدّ طويلاً، ثم قال: وهل ترين من السّهل أن أتخلّى عن هذا سريعًا، وأستبدل غيره به.. ثم سرح ببصره بعيداً

وقال: لو تدرين يا بنتي ذاك صديق العمر، صحبته وصحبني، وشهد كثيرًا من أيامي(!)

فاعتذرت لجدها ثم عمدت إلى صرّة ثيابها، فحملتها ورجعت إلى زوجها.

- الحكاية الثانية: مأخوذة من الحكايات الشعبية في بورما:

لماذا يقف اللقلق على رجل واحدة؟

في قديم الزمان كان الناس لا يأكلون لحم الطيور، إذ لم يخطر ببالهم أنّ لحمها يصلح للأكل، ولذلك فإنّ الطيور كانت لا تهرب منهم أبدًا بل تتناول الطعام آمنة مطمئنة من أكفهم.

وقد حدث مرة أن تاه تاجر في غابة واسعة، ظلّ فيها أيامًا دون أن يكتشف طريقه إلى قريته، وكاد يموت جوعًا، فاصطاد ديكًا وحشيًا شواه وأكله، وعندما عاد التاجر إلى قريته حدّث أصحابه عمّا فعله، ومنذ ذلك الحين بدأ الناس يأكلون لحم الطيور.

انتشر الخبر في القرية، وسمعت به طيور الغابة، ومن بينها اللقلق الذي خشي على نفسه، وقرّر أن يخدع الإنسان، فأخفى إحدى رجليه تحت جناحه، وكان النّاس يعرفون جيدًا أن لكل طائر رجلين اثنتين، فنظروا إلى اللقلق واقفًا على رجل واحدة، فاستغربوا أمره، وظنّوه مخلوقًا لا يمتّ إلى الطيور بصلة، فلم يصطادوه، ولم يأكلوه. وحدث أن مرّ باللقلق رجلٌ من القرية فسمعه يغنّي:

أنا اللقلق، أنا اللقلق
ومن يصطادني أحمق
لكلّ الطير رجلان
ولي رجلٌ من البان
ولحمي طعمه مرّ
أنا شوم
أنا شرّ

لكنّ صيادًا ذكيًا قرّر أن يراقب اللقلق فدخل إلى الغابة، واختفى خلف الشجرة، فلما تلفّت اللقلق حوله ولم يجد أحدًا، وكان قد تعب من الوقوف على رجل واحدة فأنزل رجله الثانية، وبدأ يقوم بنزهة بين الأشجار، فانقضّ الصياد عليه يريد الإمساك به، فأسلم اللقلق ساقيه للريح، وصفّق بجناحيه، وطار بعيدًا، ثم حطّ فوق رابية، وطفق يغنّي:

أنا اللقلق، أنا اللقلق
بلون الورد والزنبق
جناحي ريشه مُخمل
ولحمي طازج يؤكل
ولي رجلان كالقضب
أنا طير من النّجب

حدث هذا في قديم الزمان، ولكنّ اللقلق تعوّد منذ ذلك الحين أن يقف على رجل واحدة.

- الحكاية الثالثة: مأخوذة من الحكايات الشعبية اليوغسلافية:

أنا لست من سراييفو!

ذهب شاب إلى أحد الحلاّقين ليحلق له ذقنه، وكان الحلاّق مولعًا جدًا بالمزاح فقرّر أن يمزح مع زبونه فسأله:

- من أيّ بلد أنت أيها الشاب؟

فأجاب:

- من سراييفو

- أوه، كم أنا مسرور بأن أرى رجلاً من سراييفو؛ لأنّ هناك شيئًا أرغب كثيرًا جدًا في معرفته، فقد سمعت أنّ الناس في سراييفو كلهم شجعان وأقوياء وأشدّاء حتى إنهم لا يسمحون لحلاقيهم أن يحلقوا لهم باستعمال الصابون مع الماء الساخن، إنهم يصرون على أن يحلقوا بالماء الصافي البارد، فهل هذا صحيح أيّها الشاب؟

لقد كان الشاب حريصًا على أن يقال عنه شجاع وقويّ وشديد البأس، ولذلك أجاب الحلاّق:

- نعم هذا صحيح، وإذا كنت لا تصدّق ذلك فجرّب أن تحلق لي بتلك الطريقة، وسوف ترى.



حكايات الجان والخوارق من أشكال الحكايات الشعبية للأطفال

بلّل الحلاّق وجهه بالماء البارد، وبدأ يحلق له، وتحمل الشاب العذاب بعض الوقت، وضغط كثيرًا على أسنانه، وحرّك شفتيه يمينًا وشمالاً، ولكن عندما أصبح الألم أكثر من أن يحتمل امتلأت عيناه بالدموع فقال:

- اعمل معي معروفًا أيها الحلاّق، وخذ بعض الماء الساخن والصّابون

لتحلق لي، فأنا لست من سراييفو ذاتها، لكن منزلي يقع على مسافة بعيدة من هذه المدينة.

- الحكاية الرابعة: مأخوذة من الأساطير الإفريقية وهي حكاية شعبية ترددها قبائل الشامبالا:

الآخ والآي

في مدينة من المدن الواقعة على ساحل البحر، كان يعيش رجل غنيٌّ، وكان هذا الرجل يستأجر رجالاً ليعملوا لديه، ولكنْ ما إن يشرف الشهر على نهايته حتى يذهب لمن يعمل عنده، ويقول له:

- اذهب الآن، وابحث لي عن الآخ والآي، وأحضرهما لي، فإن لم تفعل ذلك فلن أعطيك أجرك.

وهكذا كان يغش الجميع ويحتال عليهم، إذ لم يكن أحد يعرف من أين يمكن إحضار الآخ والآي.

ومرة استخدم الغني شاباً، ووعده بدفع أجره في نهاية الشهر، انقضى الشهر، وجاء الشاب يطلب أجره، فقال له الغنيُّ:

- عليك أن تحضر أولاً الآخ والآي ثم أدفع لك أجرك!

فكّر الشاب ثم أحضر زجاجة سوداء ووضع فيها عقرباً ومعها حشرة أم أربع وأربعين وعاد إلى الغنيِّ وقدّم له الزجاجة قائلاً:

- أدخل أصبعك وستلمس بنفسك الآخ والآي.

قام الغني بوضع أصبعه في الزجاجة وما إن أدخلها قليلاً حتى سحبها فجأة وهو يصرخ بفزع آخ .. آخ .. آي.. آي... لقد لدغته أم أربع وأربعين.

وأدرك الرجل المحتال فعلته، وشعر بالذنب، وهكذا أخذ الشاب أجره، وذهب في طريقه.

الحكاية الخامسة: مأخوذة من الحكايات الشعبية الشامية وهي حكاية يردّدها أناس مختلفو الأعمار من حلب وحماة والأرياف:

كرة من ذهب

يروى أن رجلاً كان على غنى كبير، يملك الدّور والأراضي والأموال، وكان يبدو دائماً كئيباً قلقاً ضيّق النفس متشائماً لا يهنأ بشيء ولا يسعد، وقد جرّب السفر والسهر وكل أنواع التسلية، فلم يذهب عنه ما هو فيه من كرب وضيق.

وذات يوم أشار عليه أحد صحبه أن يصنع كرة من الذهب ليتسلّى بها مع زوجته في البيت، يدحرجها لها، وتدحرجها له، ويتبادلانها في أثناء السهرة، وفرح الرجل لنصيحة صاحبه، ومضى على الفور إلى أحد الصّاغة، وطلب منه أن يصنع له كرة من الذهب الخالص، واستحثه في إنجازها، وأجزل له العطاء وهو الغنيُّ.

وأخذ الرجل يلعب مع زوجته بالكرة مساء يدحرجها لها وتدحرجها له، ويتسليّان بها، ولكنْ لم يذهب عن الرجل شيء من كربه وضيقه، بل لعلّه ازداد بهذه الكرة ضيقاً وكرباً، فمضى إلى صاحبه يحدّثه عمّا كان معه من أمر الكرة التي نصح له بها.

وعندئذ ضحك صاحبه طويلاً وقال له:

- ما أقصده بكرة من ذهب هو الولد، يملأ حياتك دفئاً وأنساً وبهجة!.

وبعد:

إنّ الحكايات الشعبية مصدر مهم من مصادر أدب الأطفال، والواقع المشهود يدل على أن هناك كثيراً من الكُتّاب ما زالوا يتجهون إلى استيحاء التراث الشعبي وما فيه من حكايات وقصص وأخبار وسير وبطولات، وقد فعلوا ذلك ليغنوا المكتبة العربية بألوان من هذا القصص الماتع الجميل، وربّما يدفع بنا هذا إلى القول على حدّ تعبير أحد الباحثين:

- إن كُتّاب الأطفال يمكن أن يغيّروا ذوق العالم، بل يمكن أن يغيّروا العالم نفسه. ومن هنا يُطرح اقتراح بأن تقوم دراسات عربية ميدانية تدرس نفسيات الأطفال ومستويات إدراكهم وتقديم النتائج، ومن ثمة تنبثق دراسات تطبيقية على نصوص مختارة معتمدة على استلهام القصص الشعبي لنزرع الإيمان، ونرسخ مبادئ الخير، ونعلي شأن العمل دائماً والتعاون المثمر، ونخرج الحكايات الشعبية من إطار الخرافة والوهم إلى مرحلة الإعداد الجيّد مع استيحاء الواقع الذي نعيشه، وأن يتمّ التأليف بين الواقع والخيال، وأن نربط ذلك بقضايانا العادلة على طريق الكلمة المبدعة، والأدب الأصيل.

المراجع

- مجلة عالم الفكر - العدد الأول ١٩٨٨م، المجلد التاسع عشر الكويت.
- ثقافة الأطفال - د، هادي نعمان الهيتي - الكويت ١٩٧٨م.
- تعال نقرأ، حكايات مصورة للأولاد، بإشراف نزار نجار، ١٩٨٠م. سورية.
- حكايات شعبية يوغسلافية. وزارة الثقافة - سورية.
- حكايات شعبية. د. أحمد زياد محبك - وزارة الثقافة ١٩٦٩م، سورية.

ابن الأبّار البلنسي الشاعر الوفيّ لوطنه

عبدالسلام الهراس

وطَنٌ على الدائبَينِ الدمع والشَجَنِ
يا نادب الذاهِبَينِ الأهلِ والوطنِ
ابن الأبّار

لعل أشهر أديب مسؤول في تاريخ الأندلس إلى منتصف القرن السابع، أو ربما إلى آخر تاريخها الإسلامي سجل في شعره قضية بلده وهمومه نحوها هو الشاعر محمد بن عبدالله القضاعي أبو عبدالله، المشهور بابن الأبّار البلنسي (٥٩٥هـ - قتل ٦٥٨هـ).

لقد كان ابن الأبّار وزيراً لا كالوزراء، فهو الذي كُلِّف حملَ عبء التعليم، كما كان الرجل الكفء ليضطلع بمهمة الاستنجاد بتونس الحفصية مرتين، وقد نجحت مساعيه الأولى والثانية، وترك الرجل أثراً كبيراً في الأوساط السياسية والأدبية مما جعله شخصية ناجحة ولامعة ومحبوبة.

وكلما كان الأمل في إنجاد بلده كبيراً كان هاجسه واهتمامه به وحده واسع المدى، غير أن دائرة الاهتمام بنفسه بدأت تتسع شيئاً فشيئاً عندما سقطت بلنسية وبعض مواقع شرق الأندلس.

ومع ذلك بقي كيان الرجل أندلسيًا بما كان ينفث من تحسرات، ويصعِّد من آهات، ويستكثر لبلده من أمجاد، وإن الهم الأندلسي ظل يلازمه إلى آخر نفس من حياته، إذ كان تأليفه «التكملة لكتاب الصلة» نوعًا من المفاخرة والمباهاة بما للأندلس من شخصيات علمية وأدبية ذكوراً وإناثًا أصلاء وطارئين: أي غرباء.

إن الرجل كما يبدو لم يكن أول أمره يفكر في نفسه أو في أسرته أو مصالحه على حساب بلده، فقد أخلص للقضية، وأبى أن يفر من الزحف، بل رأيناه يتشبث مع بلدييه بتراب بلده وبتراب جواره، وينتقل مع اللاجئين إلى دانية ومرسية أملاً في العودة إلى الرُّصافة والجسر والمسجد والمتنزهات.

وقد سبق له أن التجأ مع أميره أبي زيد صاحب أرغونة سنة ٦٢٦هـ، وعمره إحدى وثلاثون سنة، لكنه ما لبث أن عاد إلى بلده بعدما ذاق مرارة الغربة التي لم تستطع حلاوة المقام هناك من التخفيف من حدّتها وزُعاقها.

وقد دافع عن نفسه بأن تلك الهجرة كانت مشروعة فهي كهجرة الصحابة إلى الحبشة النصرانية للاحتماء بملك نصراني كتابي، ومعنى هذا أن هجرته كانت لخدمة قضية بلده، لكنه كيف خدمه؟ فذلك ما لم يطلعنا عليه، كما ضيع علينا معلومات ثمينة عن العلاقة بين إمارة بلنسية ومملكة أرغون في هذه الحقبة، ولكنه قال ما يلي:

قالوا الخروجُ لأرضِ الروم منقصةٌ
فقلت كلا ولكنْ صادُها باءُ

إذا خـرجت وفـاءً ثم عـدت تقىً
أثنت بفـعلي عُـداتي والأحبّـاءُ
وكـان لي في قريش أسوة وكـفى
مع النجـاشيِّ ترضـاها الألبّـاءُ

لمن كـان هذا الوفاء؟ لقضيـة بلده أم لأمـيره المرتبط به ببيـعة لا يستطيع الفكاك منهـا من دون مسوِّغ ، حتى إذا مـا أصر صـاحبه على البقاء في بلاد النصـارى فالعودة إلى بلاد الإسـلام واجبة.

وإني أستبعد أن يكون خروجه تم من دون موافـقـة شيخـه أبي الربيع سليـمـان بن مـوسى الكلاعي (ت: ٦٣٤هـ) وكذلك عودته.

أغلال الغربة

كان ابن الأبّار شخصية جديرة بأن يستقبلها الأرغونيون بكل تقدير، ويحيطوها بكل احترام، لكنه كان يشعر بقسوة الحسرات وهو يرسف في أغلال الغربة فلم يرض بتلك الإقامة:

وكـفاك أن الروم كانت جيـرتي
من جَوْرِ دهري واستحالةِ حالي
كنتُ الطليقَ هناك لكن لم أزل
من شـدةِ الحسراتِ في أغلال
أبكي على استئصال من خلّفته
وأطيلُ في الأسحار والآصال

وهذه الأغلال لم تكن سوى آلامه المتراكمة بمفارقته وطنه وأهله واستقراره، مما لم يجد معه صبـراً ولا جلداً، ولم يكن له من ملاذ سوى الاعتصام بحمد الله على الحال التي أصبح عليها من حرب الزمان له بعدما كان مسالمًا معه مدة معينة سرعان ما انقضت إذ يقول:

الحـمـدُ لله لا أهلٌ ولا ولدُ
ولا قـرارٌ ولا صبـرٌ ولا جلدُ
كـان الزمانُ لنا سلمًا إلى أمدِ
فعاد حربًا لنا لمّا انقضى الأمدُ

وكثيراً ما صعّد الزفرات شوقًا إلى أهله وذويه كما يقول:

إلى الإلفـيْنِ من أهلٍ ودارِ
تأوّبني اشتـياقي وادّكاري
وحنّ القلب أعشـارًا إليـهـا
حنين الوالهـاتِ من العشـار
فبت كأنني توقًـا وشـوقًـا
على مـثل الأسنة والشِّـفـارِ
ومـا حشو الضلوع سوى أوارِ
ومـا نومُ الجفون سوى غِرارِ

كيف العودة؟

لقد كان تعلقه ببلنسية ومنازلها أقوى من كل إغراء، ولكن كيف يعود؟

لعله غامر في العودة إلى الأندلس الإسلاميـة إذ نجده في وادي آش في شـوال ٦٢٦هـ، مما يدل على أنه لم يكن يمكث طويلاً عند الأرغونيين، ومن هناك - فيما يبدو - صار يراسل صديقه أبا الحسين الخزرجي حاكم شاطبة، واستهل قصيدته الأولى بذكر بلده وجنّاته، يقول:

جَنَاني عـامرٌ بهـوى جِناني
وإن صـدَعَت برحلتهـا جَناني
وطرفي ليس يعنيـه سـواها
ولو عَنّت له حُـورُ الجِنانِ
وقـاد إلى هواها القلب قـهـرًا
فأصـبح في يديهـا القلب عانِ

وفيها يبث آلامه وأحزانه ويصف واقعه المظلم الذي يحاصره بالأخطار، فلا يشعر بأمل لا في الذهاب ولا في الإياب، وهو تصوير دقيق لحالته النفسية بل لوضعه الحرج الذي وقع فيه إثر خروجه من بلنسية فارًا مع أميره، يقول:

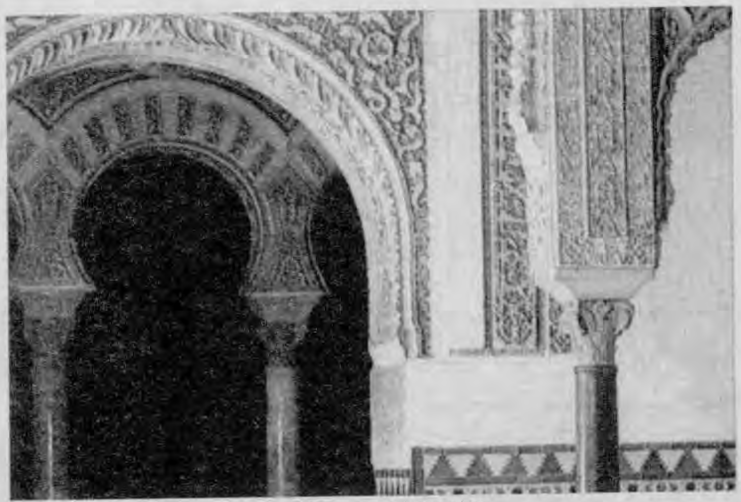
أمـا إنّ الليـالي غـالبـات
ولو يُغـرَى بنصـري الفرقدانِ
إذا لم ألقـهـا بِعُلا ابن عيـسى
وحسبي من حُسام أو سِنانِ
فلستُ من الإياب على يـقينٍ
ولستُ من الذهاب على أمـانِ
فـإنّ أبا الحسين ينال منهـا
منالَ الذُّعرِ في قلب الجبـانِ
يُنهنِهـهـا متى انهدّت لحـربي
ويأخـذُ لي الأمـان من الزّمـانِ

باب الأمل

ويبدو أن أبا الحسين بذل للرجل ضروبًا من المعروف، وفتح له باب



من قلاع الأندلس



الفناء الداخلي لقصر إشبيلية

الأمل ليعود إلى بلده معززًا مكرمًا، فهو الذي ظاهره على الليالي، وأخذ له الأمان من الزمان الذي أعلن عليه الحرب، وبذلك أصبح في ظلّ حاكم شاطبة كباقي الرعية كلها في حرز وضمان من الدهر وأذيته وامتهانه. وقد شاهد عيانًا في أبي الحسين أكثر مما كان يحدِّث به نفسه، وهكذا استعادت أجنحته ريشها المقصوص بمقصّ الظلم، كما صارت راحته تجني أغلى الأماني وتقطف ثمارها من قممها الشماء. يقول:

وجئتك سُؤرَ أيام لئام
أعاني من أذاها ما أعاني
ومثلك رقّ سؤدده لمثلي
فأجنى راحتي شمّ الأماني
وراش جناحيَ المقصوصَ ظلمًا
وأنساني الأحبة والمغاني

وهكذا أصبح ابن الأبار يتمتع في شاطبة بربيع زاهر دائم متصل صيفًا وشتاءً، لا سعير ولا زمهرير، ومع ذلك فإن بلنسية هي بلنسية، فهناك الرصافة، وهناك المصلّى، وهناك الجسر والحدائق الغناء والجنان الفيحاء، وهناك شيوخه وأصحابه، وهناك مراكزه ومسؤوليته، إذن فالعودة مُحَتَّمة، لذلك نراه ينتقل إليها بعد محاولات بذلت من الداخل والخارج من دون شك لتحقيق هذا اللقاء. لقاء الشاعر الوزير بحبيبته: بلده بلنسية.

وفي العودة تحمل مسؤولية جديدة.

بطولة قائد

وقد دشن عودته بقصيدة رائعة في قائدها الجديد ورفيقه القديم في البلاط الراحل، والقصيدة إشادة ببطولة القائد الأمير الذي اضطلع بمسؤولية الدفاع عن بلنسية، وإذا ما صدقنا ما جاء فيها - ولا شك أنها لا تخلو من أصل الحقيقة مع بعض المبالغات - فإن جيش بلنسية بقيادة جميل حقق انتصارات متعددة على الأرغونيين لكن تحت الراية السوداء التي تدل على ولاء هذه الإمارة الصغيرة النائية للخلافة العباسية المشرفة على الهلاك من جانبها أيضًا. وإن كان ولاءً ظرفيًا سرعان ما تحول نحو الحفصيين.

فكأن ابن الأبّار يسوِّغ عودته إلى بلنسية بكون الإمارة الجديدة تبنّت قضيتها، وهو ما دفعه للإشادة بهذه القيادة التي تضمن لبلده البقاء والاستمرار، وللأرغونيين اليأس من الانتصار.

والقائد الجديد لا يقف موقف الدفاع فحسب، وإنما تجاوز ذلك للهجوم والتوغّل في عقر دار الأعداء.

يقول ابن الأبّار واصفًا أبا زيان جميل بن مدافع:

وتغزو العدا في عقرها متتابعًا
وحسبُك غزو في العِدا متتابعُ
فتلغي ديار المشركين ولم تزَل
أواهل قد أصبحن وهي بلاقعُ
ولاذوا بأعلى الراسيات توقّعا
لما سوف يغشاهم وما حُمَّ واقعُ
فلم تأل هَدًا أرضَهم واستباحة
تجاذبهم أطرافها وتنازع

ويتكلم على علاقته بالأمير واعتذاره عما كان منه:

وأشدو بما طوّقتني من صنائع
جِسام كما تشدو الحمام السّواجع
فيصدح مني باعتمادك صادح
ويصدع مني باعتمادك صادعُ

الحقيقة المرة

تولى قضاء دانية سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م، ثم الوزارة ببلنسية، وقد خلف قصائد تتحدث عن همومه التي كانت تشغل عواطفه، وتحتل بؤرة تفكيره، وملكت عليه كيانه.

ففي القصيدة السينية المشهورة لم نجد له فيها أي إشارة إلى شخصيته من حيث منفعة تخصها، وإنما هناك أبيات قليلة في أواخر القصيدة يشير فيها إلى أن السعيد من يلقى الأمير ويبشر نفسه بتحقيق آماله فيه، كأنما خاض إليه

البحر طريقًا يبسًا فوجد الجود في استقباله، ثم يعود إلى الموضوع الذي من أجله سافر وكأنما قدم لآخر القصيدة بتلك المقدمة الصغيرة من أجل التأثير وتحقيق ما من أجله وقف هذا الموقف، فهو يريد إنقاذ الأندلس عمومًا، وشرق الأندلس خصوصًا، وبلنسية بصفة أخص. وقد وضع أمام الأمير صورة الواقع كما هو ليس فيه تزيد أو تزييف. السبيل إلى إنقاذ الأندلس دَرَسَ. فليس من السهل إذن نجاتها مما هي فيه.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إنّ السبيل إلى منجاتها دَرَسَا

لقد فاجأهم بالحقيقة المرة، ولكن الأمل قوي في الحفصيين الذين يخاطبهم باسم الأندلس، فالأندلس تعاني حُشاشتها ما تعاني من سكرات الموت وحشرجات الاحتضار بما يعتورها من بلايا صباح مساء. ففي كل مطلع شمس تحل بها بائقة، وفي كل مغرب تنزل بها كارثة، تتناوبها الويلات والمصائب، لا تكاد مصيبة تفارقها حتى تنقض عليها أخرى، فهناك مدائن ارتحل عنها الإيمان مبتئسًا مذعورًا بينما حلها الإشراك مبتسمًا مسرورًا. أما المساجد فهي تستحق الرثاء، وتستوجب الإنجاد إذ عادت بيعًا وكنائس، وتحوّل بها الأذان إلى أجراس ونواقيس. كما أن مدارس العلم والمعرفة قد اندرست معالمها، وطمس وجودها مما يثير في النفس الألم والحسرة.

أما المرابع الجميلة والحدائق الغناء والأشجار الباسقة والزهور المتفتحة النضرة فقد صوّح نبتها ويبست أغصانها، وجفت خضرتها وتساقطت أوراقها، وتغيّر كلُّ شيء جميل فيها.

ومما يضاعف الآلام أن الأندلسيين أصبحوا جُزُرًا وقطعًا مفرقة تنهشهم الأحداث، واستحال حظهم السعيد السالف شقاءً وبؤسًا.

ويبرز ابن الأبّار عنصر العرْض لُبَّ المأساة ليستثير همم الحفصيين، فقد أقسم الروم ألاّ تنال أيديهم بالقسمة والتوزيع إلا نساء الأندلس المحجبات المصونات.

واختار من مدائن الأندلس حاضرتها الكبرى قرطبة، وحاضرة الشرق بلنسية، فإن في حالتهما وما تعانيه كلٌّ منهما ما يقضي ويستنزف النّفس، وإن كان قد خصَّ بلنسية بتأكيد خاص:

وانصر عبيدًا بأقصى شرقها شرقت
عيونهم أدمعا تهمي زكًا وحسا

وهو كما قلنا يشيد بما لقيه من حسن الاستقبال وكرم الوفادة، لكنه سرعان ما يتخذ ذلك وسيلة لخدمة الغرض المقصود وتحقيق هدفه، فإنه يوحي للأمير أن الإجماع والتواتر على أنك الوحيد الذي يجدر أن يُحيي الأندلس بقتل محتليها:

وقد تواترت الأنباء أنك من
يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا

ويعود إلى بلنسية وقد نجحت سفارته تصحبه نجدة حفصية، كاستجابة فورية، اقتنع أنها كافية لإنقاذ بلنسية، وبذلك ستكون فتحًا جديدًا يذكّر بفتح مكة، لذلك استحق منه ذلك قصيدة على غرار قصيدة حسان بن ثابت رضي الله عنه أنشأها بمناسبة الفتح. وقصيدة ابن الأبّار كلها وصف لأسطول الحفصيين الذي يقلُّ على متنه أُسودًا عظامًا كما يمدح فيها الأمير الحفصي الذي هو وحده الجدير بعلاج الخطْبِ الذي حل ببلنسية.

لكن هذه النجدة لم تستطع أن تحقق أمل ابن الأبار لا في الإنقاذ ولا في دفع الحصار. مما جعل البلد يُقرر الاستسلام فكان ابن الأبّار هو المفاوض في هذا الأمر.

على الرغم من ذلك فإن الشاعر الوزير لم ييأس من استعادة بلده أو من المحافظة على ما تبقى من شرق الأندلس كدانية ومُرْسية على الأقل، لأنه وجد في تونس من يستجيب لندائه وينفعل لشعره ويتأثر لصراخه. فعاد إليها مرة ثانية ليناشد الأمير أبا زكريا إعادة الكرة لإنقاذ الأندلس خصوصًا وقد حمل إليه بيعة بعض مدنها.

هي دارك القصوى أوت لإيالة
ضمِنت لها مع نصرها إيواءها

وهو يعيد على مسامعه الآن أنباءها التي بثها إليه في السفارة الأولى:

مولاي هاك معادةً أنباءها
لتنيل منك سعادة أبناءها

كان ابن الأبّار يغتنم كل فرصة للإشادة بارتباط الأندلس بالدولة الحفصية ارتباط ولاء وتبعية

فالأندلس ليس لأهلها سبيل إلا الضراعة والتوسل إليك، كما أن أهلها خلعت قلوبهم لباس الصبر ورداء السلوان، ذلك أنهم دُفعوا دفعًا لتفترسهم الخطوب بشتى أنواعها، تلك التي عرفتموها سابقًا وأخرى جديدة، وهكذا أشرفت على الهلاك والموت، فلم يبق منها سوى نبضات متقطعة، وقد قدم صورًا لمآسٍ حلت ببلنسية بعد ضياعها، وصار يشجع الأمير بأساليب متعددة من أجل إنقاذ الجزيرة التي يريد العدا الاستيلاء عليها، وقد حاول أن يغريه لقيادة جيش النجدة بنفسه. إذ يقول:

بشرى لأندلس تُحبُّ لقاءه
ويُحبُّ في ذاتِ الإله لقاءها

كان ابن الأبّار يغتنم كل فرصة للإشادة بارتباط الأندلس بالدولة الحفصية ارتباط ولاء وتبعية، من ذلك قوله في قصيدته التي يسجل فيها بيعة بعض المدن الأندلسية لأبي زكريا، وذلك نحو سنة ٦٤١هـ، يقول:

إلى مذهبٍ سنّته «سبتةٌ» قاصدِ
به عدلوا عن زائغات المذاهب
ألا هذه «حمص» تناسب طاعة
«سجلماسة» في رفضها للمناصب
وما خالفت «غرناطة» رأي ريّة
لتشمل أنوار الهدى كل جانب
و«جيان» لم تبرح «كشلب» و«طنجة»
مبارية هوج الصبا والجنائب

إلى أن يقول:

لأندلس البشرى بنصر خليفة
ضروب بنصل السيف زاكي المناصب

ورفع للأمير أبي زكريا قصيدة طويلة بمناسبة بيعة المَرِيّة عقب بيعة سبتة. ولعل مدنًا أخرى بايعت أيضًا، وسمي هذا العام عام الجماعة. إذ يقول:

لا مِرية أن إهطاع المرية في
أعقاب سبتة للإجماع إسعاد
عام الجماعة ما اعتامت ولا نغلت
فيما يقرر حُسبان وتعدادُ

تحريض

وعندما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في شعبان سنة ٦٤٦هـ، كان ابن الأبّار في بجاية. وبعد ذلك بثلاثة أشهر أنشد قصيدة موجهة إلى أبي زكريا، وكان ذلك بعد العفو عنه، وهي كلها تحريض وإثارة للحفصيين ليسارعوا لإنقاذ الأندلس بأسلوب يدل أن الأمر هين، وأن ليس بين الحفصيين والقضاء على محتلي بلنسية وغيرها سوى أيام قليلة، فأرض الأعداء قد استوجبت وأذنت بافتتاحها، إذ ليس وراء الليل إلا الصباح، إنهم ذئاب هيّجوا ليث الحرب والمعامع، وقد صور الأعداء بأنهم ضعفاء ومنهزمون، في حين صور الحفصيين في قوة واكتساح، وتحدث عن النجدة وكأنها أمر واقع إذ يقول للأندلسيين:

وعدت أندلس منه بيوم
هي لاستقباله في ارتياح
إن يكن عيدًا لنحر وذبح
كيف شاءت فالأعادي أضاحي
أحمى حمص أباحوا جهارا
وحماها لم يكن بالمباح
لا ويحيى المرتضى لا هناهم
بأليم القروح ورد القَراح
إنما يرقب ميقات فتح
هو آتٍ في ضمان النجاح

ولم يتحدث عن نفسه إلا في آخر القصيدة فقد أبرز فرحة عارمة بالعفو عنه، إذ يقول:

يدك العليا حبت كل حُذيا
ما لأرباحي بها من براح
بوركت من راحة سوَّغتني
في بكوري لثمها أو رواحي

كانت بيعة إشبيلية قبل ضياعها ذات أهمية وتأثير في بيعة الجزيرة وشريش. كما يظهر ذلك من قوله:

لله حمص وفوزها بسعادة
هَدَت الجزيرة نحوها وشريشا



كثيرًا ما اشتاق ابن الأبّار في المنفى إلى المرابع الجميلة والحدائق الغنّاء في الأندلس

لم ينس القضية

ويظهر جليًا أنه عندما استقرت به الأحوال في تونس لم يستسلم للحياة الإدارية التي تولى فيها منصبًا كبيرًا، فلم ينس القضية، بل ظلت هاجسه في كل مناسبة، ولذلك نجده يغتنم كل فرصة من أجل حمل تونس على إعلان الجهاد وإنقاذ المدن الأندلسية الضائعة أو المهددة. ويبدو ذلك في قصيدته التي أنشأها إثر نزوله بتونس ملتجئًا كما يفهم من قوله:

قرّت الحال بكم في نعمة
أنطقتني بالقوافي الشُّرَّدِ
تصف الروض وقد غنى بها
واصفًا سجع الحمام الغردِ

وهي مملوءة بوصف شجاعة أبي زكريا وجهاده وتهديد الروم به يقول:

إن يكن طاغية الروم بغى
فظُبى الهند له بالمرصد
غرّه البعد وعن قربٍ يرى
جِزية الكُفر تؤدّي عن يد

إلى غير ذلك مما كان يتصور وقوعه على يد أميره الجديد.

ومن القصائد التي مدح بها أبا زكريا واصفًا أحواله الجديدة وحياته بتونس في ظل الحفصيين تلك التي مهد لها بمقدمة غزلية طويلة مادحًا الأمير بأوصاف مستفيضة من العلم والشجاعة والكرم، وربط ذلك بجهاده للكفار بالأندلس، يقول في آخر قصيدة طويلة:

وهذي ملوك الروم تشخص رسلها
بسلمك تبغي للسلامة سلّما
ويُغزى جناب طال بالغزو عهده
ويفتح باب كان للكفر مبهما

وهنا حقيقة مهمة لم تسجل في التاريخ أو على الأقل في تاريخنا، وهي السفارات الأرغونية أو غيرها إلى تونس في شأن تنظيم العلاقات الحربية والسلمية بين الجانبين.

أبرز ابن الأبَّار عنصر العِرْضِ لُبَّ المأساة ليستثير همم الحفصيين، بعد أن أقسم الروم أن تنال أيديهم نساء الأندلس المحجبات المصونات

كان ابن الأبّار شخصية قوية مفرطًا في الإعجاب بنفسه، وزادته الغربة حدة في طبعه مما جعله يجأر بالشكوى، وكان يبث هذه الشكوى خلال قصائده الاعتذارية وخلال نفثاته الحزينه التي كانت أشواقًا إلى وطنه، ووصفًا لجماله، وترديدًا لذكريات جميلة في رياضه وحلقاته العلمية ومجالس أصحابه ، ومدارج ألعابه

يقول شاكيًا ضياعه، وأرجح أن تكون هذه الأبيات في تونس أو بجاية:

لام المحبّون الفِراق ولمتُه
لكنهم سئموا ولما أسأم
ظعنوا وهم قد ودعوا أوسلّموا
وظعنتُ غير مودّعٍ ومسلّمِ
فعليَّ فلتبك البواكي إنني
أخرجتُ من وطني ولست بمجرم
وأضعت يوم وُضِعتُ في أرض بها
يغدو الفصيح معظَّمًا للأعجم
لا أستريح بغير ليلٍ أليل
أشكو تطاوُلَه ويوم أيوم

الأنا والوطن

وقد مرت على الشاعر الوزير حقب كان الحديث فيها عن نفسه ممزوجًا بوطنه وقضيته، فالجراح ملكت عليه جوارحه واستبدت بها، لاتخلو جارحة من جرح ينزف دمًا ، فلا أمل في شفائه، ذلك لأنه كوطنه عارٍ أعزل أمام هجمات الخطوب والكوارث المتجددة، وهو في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا شجر، بل إنه يسير في متاهاتها ليس له فيها من سبيل ولا قدرة على التخلص من الهلاك الذي يتربص به في كل ناحية كطائر مهيض الجناح، وحديثه عن وطنه مفعم أبدًا بالأسى والكمد إذ أسلم إلى العدو الذي هوى عليه بسيفه كالسفاح، في حين غاب عنه منصوره الذي كان يحمي حماه ويحوطه بالأمن والأمان.

يقول في ندب بلنسية:

ملكت جوارحه عليه جراحه
فشفاؤه لا يرتجى وسراحه
عار لأبكار الخطوب وعُونها
غِيضت موارده وهيض جناحه
لم يعترضه مساؤه بمساءةٍ
إلا وضاعفها عليه صباحه
وحديثه كمدٌ عن الأفق الذي
تصف الجنان تلالُه وبطاحُه
تجري حثيثًا تحته أنهاره
وتميسُ لينًا فوقه أدواحه

وكثيرًا ما ردّد تعلقه بوطنه ولاسيما بلنسية، وهو غير قادر على السلو عنها؛ لأنها ماثلة في قلبه

ونفسه وهي ملء السمع والبصر؛ لأن ذكرياته فيها جميلة وحميدة لا تنسى أبدًا:

إلى أوطانه حنَّ العميد
فظل كأنه غصن يميدُ
ومسقطَ رأسِهِ ذكَرَ اشتياقًا
فذاب فؤاده وهو الحديدُ
ولو رام السلو أبتْ عليه
معاهد عهدُها الماضي حميدُ

ويشبه نفسه بالشاعر العربي الصِّمَّة بن عبدالله القشيري الأموي:

ضميري واجد بهوى المصلَّى
كوجد أخي قشير بالضمار
لآمال به حسُنت وطابت
كما حُدِّثْتَ عن نَوْرِ العَرار
وما جار الغرام عليَّ حتى
تأكد بيننا سببُ الجوار

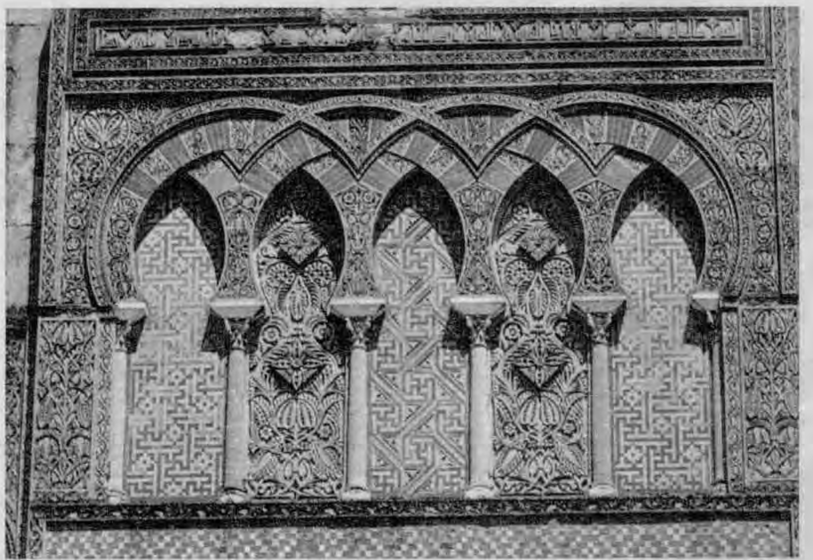
وهو في غربته كالحمام لا يفتر عن النواح، كلما ذكر شرق الأندلس تسحّ عيونه بالدموع كأنما تنسكب منها الغمام كلما لمع برق من تلك الجهات، حتى أصبح محسودًا على بكائه ونوحه من المطر والحمام:

أنوح حمامًا كلما ذُكر الشرق
وأبكي غمامًا كلما لمع البرق
ويغبطني في سكب أدمعيَ الحيا
وتحسدني في ندب أربعي الوُرْقُ

وفي قصيدة أخرى تجده يصدر أنّات حزينة على الماضي الجميل لبلنسية وواقعها الحالك، لذلك فهو يندبها ندب الطلول المندرسة مع أنها آهلة بالسكان، ولكن أي سكان؟ ويتوجع باكيًا ونادبًا بلدته ويخص منها عذوبة مائها وجناها:

بلنسية يا عذبة الماء والجنى
سقيت - وإن أشقيت، صوب الرواجس
أحب وأقلي منك حالاً وماضيا
بموحشة ألوت بعهد الأوانس
ومن عجبٍ أن الديار أواهل
وأندبها ندب الطُّلول الدوارس

وهكذا نجد ابن الأبّار يرتبط ببلده ووطنه الكبير والصغير، لذلك تجاوز ذكر الأندلس في ديوانه ثلاثين مرة،



جزء من واجهة المسجد الكبير الذي بناه الأمويون في قرطبة

وبلنسية بملاعبها وبساتينها ومصلاها وجسرها ورصافتها نحو ثلاثين مرة أيضًا، وأنيسته ومرسية وجيان مرتين كما ذكر كلاً من قرطبة ومالقة والمريّة وميورقة وشلب وإشبيلية بالإضافة إلى سبتة، كما عبر برموز كثيرة عن أماكن لهوه وصباه في وطنه الصغير بلنسية.

ولو بقي لنا ديوانه كاملاً لرأينا أكثر من ذلك وأصرح، غير أن الرجل لم يكن في جو من الحرية ليعلن عن جميع شعره الذي عبر به عن خوالج نفسه كشخصية أندلسية فذة لاقت جحودًا من ثلة لم تقدر مواهبه العظيمة ولا مكانته العلمية الكبيرة ولا انتماءه الحضاري الرفيع.

ومهما يكن من شيء فإن بعض مؤلفاته أيضًا تكشف لنا عن شديد تعلقه بوطنه كالتكملة لكتاب الصلة، والحلة السِّيراء، ومعاجمه لشيوخ الأندلس، وإعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب، وخضراء السندس في شعراء الأندلس، وإيماض البرق في شعراء الشرق.

لذلك وطن نفسه وألزمها أن تظل دائمًا وفية للوطن وذكرى مواطنيه، بسكب الدموع وتصعيد زفرات الأسى والحزن، وقد أصبح بذلك مشهورًا، إذ يحمل راية الأشجان على كبر سنه وضعف جسمه.

يقول في قصيدة رائعة له مخاطبًا نفسه:

وطّن على الدائبَين الدمع والشّجَنِ
يا نادب الذاهبَين الأهلِ والوطنِ
هذا فؤادي كالبرق الخفُوق أسًى
وهذه أدمعي كالعارض الهَتِنِ
يراحتي راية الأشجان أحملها
وإن غدا الجسم وَهْنًا ليس يحملني



البيولوجيا الجنائية والبصمات الوراثية

أحمد محمد خليل

عندما يحدث الإخصاب يرث المخلوق الجديد نصف محتواه الوراثي من أبيه، والنصف الآخر من أمه. ويمتلك كل فرد - باستثناء التوائم المتماثلة - نمطًا متميزًا وفريدًا من DNA، يحدد صفاته الشخصية المختلفة. ولا يتغيّر جزيء DNA في الشخص، بتقدم عمره، ولا يؤثر فيه نوع الغذاء أو الدواء، فالإنسان يحمل صفاته الوراثية، منذ نشأته حتى مماته. وبسبب تفرد DNA وثباته، فإن دراسته وتحليله، عن طريق البصمة الوراثية، يُستخدمان بصورة مقنعة وقاطعة، لتعرف هوية حامله. فالبصمة الوراثية، هي من أنا، ومن أنت، ومن هم، لا يتشابه فيها اثنان على وجه الأرض، إلاّ التوأمان المتطابقان.



وقد أصبحت البصمات الوراثية، من قرائن النفي والإثبات، التي لا تقبل الطعن أو الشك، ويُعترف بها في معظم محاكم أوربا وأمريكا؛ المدنية والجنائية، للفصل في كثير من القضايا المهمة. وبهذا، وضعت حداً لعمليات التلاعب بالنسب، وتزوير الحقائق.

وعلى الرغم من حداثة عمر البيولوجيا الجنائية، إلاّ أنّ هذا العلم، تطوّر بشكل سريع، وخطا خطوات واسعة، في الآونة الأخيرة، فأدخلت عليه التعديلات والتحسينات، التي زادت من أهميته في علم الجريمة، وأكّدت ثقة الخبراء الجنائيين به. وهذا المقال يقدم وصفًا للمبادئ والمفاهيم الأساسية، المتعلقة بهذا الموضوع، بصورة ميسرة، لخدمة ممارسي الطب والقانون، الذين لا تتوافر لديهم خبرة تدريبية في مجال الوراثة والبيولوجيا الجزيئية.

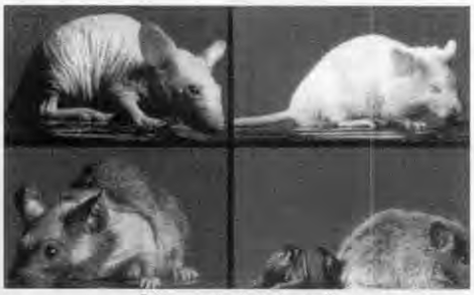
من المعروف أن أعضاء الجسم البشري، تتكوّن من مليارات الخلايا، وتوجد داخل كل خلية - باستثناء خلايا الدم الحمراء الناضجة - النواة التي تحتوي على الكروموسومات. وفي كل نواة خلية جسميّة، ويوجد(٢٣) زوجاً من الكروموسومات نصفها من الأب (من الحيوان المنوي)، والنصف الآخر من الأم (من البويضة). وتُشبه الكروموسومات الخيوط الرفيعة في مظهرها، وهي ملتفة ومكثفة، على هيئة شبكة. ومن الناحية الكيماوية، يتركب الكروموسوم، من بروتينات وأحماض نووية، والأحماض

أحمد محمد خليل

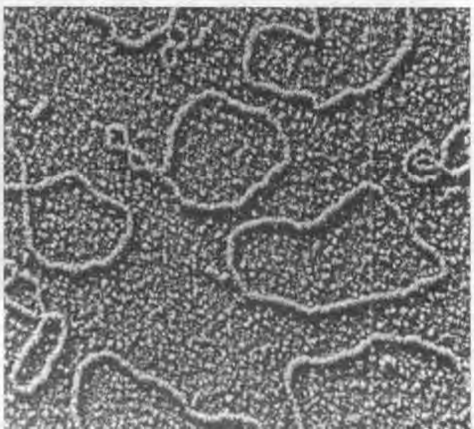
النووية نوعان: الحامض النووي الرايبوزي RNA، والحامض النووي الرايبوزي المنقوص الأكسجين DNA. ويمثل DNA، مادة الوراثة في معظم الكائنات الحيّة، ويتكون جزيء DNA من سلسلتين، تلتف إحداهما على الأخرى، مكوّنة لولبًا أو حلزونًا (الشكل ١).

وتتركب كل سلسلة من أربع وحدات أساسية، يطلق على كل واحدة منها اسم النيوكليوتيد، وهذه هي حروف لغة الوراثة. ويتألف النيوكليوتيد في DNA، من سكر خماسي (رايبوز غير أكسجيني)، ومجموعة فوسفات، وقاعد نيتروجينية.





فئران لها طفرات وراثية



بلازميد DNA تحت الميكرسكوب الإلكتروني

وتختلف النيوكليوتيدات بعضها عن بعض، في نوع القاعدة النيتروجينية الموجودة فيها، وهي تصنّف في DNA إلى بيورينات وبيريميدينات. وتضم القواعد البيورينية الأدنين A والجوانين G، أما القواعد البريميدينية فتشمل السيتوسين C والثايمين T. وترتبط النيوكليوتيدات، على طول السلسلة، بروابط تساهمية قوية، هي روابط الفوسفات الثنائية الإستر، وهي تتكرر آلاف المرات، بل ملايين المرات. ويمكن لأي من القواعد الأربع، أن تحتل أي موقع في السلسلة، فلو كان لدينا سلسلة، مكوّنة من (١٠) قواعد مثلاً، فإن عدد التتابعات المختلفة الذي قد ينتج من ذلك، يمكن تقديره بـ (٤ ١٠)، أي ٥٧٦ ر ٠٤٨ ر١.

إنّ موقع القواعد في DNA وترتيبها، هما اللذان يحفظان ويحددان الصفات الوراثية أو ما يسمى بالجينات أو بالمورثات عن طريق الشفرة الوراثية، ويوجد في الخلية الآدمية الواحدة، نحو ٠٠٠ر١٠٠ جين، وتتكون الشفرة الوراثية الواحدة، من ثلاث قواعد، وتحدد كل شفرة وراثية نوعًا واحدًا من الأحماض الأمينية الموجودة في الطبيعة. وهكذا، فإن ترتيب القواعد في الجين، هو الذي يحدد نوع الأحماض الأمينية وترتيبها وعددها في البروتينات اللازمة لحياة الكائن الحي.

وتتفاعل القواعد النيتروجينية المتقابلة في سلسلتي DNA، بطريقة خاصة، ومتميزة، بحيث يرتبط A و T برابطتين هيدروجينيتين، أما G، فيرتبط مع C بثلاث روابط هيدروجينية. ويفسّر لنا التخصص في اقتران القواعد بوساطة الروابط الهيدروجينية الضعيفة، بعض أسرار الحياة، المتمثلة في تضاعف المادة الوراثية، وتوزيعها بدقة وأمانة متناهيتين في أثناء الانقسام الخلوي. كما أنه يبيّن لنا كيف يمكن استخدام تقنيات DNA للحصول على البصمة الوراثية كما سنرى.

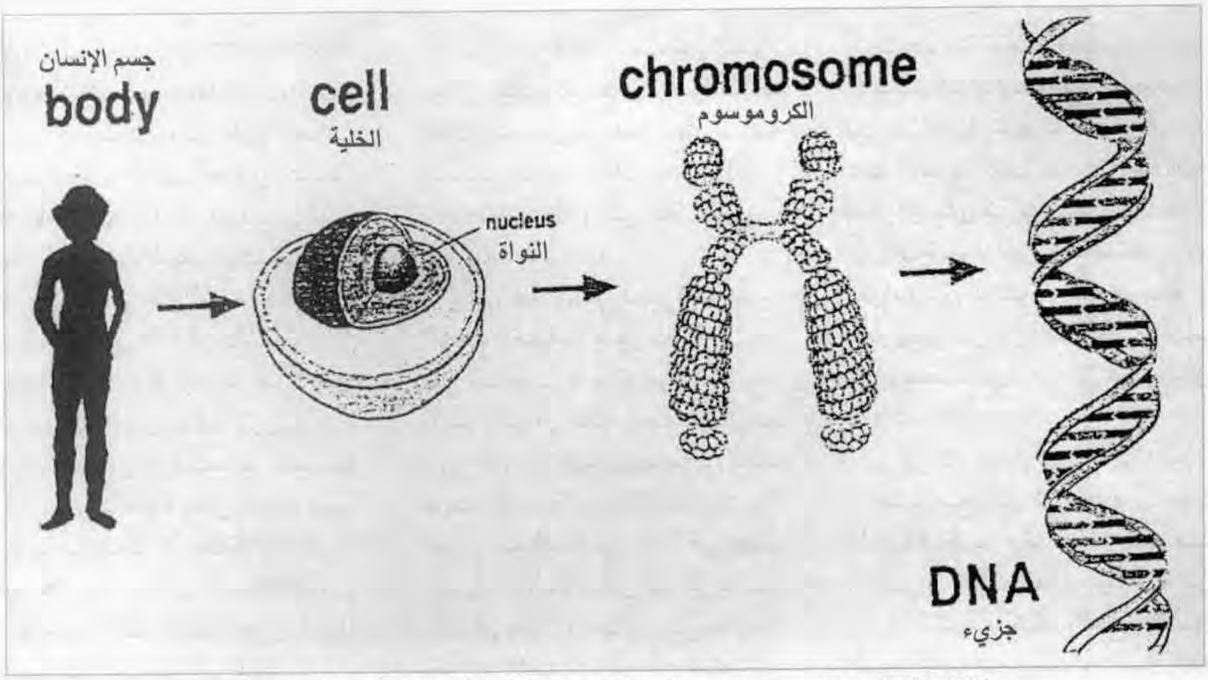
فإذا كان ترتيب القواعد في إحدى سلسلتي DNA مثلاً هو: -5'-T-T-G-A-C-T-T A-3' يكون ترتيب القواعد في السلسلة الأخرى كما يلي:

3'-A-A-C-T-G-A-A-T-5'، ولهذا، فإنه يقال للسلسلتين بأنهما متتامتان أو متكاملتان COMPLEMENTARY، ويطلق على كل قاعدتين متقابلتين، أي مرتبطتين عرضيًا، اسم زوج القواعد BASE PAIR, BP.

وعند تعريض جزيئات DNA، لدرجات حرارة معينة، أو لبيئات قلوية، تتكسر الروابط الهيدروجينية بين السلسلتين، وتنفصلان الواحدة عن الأخرى. وتسمى هذه العملية بالدنترة DENATURATION، وينتج منها سلسلتان أحاديتان أو مفردتان. ولا يتأثر ترتيب القواعد، على طول السلسلة الواحدة، بسبب قوة الروابط بين هذه القواعد. وإذا عُكستْ الظروف التي أدت إلى الدنترة، أي تم تبريد محلول DNA، أو إزالة البيئة القلوية، عادت السلسلتان إلى الارتباط معًا، كما كانتا أول مرة، مكونتين شريطًا مزدوجًا من DNA. وهذا ما يسمى بعملية الالتحام -AN NEALING، وتعمل مجسّات أو كواشف DNA ((DNA PROBES)، التي تستخدم في تحضير البصمة الوراثية، على هذا المبدأ.

المجسّات أو الكواشف

تمثل الكواشف عنصرًا رئيسًا في تحليل البصمات الوراثية. والمجسّ أو الكاشف قطعة قصيرة من سلسلة DNA أحادية معلمة بعلامة معيّنة، كالنظائر المشعّة، مثل نظير الفوسفور (P٣٢)، أو جزيء البيوتين -BIO TIN، لتسهيل متابعتها والكشف عنها. وفي العادة، يكون ترتيب القواعد في المجس معروفًا، ومناظرًا لجزء من DNA المراد فحصه. وعندما يُحْضَنُ المجس مع DNA أحادي السلسلة، فإنه يزدوج مع هذه السلسلة في المواقع التي تتواجد فيها قواعد متممة لتسلسل القواعد في المجس. وينتج من



الشكل (١): يتكون جزيء DNA من سلسلتين، تلتف إحداهما على الأخرى مكونة لولبًا أو حلزونًا

ذلك مناطق مزدوجة من DNA، يطلق عليها اسم المناطق المهـجّنة DNA HYBRIDS. وتعتمد قوة الارتباط بين جزء محدد من سلسلة DNA مستهدف، والقواعد في المجس، على درجة التكامل بينهما. فكلما قلت درجة التكامل، ضعفت القوى الرابطة، وأمكن التخلص من هذه الأجزاء بخطوات غسيل لاحقة.

وهناك نوعان من المجسات أو الكواشف المستخدمة في التحاليل الوراثية هما:

- الكواشف الفردية أو الأحادية الموقع SINGLE LOCUS PROBES: تستطيع هذه الكواشف تمييز جزء DNAالذي يوجد في موقع واحد فقط من الكروموسوم البشري. فهي تعتمد على موقع جيني واحد، يوجد على الكروموسومين المتناظرين، الذي يحدد صفة فردية للشخص، موروثة من أبويه مناصفة بينهما. وتُفضّل هذه الكواشف في قضايا إثبات البنوّة، وما شابهها، لأن نتائجها بسيطة وواضحة ودقيقة.

- الكواشف المتعددة المواقع MULTIPLE LOCUS PROBES: ترتبط هذه الكواشف بأكثر من موقع على الكروموسوم نفسه، أو على كروموسومات مختلفة.

ولذلك، فهي تستخدم للبحث عن معظم الصفات الجينية المنتشرة على أزواج مختلفة من الكروموسومات المتناظرة. غير أن النتائج المتحصل عليها في هذا النظام، معقدة نسبيًا، على الرغم من دقتها واعتمادها على الموازنة، في حالات الاغتصاب، وإثبات البنوّة.

إنزيمات التحديد أو التقييد

لمّا كان جزيء DNA مركبًا عملاقًا، فإنه لا يمكن دراسته بحالته الطبيعية. ولتسهيل ذلك، لابد من قطعه إلى أجزاء صغيرة، بوساطة إنزيمات خاصة تسمى إنزيمات التحديد RESTRICTION ENDONUCLE-ASES. وتضم هذه الإنزيمات طائفة من الإنزيمات التي يمكن عزلها وتنقيتها من الخلايا البكتيرية. وهي تستطيع تمييز تتابعات معينة من القواعد(٤) إلى(٦) قواعد في العادة، في جزيء DNA المزدوج، ومن ثم تشطره بطريقة خاصة، إلى شظايا مزدوجة محددة الطول. فعلى سبيل المثال، يستطيع الإنزيم ECO RI، المعزول من بكتيريا القولون، تمييز التوالي: G-A-A-T-T-C - . وعندما يقطع هذا الإنزيم جزيء DNA المزدوج، فإنه ينتج عند كل موقع قطعتين، لكل منهما نهاية لزجة أو لاصقة COHESIVE OR STICKY، تكون أحادية متدلية، كما في الشكل(٢). وتتيح الأطراف اللاصقة عملية وصل أو إدخال مقاطع من DNA، مأخوذة من مصادر مختلفة، للحصول على DNA مُطعّم RE-COMBINANT DNA، ولكن بشرط أن يتم تحضيرها بإنزيم التحديد نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن أي تغيير في تسلسل القواعد في الموقع الذي تميزّة إنزيمات التحديد، يؤدي إلى عدم تمييزها لهذا الموقع، ومن ثم، فإنها تخفق في قطعه. وهذا يؤدي إلى الحصول على قطع أطول، أو أقصر، من القطع الأصلية التي تنتج في العادة.

كيف يختلف DNA من شخص لآخر

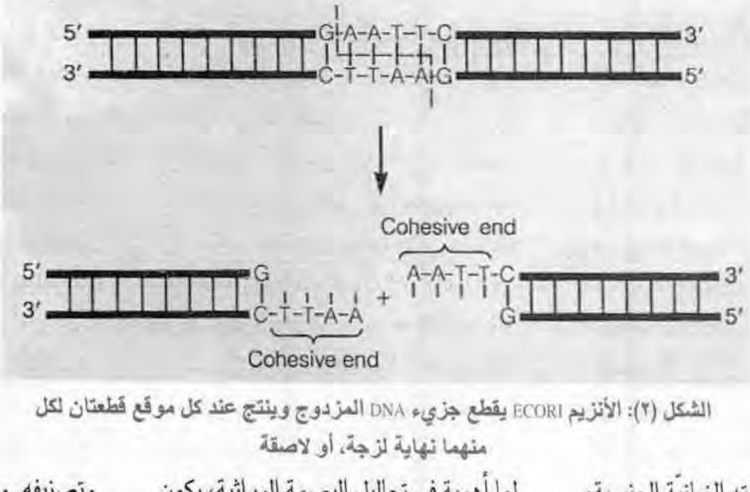
منذ أن كشف السير فرانسيس غالتون SIR FRANCIS GALTON عن الخطوط الحلميّة الموجودة في الأصابع في عام ١٨٨٢م راودت العلماء فكرة استخدام طرائق أخرى، لتعرف هوية الافراد، والتمييز بينهم. وقد حاولوا الحصول على معلومات إحصائية إضافية، باستخدام الاختلافات الفردية، في البروتينات، وسطوح الخلايا، مثل مجموعات الدم ABO،

وبروتينات المصل SERUM PROTEINS، والإنزيمات الشبيهة ISO - ENZYMES في خلايا الدم الحمراء، عن طريق فصلها وتمييزها بتقنية التحليل الهلامي الكهربائي GEL ELECTROPHORESIS، من أجل إثبات العلاقة بين المتهمين، وعينات الطب الشرعي. وعلى هذا الأساس كان يمكن استثناء ٩٠٪ إلى ٩٥٪ من الأشخاص، لأن بعض الاختلافات الفردية، إما أنها لا تظهر على مستوى البروتينات، لكون الشفرة الوراثية لبعض الأحماض الأمينية متكررة، وإما لأنه لا يمكن الكشف عنها بوساطة البروتينات، لأن هذه الاختلافات لا تغير هذه البروتينات إلى درجة كافية. وهذا يترك مجالاً للظن والجدل في أن العينة المقدمة قد تكون لشخص غير المتهم.

ولم تتحقق طموحات المختصين وأحلامهم، إلا في عام ١٩٨٥/١٩٨٦م على يد العالم أليك جيفري ALEC JEF-FREYS. وكانت شرطة الجوازات الإنجليزية اتصلت بالدكتور جيفري في عام ١٩٨٠م، للمساعدة في حلّ مشكلة طفل، قدم مع والدته الغانيّة الجنسية، ومنعته من دخول إنجلترا، بدعوى أنه ليس ابنها، واستطاع جيفري إثبات أن الشابة الغانيّة، هي بالفعل الأم الحقيقية للطفل المذكور، وذلك باستخدام فحوصات DNA. وقد كان اكتشاف جيفري تقنية البصمة الوراثية مصادفة بينما كان يدرس مناطق التنوع المفرط HYPER VARIABLE RE-GIONS في الجينات المسؤولة عن إنتاج الميوغلوبين، البروتين يحمل الأكسجين، في الأنسجة العضلية. وأصبح جيفري، وهو لا يزال في الثامنة والثلاثين، زميلاً للجمعية الملكية البريطانية، وحصل على درجة الأستاذية، في جامعة ليسيستر بإنجلترا. وبما أن العلماء المختصين توقعوا لتقنيات DNA الجديدة أن تحلّ محل نظام بصمة الأصابع التقليدية، فقد سمّوها (DNA FINGERPRINTS") "التي يطلق عليها أحياناً DNA TYPING.

وحتى نفهم الأساس العلمي لتقنية بصمة الأصابع الحديثة، لا بد من معرفة أن جميع بني البشر، تتطابق في ٩ر٩٩٪ من المحتوى الوراثي للخلية الحيّة. ويصل عدد أزواج القواعد النيتروجينية في الخلية الواحدة إلى ما يقرب من ثلاثة مليارات. ولا تحتوي هذه النسبة من DNA على جينات معروفة الوظيفة، وليس لها على ما يبدو تأثير في حياة الإنسان. وعلى هذا، فإن السرّ في الاختلافات بين أبناء البشر التي لها أهمية في تحاليل البصمة الوراثية، يكمن في البقية الباقية من DNA، وهي (١ر٠٪)، والذي يمكن ترجمته إلى نحو ثلاثة ملايين زوج من القواعد. أي إنّ هناك موقعاً واحداً، بين كل ١٠٠٠ زوج من القواعد، مختلف أو متنوّع بين الآدميين، نرثه عن آبائنا وأمهاتنا، ونمرّره إلى أولادنا وأحفادنا، جيلاً بعد جيل.

وتتكرر هذه الأجزاء عدة مرات بصورة متلاصقة TANDEM REPEATS وهي تشكل الأساس، الذي يستخدم للتفريق بين الأفراد، بدرجة عالية من الكفاءة، وتحديد ذاتية الأثر، في كثير من القضايا المهمّة.



الشكل (٢): الأنزيم ECORI يقطع جزيء DNA المزدوج وينتج عند كل موقع قطعتان لكل منهما نهاية لزجة، أو لاصقة

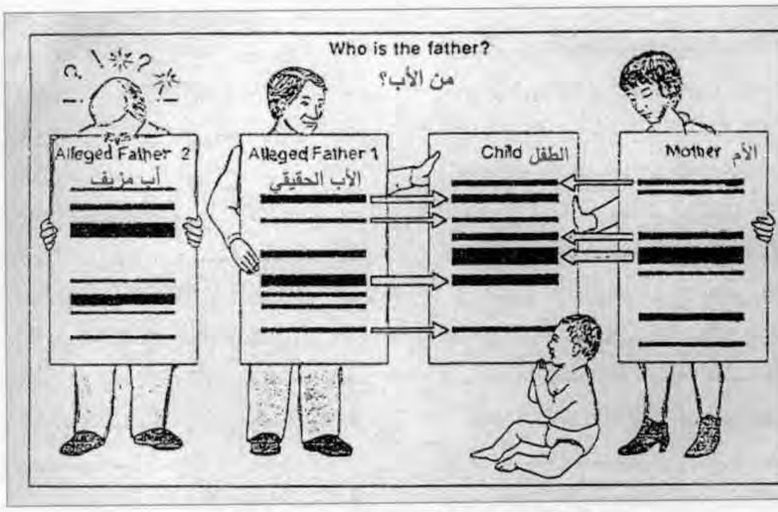
وتورّث هذه الأنماط المختلفة في تسلسلات DNA، بصورة ثابتة طبقًا لقوانين مندل في الوراثة. كما أنه يمكن الكشف عنها، بوساطة المجسّات، لأن هذا التنوّع يمكن أن يكون في موقع واحد من الكروموسوم أو في مواقع متعددة من الكروموسوم الواحد أو الكروموسومات الأخرى. ويُشار إلى الاختلافات في ترتيب جزء محدد من DNA، بين فرد وآخر، بالأليلات ALLELES.

طرائق تحليل البصمة الوراثية

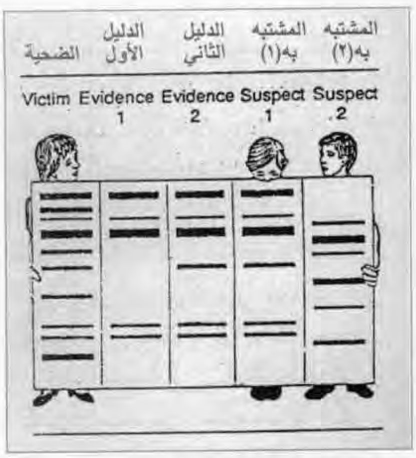
بعد تجميع الآثار البيولوجية، والمخلفات الآدمية في مسرح الجريمة، أو على جسم الضحيّة، التي ترتبط بصورة مباشرة بإفرازات الجسم، كالدم واللعاب والسائل المنوي والإفرازات المهبلية، أو بأنسجة الجسم المختلفة، مثل جذور الشعر وبقايا الأظافر والجلد والعظام، وغيرها من الآثار المادية، يتم تحديد الطريقة التي يمكن أن تُتّبع للحصول على البصمة الوراثية بناء على طبيعة العينة وكميتها. وقد يستغرق عمل البصمة الوراثية، مدة تراوح بين ٥ أيام و ٣ أسابيع، اعتماداً على نوع الحادثة والطرائق المختارة لفصل DNA وتصنيفه. ومن أهم هذه الطرائق ما يلي:

أولاً: البصمة الوراثية باستخدام مناطق DNA المختلفة الأطوال والتوزيع - RFLP - UNTR METHOD:

وتعتمد هذه الطريقة لتحليل DNA على تمييز الأشخاص طبقًا لطول أو عدد تكرارات معينة في DNA. وتنتج هذه الاختلافات من طفرات وراثية سابقة، تسبب استبعاد المواقع التي كانت تميزها إنزيمات التحديد. ولذلك فإن المنطقة نفسها في المحتوى الوراثي تُقطع، بوساطة إنزيم التحديد نفسه، إلى أجزاء مختلفة في الأشخاص المختلفين. أي إنه يمكن الحصول



الشكل (٣ أ): تمييز البصمة الوراثية في قضايا إثبات النسب



الشكل (٣ ب): الدليلان الأول والثاني يشيران إلى أن المشتبه به رقم (١) هو الجاني الفعلي

على خليط من قطع DNA المختلفة في طولها، ويطلق على هذه القطع اسم RE- STRICTION FRAGMENT LENGTH POLYMORPHISMS أو RFLPS اختصاراً. وعلى الرغم من اختلاف هذه المناطق في طولها، إلا أن كلاً منها يحتوي داخله على تسلسلات من القواعد، بطول ١٠ إلى ١٥ قاعدة مشتركة بين كثير من هذه المناطق. ومن الأمثلة على مناطق RFLPS، بعض التسلسلات التي تعيد نفسها، وتتكرر بصورة متلاصقة، وهي تختلف بدرجة كبيرة من شخص إلى آخر، وتسمى مثل هذه التكرارات في الموقع الواحد VARIABLE NUMBER TANDEM REPEATS، واختصاراً VNTR، وتورّث هذه الأنماط أو العلامات الوراثية، من الأم والأب بالتساوي. وقد استخدمت مجسّات VNTR، المشتقة من جين الميوغلوبين في الإنسان، لزيادة القدرة التمييزية لأنماط RFLPS. فلو كان تسلسل القواعد في DNA من شخصين (أ) و (ب) على النحو التالي:

أ- -- AATTGC AATTGC AATTGC

ب- -- AATTGC AATTGC AATTGC AATTGC AATTGC -

فإن طول التكرار في الحالتين، هو ست قواعد. لكن عدد التكرارات في DNA الشخص (أ) هو (٣)، أما في DNA الشخص (ب)، فهو (٥). وقد يكون الاختلاف الشخصي في طول التسلسل نفسه.

وللحصول على مناطق DNA، لشخص ما، يُستخلص DNA من الخلايا الموجودة في أحد سوائل الجسم أو أنسجته للتخلص من باقي المكونات الأخرى للخلايا، باستخدام إنزيمات هاضمة للبروتينات. ويتبع ذلك فصل البروتينات المدنترة باستعمال واحد أو أكثر من المذيبات العضوية، مثل الفينول والكلوروفورم. وبعدها، يصبح DNAجاهزاً للقطع، بإنزيمات التحديد. ويمكن التعرف إلى قطع DNA الناتجة، ومن ثم الشخص الذي أخذت منه عن طريق التحليل الكهربائي، على هلام الآجاروز، المضاف له مادة بروميد الإثيديوم. وتتحرك قطع DNA الصغيرة بسبب شحنتها السالبة باتجاه القطب الموجب بسرعة أعلى من حركة القطع الكبيرة. وبعد فترة من الزمن يمكن مشاهدة أشرطة أو حزم BANDS من DNA، تحت الأشعة فوق البنفسجية. وبعد هذه المرحلة من التحليل يُستخدم مجسّ أو كاشف خاص لتتم رؤية المناطق (الحزم) المختلفة في السُّمْك، بتقنية تسمى SOUTH- ERN BLOTTING. ويتضمن ذلك تثبيت نمط الأحزمة، بوساطة نقلها من الهلام إلى ورق غشائي خاص، من النايلون أو السيلوفان NITROCELLULOSE MEM- BRANES. والهدف من هذه الخطوات هو إجراء عملية التزاوج أو التهجين بين الكواشف التي تُختار بعناية طبقاً للحالة وطبيعة العينة، وتسلسلات DNA في القطع المستهدفة. وبعد هذه العملية، تصور النتائج بطريقة التصوير الشعاعي الذاتي AUTO- RADIOGRAPHY، على أفلام الأشعة السينية (أشعة إكس). وقد تُدخل المعلومات في نظام آليّ مبرمج، ليتم تحليل هذه النتائج، وإبداء الرأي الفني فيها.

وتعتمد القدرة التمييزية للبصمة الوراثية المأخوذة بهذه الطريقة على عدد مواقع الاختلافات، وعلى عدد المرات التي تتكرر بها هذه الاختلافات بين الأفراد. وعند تحليل عينات بيولوجية من عدة أشخاص نجد أنه إذا كان الاختلاف في موقع واحد، فإن الحدّ الأقصى للحزم التي يمكن مشاهدتها، من كل عينة، هو اثنتان، واحدة من كل كروموسوم، في زوج الكروموسومات المتماثل، وتمثل الحزمة الأولى ما يرثه الشخص من أبيه، بينما تمثل الثانية ما يرثه من أمه. وعلى صعوبة استخدام وتفسير نتائج الكواشف المتعددة المواقع؛ لأنها تعطي نمطاً متعدداً من الحزم، قد يصل إلى ٣٠ أو ٢٠٠ حزمة منتشرة في مواضع مختلفة BAR - CODE PAT- TERNS، إلا أن العلماء يفضلونها؛ لأنها تُضْفي قدرة تمييزية عالية عند تحليل البصمة الوراثية، وبخاصة في قضايا إثبات

النسب (الشكل ٣ أ)، والجنايات الكبرى (الشكل ٣ ب). ويمكن تحديد ذاتية الفرد بصورة تكاد تكون قاطعة، فالصورة (٣ أ) تشير إلى أن الأب الحقيقي للطفل موضوع النزاع هو الأب رقم (١). أما في الصورة الثانية (الشكل ٣ ب)، فيتضح أن المشتبه به رقم (١) هو الجاني الفعلي المعتدي على الضحية، لأن الدليلين الأول والثاني ضده.

ثانياً: البصمة الوراثية باستخدام تفاعل البلمرة المتسلسل وتحديد مناطق التكرار القصيرة في DNA ((PCR - STR METHOD)):

لوحظ أن بعض تكرارات VNTR، تُبدي قدراً معيناً من التشابه في المظهر، لدرجة أن معظم الناس تقريباً يكونون متخالفي القران HETEROZYGOTES لهذه الصفة. ولهذا، فإن استخدام أحد كواشف VNTR الأحادية الموقع لا يمكن تطبيقه للتعريف بين عينات DNA على مستوى الفرد. ولابد من اللجوء إلى كواشف VNTR الأكثر حساسية مثل YNH24، EDF64، أو CMM 86 وغيرها. إضافة إلى ذلك، فإن بعض الكواشف المستخدمة في طريقة RFLP - VNTR يمكن أن تميز وترتبط إلى تسلسلات من DNA، يشترك فيها الإنسان مع حيوانات أخرى، كالطيور والكلاب والقطط. وهذا يستدعي ضرورة تحديد نوع الكائن الحيّ عند تحليل البصمة الوراثية.

ومن ناحية أخرى، تتطلب تقنية RFLP-VNTR، لتحديد البصمة الوراثية عينة بيولوجية كبيرة من DNA محفوظة في حالة جيدة لا تؤدي إلى تلفها. ولأنّ توافر عينة مناسبة للتحليل بين المخلفات الجنائية أمرٌ غير قابل للتحقيق؛ فإن معظم العينات التي يمكن مواجهتها في مسارح الجرائم وحالات الطب الشرعي تكون قليلة جداً. كما أنها غالباً ما تكون مختلطة أو قد تعرّضت لعوامل جويّة مختلفة من الحرارة والضوء والرطوبة وغيرها، مما يؤدي إلى تحلّل DNA في هذه الكميّات الصغيرة، ويُضعف صلاحيتها، لأغراض الكشف عن هذه العينات، بصورة دقيقة.

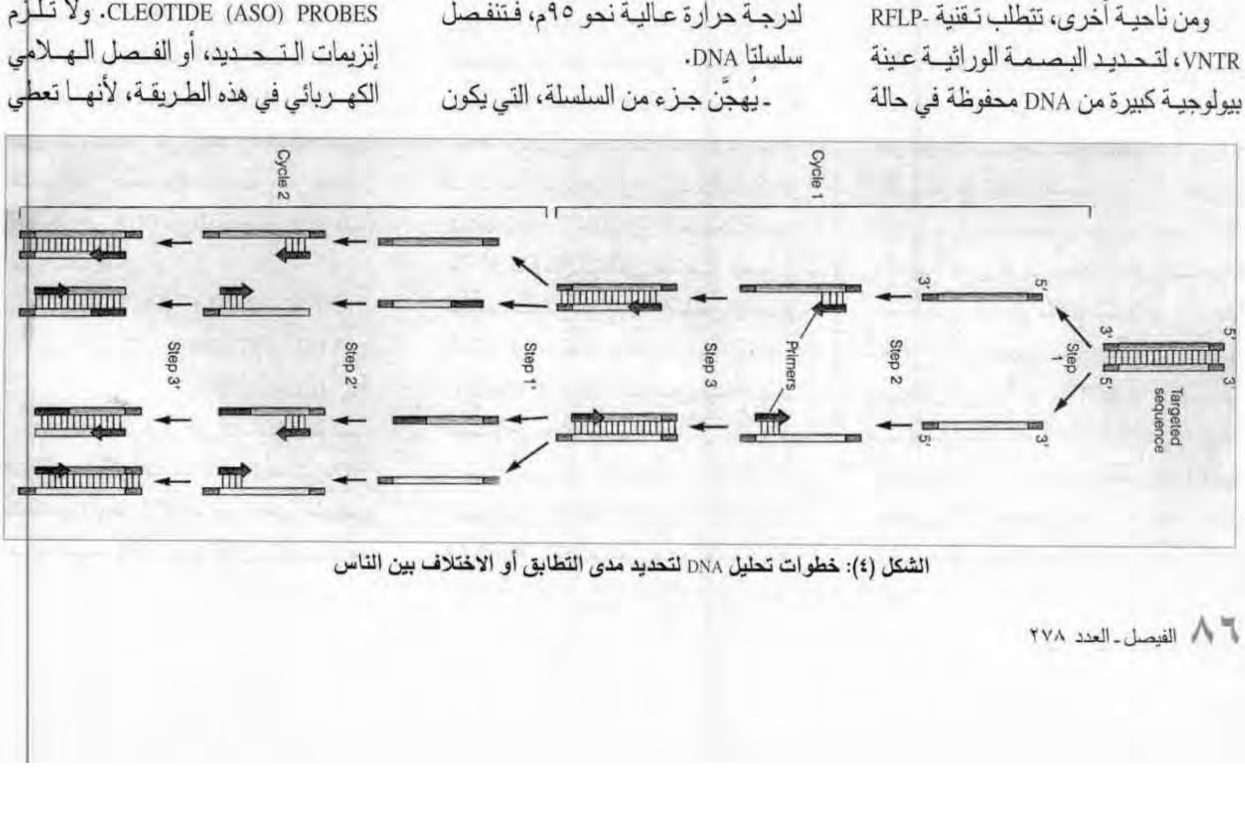
ولتذليل هذه العقبات لجأ العلماء إلى إستراتيجية أخرى، مساندة أو بديلة، لاستغلال العينات القليلة أو القديمة، من أجل الحصول على نتائج أدّق، لتحديد مدى التطابق والاختلاف بين الناس. وتعتمد الآلية الجديدة على تفاعل البلمرة المتسلسل PCR، أي POLYMERASE CHAIN RE-ACTION، ويُمكّن هذا التفاعل من إكثار تسلسل قصير من DNA، بحدِّ ذاته ومضاعفته. وتشمل خطوات هذا التفاعل عمليات معقدة، ومتكررة، من التسخين والتبريد، واستعمال بعض الإنزيمات الخاصة (الشكل ٤). ويمكن تلخيص هذه الخطوات على هذا النحو:

- تتم دنترة جزيء DNA المستهدف، بعد استخلاصه من العينة الجنائية، بتعريضه لدرجة حرارة عالية نحو ٩٥°م، فتنفصل سلسلتا DNA.

- يُهجَّن جزء من السلسلة، التي يكون فيها تتابع القواعد معروفاً إلى المناطق الطرفية في عينة DNA المرغوب فيها.

- يقوم إنزيم بلمرة (DNA POLYME-RASE) DNA، مستخدماً النيوكليوتيدات الأربعة الثلاثية الفوسفات (DATP, DGTP, DCTP, DTTP)، كمواد خام، ببناء سلسلة جديدة من DNA. ويتحدد ترتيب القواعد في هذه السلسلة، طبقاً للترتيب الموجود في السلسلة القديمة، أو السلسلة القالب TEM-PLATE STRAND، التي تكون مرتبطة جزئياً بتسلسل قصير يدعى البادئ. ويشبه البادئ المجسّ، في أنه قطعة صغيرة، أحادية السلسلة من DNA، لكنه غير معلّم. وتسمى هذه الخطوة أحياناً، إطالة البادئ PRIMER ELONGATION. وكل دورة من هذه الخطوات الثلاث، تضاعف كمية DNA في الموقع المستهدف. وبإعادة هذه الدورات، يمكن الحصول على كمية وافرة من DNA، إذ يمكن، من الناحية النظرية، إنتاج مئات الآلاف من النسخ، باستخدام (٢٠) إلى (٢٥) دورة من التفاعل المتسلسل.

وبعد هذا الإجراء، يتم تحليل DNA، الذي تم إكثاره، بطرائق تُظهر مناطق التشابه، في مواقع محددة. ومن هذه الطرائق، واحدة تدعى DOT BLOT PROCEDURE، كما في الشكل (٥ أ)، باستخدام مجسّات صغيرة تسمى ALLELE SPECIFIC OLIGONU-CLEOTIDE (ASO) PROBES. ولا تلزم إنزيمات التحديد، أو الفصل الهلامي الكهربائي في هذه الطريقة، لأنها تعطي



الشكل (٤): خطوات تحليل DNA **لتحديد مدى التطابق أو الاختلاف بين الناس**

قطعاً متساوية الحجم، وغير متكررة. وتعكس النقط الناتجة، والاختلافات في الطفرات الموقعية POINT MUTATIONS. كما أن النظائر المشعة لا تستخدم في هذه الطريقة، لاعتمادها على ظهور لون معيَّن، في حالة اقتران المجس، بترتيب محدد من القواعد. غير أنه لا يمكن لمجسات ASO، أن تميز الأفراد، كما هو الحال في مجسات RFLP للمواقع المتعددة VNTR.

ومن جهة أخرى تركزت بعض البحوث الحديثة على فصل مناطق من DNA تعرف باسم المواقع المتكررة المتلاصقة القصيرة الأطوال SHORT TANDEM REPEATS (STR) LOCI وتحليلها، ويحوي كل منها جزءاً قصيراً يتكون من (٢) إلى (٦) أزواج من القواعد النيتروجينية.

ويُعيد هذا الجزء نفسه عدداً من المرات، يختلف من شخص إلى آخر. وهذه المواقع، من المميزات الوراثية الفردية، الثابتة والقويّة جداً. ويمكن تصنيف العينات بفضل مجسّات معلَّمة بالنظائر المشعة، حيث يجفف مجسّ خاص بالأليل على غشاء له مواصفات معينة، طبقًا لخطوات تقنية PCR. وتظهر نتائج هذه الطريقة بصورة ألوان متميزة، على الغشاء (الشكل ٥ ب). وتقرأ باستخدام أنظمة آلية خاصة للإجابة عمّا إذا كان الشخص يمتلك أليلاً معيناً أم لا. وعند موازنة عينات DNA، من أشخاص معروفين، بأخرى مأخوذة كأدلة، فإن اختلافًا في موقع أليل واحد، يمكن أن يستبعد اتهام الشخص، صاحب العيّنة. وكلما زاد تطابق الأنماط، بين العينة المعروفة والعينة المجهولة، كان ذلك شاهداً ضد الشخص المعنيّ.

ويمكن الحصول على نتائج بطريقة PCR - STR، من أي عينة بشرية تحتوي على DNA، ولو كانت خلية واحدة من جذر شعرة، أو رذاذ عُطاس، أو حتى بقايا لعاب على مغلف رسالة، أو عقب سيجارة أو على كوب. وقد نجحت هذه الطريقة في الإفادة من عينات خلايا منوية تم تخزينها لأكثر من عشر سنوات. كما أنها أعطت نتائج باهرة في حالات تعفّن العينات وتحليلها، كالهياكل العظمية. وهذا له أثر بالغ في حالات إعادة التحقيق في قضايا طُوِيت ملفاتها، أو كُشِفَ النقاب عنها بعد فترة طويلة من حدوثها.

ثالثًا: البصمة الوراثية باستخدام DNA العصيّات التنفسية MITOCHONDRIAL DNA, MTDNA:

ويعدّ هذا التحليل أقوى من تحليل STR، لأن العصيّات التنفسية المسؤولة عن توليد الطاقة في الخلية، يوجد منها آلاف النسخ في الخلية الواحدة. وهذا يجعل هذه العصيات مصدراً ضخماً وثابتًا للمعلومات الجينية، بالموازنة مع DNA الكروموسومي، الموجود في النواة. وبما أنه لا توجد تسلسلات متكررة في هذا النوع من (MT DNA) DNA، يُفضل بعض العلماء استخدام جزئيات DNA حلقيّة DNA LOOPS لتصنيف بعض التسلسلات المتباينة في القواعد الأساسية من MT DNA، مثل - AGTCGA -. وقد استخدمت هذه الطريقة لتحليل بقايا أشلاء بشرية من أنسجة عظمية زاد عمرها عل سبعة آلاف عام لحل بعض المعضلات التاريخية الغامضة. وهي في الواقع الخيار الوحيد إذا ما أريد إيجاد علاقة نسب، بين أجيال حيّة وأخرى بائدة؛ لأن هذه العصيات تورّث إلى النسل من الأمهات، ولا يسهم بها الآباء في شيء يذكر.

بعض الأمور المتعلقة بالبصمة الوراثية تخبرنا بصمة الأصابع التقليدية بدقة، ما إذا كان المشتبه به أو الجاني قد تركها في مكان الحدث، أو على جسم المجني عليه. إلا أنها ليست ذات قيمة عملية، إذا لم تأخذ من المتهم بصمة ثانية، أمام الشهود، لموازنة البصمتين الواحدة بالأخرى. أما البصمة الوراثية، فتعدّ وسيلة للربط بين الصفات الشخصية للفرد، وغيره من الأشخاص في المجتمع، كالجنس والسلالة والأصل، وغير ذلك.

وقد تعددت تطبيقات البصمة الوراثية في مجالات كثيرة، أدّت دوراً رئيسًا في تقديم الأدلة، وحلّ عدد من القضايا الاجتماعية والأخلاقية، مثل قضايا الهجرة، وقضايا المفقودين، وإثبات صلة الرحم، والقضايا الجنائية كالسفاح والزنى واللواط والاغتصاب والابتزاز والسطو والقتل، والقضايا المسجلة ضد مجهولين (في حالة إعادة فتح ملفات هذه القضايا)، وغير ذلك.

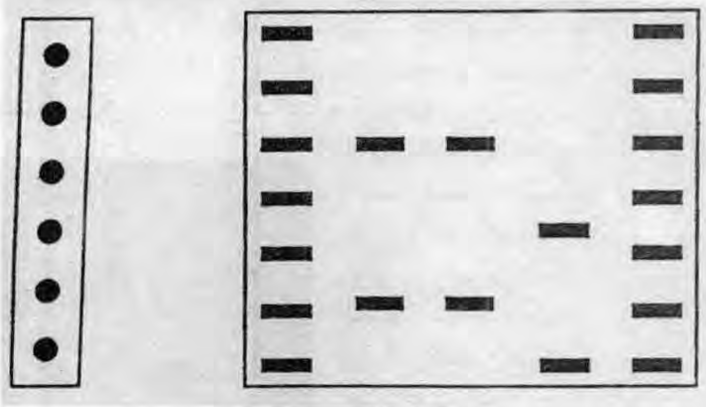


فأر في إحدى عمليات تقنيات الهندسة الوراثية، وقد بدا على ظهره أذن إنسان

ولم يعُدْ ينفع المجرمين تنكرهم أو تخفّيهم بإطلاق لحية، أو صبغ شعر، وحتى تغيير جلودهم، بجلود بلاستيكية. وقد يلجأ المجرمون المحترفون إلى أساليب حديثة للتمويه وطمس الآثار، مثل خلط الدم بدماء الحيوانات، في حالات القتل، أو استعمال الجرابات الواقية، وقطع الأحبال المنويّة VASECTOMY في حوادث الانحرافات الجنسية. وهنا يأتي دور العلماء في استحداث أساليب جديدة ومعايير عالية تَصْمُدُ أمام التحدّي، والتحفظات والطعونات، من أجل الفوز بالسباق الذي بدأ، للكشف عن الحقائق وإرساء العدالة.

لقد كان المدعو كولين بيتشفورك عام ١٩٨٦م أول مجرم في بريطانيا تدينه بصماته الوراثية بقتل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها. ومنذ ذلك الحين تسابقت الشركات التجارية ومكاتب مكافحة الجريمة، والتحقيقات الجنائية والشؤون الاجتماعية، في إدخال التحسينات على منتجاتها، لتحقيق قدر متميّز من الحساسية عند استخدام

البصمة الوراثية. ففي عام ١٩٩١م وضعت في الولايات المتحدة الأمريكية قاعدة بيانات جنائية (CO DIS)، على أساس فحوصات RFLPs. أما المجموعة الأوروبية فشكلت نظام معلومات مُغايراً أطلق عليه اسم (EDNAP)، وهو يعتمد على طرائق STR، باستخدام أجهزة GENE SCANNERS، وفي عام ١٩٩٤م قامت وكالة خدمات العلوم الجنائية THE FORENSIC SCIENCE SER-VICE، أو FSS في بريطانيا، التي تعد الأولى



الشكل (٥): تحليل DNA بطرائق تظهر مناطق التشابه في مواقع محددة

في العالم بوضع المعلومات الاستخبارية وجمعها ضد الجريمة بتطبيق جيل جديد من التحاليل المتعلقة بـ STR، وقد أُطلق عليه اسم نظام S G. كما تم إدخال فحص حديث آخر هو TGM. وتُقدم المختبرات العلمية لهذه الوكالة خدمات واستشارات ودورات تدريبية، على المستويات كافة، لمؤسسات مختلفة في أكثر من ستين دولة في العالم.

أما مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكي: FEDERAL BUREAU OF IN-VESTIGATIONS, FBI، فقد اعتمد على استخدام إنزيم التحديد المسمى HAE III، في شطر مناطق RFLPs؛ لأن هذا الإنزيم ينتج أنماطاً ثابتة من حزم DNA، كما أنه لا يتأثر بتسلسلات DNA المُمَثْيَلَة (أي التي أضيف إليها مجموعات الميثل C H3). ويستبعد استعمال هذا الإنزيم الاختلافات الاصطناعية ARTEFACTUAL التي قد تنتج من المثيلة المتعمدة لـ DNA، أو المثيلة الطبيعية المحددة لأنسجة معينة.

ومن المختبرات العالمية التي اكتسبت شهرة كبيرة، وصيتاً واسعاً، مختبر RELIAGENE، بسبب الدقة والثقة بالخدمات التي يقدمها لزبائنه على مستوى الأفراد والمؤسسات أمام المحاكم المدنية والجنائية. وفي هذا المجال أيضاً، تتمتع الشركة العملاقة للكيماويات THE GIANT CHEMICALS COMPANY، بفرعيها البريطاني IMPRIAL CHEMICAL INDUS-TRIES, ICI، والأمريكي CELLMARK، بحقوق بيع بعض المنتجات المتعلقة بالبصمة الوراثية وتوزيعها ويتوقع المسؤولون فيها جني أرباح تقدر بملايين الجنيهات خلال فترة وجيزة. وينافس هذه الشركة في أعمال بصمة DNA، والترويج لها، شركتان هما LIFE-CODE CORPORATION في نيويورك و FO-RENSIC SCIENCE ASSOCIATION في كاليفورنيا. ولابد من الإشارة إلى أن تحاليل البصمة الوراثية تحقق الشروط التي يستوجبها القانون، طبقاً لفحص فراي FRYE TEST، ويقتضي هذا الفحص أن يكون الأسلوب التحليلي للأدلة العلمية المستنبطة بطرائق حديثة مقبولاً لدى الأوساط العلمية المختلفة، وأن تكون صلاحيته التجريبية قد ثبتت قبل إقحامه في مجال القضاء. أما الشرط الثاني فهو أن يرتبط الأسلوب العلمي الجديد مباشرة بالقضية، بحيث يستند إليه رجال القانون في مرافعاتهم، من دون التعدي على الحقوق الشخصية. فالمعلومات ذات العلاقة بالبصمة الوراثية، يمكن حفظها واسترجاعها عند الحاجة على غرار التحاليل التقليدية، ولذلك فإنه لابد من ضمانات عدم إساءة استخدام المعلومات المأخوذة من الأشخاص المختبرين لأغراض لا تتعلق بالقضية التي هي تحت المداولة. ويقترح دعاة الدفاع عن حقوق الإنسان إتلاف العينات والمعلومات بعد استيفاء الهدف الرئيس منها، أو تخزينها، بحيث لا يسمح لغير المخولين بالاطلاع عليها.

وخلاصة الأمر أنه لابد من الموازنة بين الحقوق الفردية، وحقوق المجتمع؛ لأن الخوف من تفشي الجرائم أكبر كثيراً من الخوف من إساءة استخدام البصمة الوراثية حقاً، إن ابتكار البصمة الوراثية كان أعظم إنجاز علمي في مجال القانون منذ بدء استخدام بصمات الأصابع.

إنها بالفعل نعمة، كان لها أثر جليل في إحقاق الحق، ودمغ الباطل وإزهاقه، وفي توفير الأمن والطمأنينة للناس؛ لأنها تقود إلى براءة المظلومين، ومعاقبة المجرمين. قال تعالى في كتابه الكريم: *ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب، لعلكم تتقون*. **البقرة:١٧٩**.

المراجع

1- Gill,p., Jeffreys, A.J. and werrett, D.J. Forensic application of Dna "Fingerprints", nature, 315:577-597 (1985).
2- Budowle, B., Deadman, H.A., Murch, R.S. and beachtel, F.S. An introduction to the methods of Dna analysis under investigation in FBT Laboratories review article, Crime lab. Digest, 15:8-20 (1988).
3- Fowler, J.C.S., Burgoyne, L.A., scott, A.C. and harding, H.W.J. repetitive deoxyribonucleic acid (Dna) and human genome variation- A concise review relevant to forensic biology, J.Forensic Sci.33:1111-1126 (1988).
4- Marx, J.L. DNA fingerprinting takes the witness stand, science, 240: 1616-1618 (1989).
5- Ross, A.M. and harding, H.W.J. Dna typing and forensic science, forensic Sci. Inter., 41:197-203 (1989).
6- Farely, M. and Harrington, J. Forensic DNA technology lewis publishers, Michigan (1991).
7- Gurvitz, A., Lai, L.y.C. and Neilan, B.A. exploiting biological materials in forensic medicine, Aust. Biotech., 4:88 - 91 (1994).
8- Caldwell, J. DNA and Ancestry verification. the world Holstein - friesian conference. Japan, September 1996.
9- US DEPARTMENT OF JUSTICE. AUTOMATED DNA TYPING METHOD OF THE FUTURE. N I J RESEARCH PREVIEW, FEBRUARY, 1997.

١٠. الدكتور مختار الظواهري. التداعيات القانونية والأخلاقية والاجتماعية للهندسة الوراثية والتكنولوجية الحيوية. مجلة الجمعية الكيميائية. العدد ٣١، صفحة ٢٦ - ٣١ (١٩٩٨م).

ماذا تعرف عن العقارب؟

محمد فيض الله الحامدي



عرضت إحدى محطات البث التلفازي مشهدًا مثيرًا، انتاب كل من شاهده إحساس بالغثيان، رجل من جنوب شرق آسيا قُدِّمت له وجبة من العقارب الحية في مطعم راقٍ، تناول الرجل العقرب بالملقط المعدني، وانتزع الغدة السامة والإبرة بأسنانه بحذرٍ شديد، ثم أمسك العقرب من ذنبه بالسبابة والإبهام، وأسقطها حية في فمه وابتلعها كما لو كان يبتلع قطعة من الحلوى.. وفي مشهد آخر غرز شوكة في جسم العقرب المطبوخ، والتقمها كما يتناول أحدنا مربى المشمش أو الكرز.

إن ما عُرِض في محطة البث التلفازي كان حقيقة، وليس خدعة سينمائية، وعدتُ إلى بعض كتب التراث العلمية، التي تناولت جانباً من حياة هذه الدويبة، ولم أعثر فيها على روايات تفيد أن العقارب تؤكل على أنها مادة غذائية، لكن كان العقرب يستعمل مادة علاجية بأكثر من طريقة.

العقرب في التراث

يقول الجاحظ في كتاب «الحيوان»: «والعقارب يأكلها مشويةً من بعينيه ريحُ السبل فيجدها صالحة، ويرمى بها في الزيت حتى إذا تفسخت وامتص الزيت ما فيها من قواها، فطلوا بذلك الدهن الخصى التي فيها النفخ، فرقت تلك الريح حتى تخمص الجلدة، ويذهب الوجع، فإذا سمعت بدهن العقارب، فإنما يعنون هذا الدهن»(١).

ويقول القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»: «وتُجعل العقربُ في فخارة مسدودة الرأس، وتترك في تنور مسجر حتى تصير رماداً، ويسقى من ذلك مَنْ به حصاة المثانة فيفتتها»(٢).

ويقول: «إذا أخذت عقربًا كبيراً أسود، وجففته وعجنته بالخل، وطُلي به البرص أزاله، ورماده يذاب بدهن ويطلى به فينبت الشعر»(٣).

ويقول الدميري في كتاب «حياة الحيوان الكبرى»: «وإذا طبخت العقرب بسمن البقر، وطلي به موضع لسعتها، سكنتها من وقته، وقال ابن السويدي، إذا وضعت العقرب في إناء فخار وسد رأسه ثم وضع في تنور إلى أن تصير رماداً، وسقي من ذلك الرماد مَن به الحصى نفعه وفتتها»(٤).

ولا شك أن جسم العقرب غني بالمواد البروتينية، مثل السرطان والقريدس، وتناول الحشرات والديدان بوصفها غذاءً معروفاً عند بعض الشعوب، وفي بعض البلدان كان الجراد يؤكل بشهية، وإذا كانت الضرورات تبيح المحظورات فإن تناول العقارب، وهي حية، مادةً غذائية - وفي المطاعم - فذلك أمر يستحق التأمل!

روى ابن ماجه عن أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل عقرباً وهو يصلي، وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: لدغت النبي صلى الله عليه وسلم عقرب وهو في الصلاة فقال: لعن الله العقرب، ما تدع مصلياً ولا غير مصلٍ، اقتلوها في الحل والحرم»(٥).

وروى الحافظ أبو نعيم في تاريخ أصبهان، والمستنفري في الدعوات، والبيهقي في الشعب. عن علي رضي الله عنه قال: «لدغت النبيّ صلى الله عليه وسلم عقربٌ وهو في الصلاة، فلما فرغ من صلاته قال: لعن الله العقرب ما تدع مصلياً ولا غيره، ولا نبياً ولا غيره، إلا لدغته، وتناول نعله فقتلها به، ثم دعا بماء ملح، فجعل يمسح عليها، ويقرأ «قل هو الله أحد» والمعوذتين»(٦).

العقرب في التصنيف العلمي

كثيرون يعدون العقرب من الحشرات، والحشرة توحي بمشاعر التقزز والاحتقار، علماً بأن الفراشات والنحل والجراد من الحشرات

أيضاً. وفي التصنيف العلمي للعقرب موقع آخر، إذ إنَّ جميع الحيوانات التي لها أرجل مفصلية من عديمات الفقار، تجمعها شعبة مفصليات الأرجل وهي تضم أربعة صفوف:

- **صف الحشرات**: وهي حيوانات سداسية الأرجل، وجسمها مقسم ثلاثة أقسام: رأس وصدر وبطن، وقد تكون للحشرة أجنحة مثل الفراش والصرصور والجراد والنحل والذباب، وقد تكون من دون أجنحة مثل النمل والقمل والبراغيث.
- **صف العنكبوتيات**: وهي حيوانات ذات ثماني أرجل، وجسمها مقسم قسمين، أمامي يدعى «الرأس الصدري» وخلفي يدعى «البطن»، وليس لها أجنحة، وهي على الأغلب سامة مثل: العنكبوت المنزلي والعنكبوت النطاط والأرملة السوداء والرتيلاء وأشباه العقارب والعقارب.
- **صف القشريات**: وهي حيوانات مائية لها خمسة أزواج من الأرجل، وجسمها مقسم إلى رأس صدري وبطن، مثل سرطان الماء العذب، والقريدس «الجمبري».
- **صف كثيرات الأرجل**: وهي حيوانات لها رأس وجذع، ولها أرجل كثيرة مثل الحريش العاض (أم أربع وأربعين) ودخَّال الأذن، وألفية الأرجل.

فالعقارب هي عنكبوتيات غريبة الشكل، لها ثماني أرجل، وذَنَبُها في الحقيقة هو مؤخر البطن لأن فتحة طرح الفضلات تقع في آخر حلقة من الذنب، وهذه الفتحة تحدد مؤخر البطن، ولا توجد عقارب طيارة، والغريب أن الجاحظ ذكر وجودها: «ومن العقارب طيارات وجرارات ومعقفات وخضر وحمر»(٧).



عقرب له كلابات ضخمة، يعيش في الأدغال

الشكل الخارجي للعقرب

في العقرب - كسائر العناكب - يلتحم الرأس والصدر في قسم أمامي يدعى الرأس الصدري أو (صدراس) PROSOMA نلاحظ عليه زوجاً من العيون للرؤية الليلية، وفي المقدمة على الجانبين زوج أو أكثر من زوج - حسب الأنواع - من العيون للرؤية النهارية، وبعض العقارب عمياء لا عيون لها، وتعيش في الكهوف المظلمة، ويبرز من الأمام شفع من القرون كلابية وهي صغيرة، يليها شفع من اللوامس القدمية الضخمة وهي تميز العقارب، وبواسطتها يلتقط العقرب فريسته ويقربها من القرون الكلابية والفم.

وللعقرب أربعة أشفاع من الأرجل المفصلية، مرتبطة بالرأس الصدري من الأسفل، تنتهي كل رجل بمخلبين، لذلك تستطيع التسلق على الجدران إذا كانت غير ملساء تماماً. أما القسم الخلفي الذي يلي الرأس الصدري، فيدعى مؤخر الجسم وهو البطن، ويتألف من منطقتين هما: مقدم البطن ومؤخر البطن.

مقدم البطن سبع فقرات «قطع» عريضة، إذا دققنا النظر إليها من الأسفل نلاحظ على الأولى الفتحة التناسلية وهي مغطاة بشفع من الأغطية. وعلى الثانية شفع من اللواحق الحسية، كل لاحقة تشبه المشط، وتسمى باسم المشط.

ونشاهد أربعة أشفاع من الجيوب أو التجاويف بلون فاتح، هي الرئات الكتبية على الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، وهي جهاز التنفس عند العقرب. ومؤخر البطن خمس قطع ضيقة قاسية، قابلة للطي عبر المفاصل، ويعدها عامة الناس ذنباً للعقرب، وفي الحقيقة هي من البطن، لأن فتحة طرح الفضلات تقع في نهاية القطعة الخامسة كما مرّ آنفاً. ويُلحق بالقطعة الخامسة الجهاز اللاسع، وهو انتفاخ ينتهي بإبرة وداخل الانتفاخ غدتان تفرزان السم عند الحاجة.

إن منظر العقرب بالنسبة إلى معظم الناس يثير الاشمئزاز، ولا يجرؤ أحد على التدقيق في تفاصيل الشكل الخارجي، لذلك يبقى كثير من الحقائق عن العقرب مجهولاً، وهي تثير الرعب في النفوس، وحريّ بنا إذا وجدنا عقرباً أن نراقبها وهي حية، وإذا قتلناها من دون تحطيم الجسم، دققنا في الأقسام والمعلومات التي ذكرت أعلاه.

ألوان العقارب

تختلف ألوان العقارب بحسب ألوان البيئة، فعقارب الصحراء رملية اللون، وعقارب الأدغال يغلب عليها السواد، ومن العقارب ذوات ألوان صفراء أو برتقالية أو بنية أو خضراء، وبدرجات لونية مختلفة.

وأطوالها تراوح بين سنتيمترين و٢٠ سنتيمتراً، وقد تكون نحيلة الجسم أو مثلمة الجسم أو شعراء، وبعضها ضخمة الكلابات «في اللوامس القدمية» وبعضها رفيعة الكلابات.

حياة العقارب

يعتقد علماء المستحاثات أن أول كائن حي حيواني خرج من البحر إلى البر هو العقرب، وأنه كان بحجم يقارب حجم قدم الإنسان، إذ شوهدت انطباعات جسمه في صخور رسوبية تعود إلى ٤٠٠ مليون سنة خلت، وأطلق العلماء على هذا السلف للعقارب اسم باليوفونس PALAEOPHONUS، ويعني «السفاح القديم»، وبعد الاستقرار في الحياة البرية، طرأ تحول وتطور على الحجم والشكل فوصل إلى ما هو عليه الآن.

يقول الجاحظ: «وفي العقارب أعجوبة أخرى، لأنه يُقال: إنها مائية الطباع من ذوات الذرء والإنسال وكثرة الولد»(٨).

لكنه يتعجب من عدم قدرتها على السباحة فيقول: «ومن أعاجيبها أنها لا تسبح ولا تتحرك إذا ألقيت في الماء، كيف كان الماء ساكنًا أو جاريًا»(٩).

في البر يتحرك العقرب سريعًا، وهو حيوان لاحم يتغذى بالحشرات والديدان وصغار الفئران والزواحف، فإذا أمسك بالفريسة وحاولت الهرب، عاجلها بلدغة من إبرته فيشل حركتها، ويقربها من فمه بكلابتيه، ثم يمضغها، ويمتص السوائل من جسمها.

للعقرب جهاز هضمي متطور مزود بغدد هاضمة كالغدد اللعابية وغدة الكبد، وبعد هضم الغذاء تطرح الفضلات من فتحة الشرج في الحلقة الأخيرة من البطن (الذنب).

تتنفس العقارب بالرئات الكتبية الموجودة على حلقات البطن من الأسفل، حيث يدخل الهواء إلى الرئات الكتبية، فيأخذ الدم أكسجين الهواء، ويطرح غاز ثاني أكسيد الكربون، ودم العقرب سائل فيزيولوجي من دون كريات حمر، وجهاز الدوران في العقارب مفتوح يشبه جهاز الدوران في الحشرات، وقد يلتبس مصطلح الرئات الكتبية على بعض الناس، إن هذه التسمية جاءت من وجود صفائح كيتينية رقيقة تبرز من سطح التجويف الرئوي ومرتبة بشكل يشبه صفحات الكتاب، لذلك سميت التجاويف مع الصفائح بالرئات الكتبية.

وفي المناطق المعتدلة، عندما يحين فصل الشتاء، تختبئ العقارب في أماكن محددة، وتتوقف عن الحركة والتغذية، ويكون تنفسها في حده الأدنى، أما في المناطق الحارة فلا يكون لها بيات شتوي، لأن دمها متبدل، فتنشط في الفصل الحار، وتهدأ في الفصل البارد.

العقارب ولود

أحصى العلماء أكثر من ٥٠٠ نوع من العقارب في العالم، ومعظمها ولود، أي تتطور البيوض الملقحة في جوف الأنثى وتخرج الصغار بالولادة من الفوهة التناسلية، تضع الأنثى من ٦ إلى ٤٠ صغيرًا كما في النوع EUSCARPIUS. CARBATHICUS، وفي أنواع أخرى قد يصل عدد الصغار إلى ٩٠ صغيرًا.

صغار العقارب الحديثة الولادة لا يتجاوز طولها ملليمترات، لونها أبيض شفاف، تتسلق ظهر الأم بمجرد خروجها وتختبئ في مفاصل حلقات البطن (على الظهر) وتتغذى بالمدخرات التي اختزنتها في طور الأجنة، وتغادر ظهر الأم بعد أسبوعين، بعد أن تنسلخ أول مرة.

والاعتقاد السائد عند عامة الناس أن العقارب تلد من ظهرها وتموت الأم، لأنهم يشاهدون الصغار تخرج من الظهر بين مفاصل الحلقات.

وقد فنّد الجاحظ الرأي القائل بولادة العقرب من ظهرها فقال: «خبرني من أثق بعقله، وأسكن إلى خبره، أنه رأى العقرب عيانًا وأولادها يخرجن من فيها، وذكر عددًا كثيرًا، وأنها صغار بيض على ظهرها نقط سود، وأنها تحمل أولادها على ظهرها وأنه عاين ذلك مرة أخرى، فقلت: إن كانت العقرب تلد من فيها فأخلق بها أن يكون تلاقحها من حيث تلد أولادها»(١٠).

والعقرب لا يلد من فمه، بل يلد من الفوهة التناسلية الموجودة على الحلقة الأولى من البطن. وطقوس الاقتران عند العقرب مثيرة. في الظروف الملائمة، يتقابل القرينان، ويرفع كل منهما بطنه، ثم يمسك الذكر الأنثى بكلابتيه بكلابتيه ويتحركان جيئةً وذهابًا، ثم يدوران حول بعضهما، ويقومان بحركات غريبة، وتدوم طقوس الاقتران عدة ساعات عندها يطرح الذكر على الأرض نطافه في كيس محمول على سويقة ومزود بجناح «غشاء» ويحاور الذكر أنثاه، ويستدرجها حتى تصبح فوهتها التناسلية فوق كيس النطاف، وقد يكون للواحق الحسية «المشطين» دور في تحديد مكان الكيس، وبقليل من الضغط



العقرب الأحمر شديد السُمية، لدغته مميتة

ينفجر الكيس وتدخل النطاف إلى جوف الأنثى، حيث توجد البيوض في الأنابيب المبيضية، ويستغرق تطور الأجنة بضعة أشهر، ثم تلد العقرب، وتنضج العقارب الجديدة بعد سنة، وفي النوع الواحد يمكن تمييز الذكر من الأنثى بسهولة، فالذكر أنحف جسمًا من الأنثى، والمشطان فيه طويلان أكثر من مشطي الأنثى.

سموم العقارب

جميع العقارب سامة، ولكن تختلف درجة تأثير السم من نوع إلى آخر، وسموم العقارب مركبات كيماوية «أملاح قلوية وخمائر» لها تأثير في الإنسان والحيوان، وقد يتفاعل السم مع بعض المعادن كالنحاس والتوتياء. فإذا ضرب العقرب بإبرته وعاء نحاسيًا رقيقًا أو وعاءً من التوتياء ولمس السم مادة الوعاء؛ تفاعل معه وربما ثقبه، وقد ذكر الجاحظ هذه الظاهرة في كتابه «الحيوان» فقال: «ومن أعاجيبها أنها تضرب الطست أو القمقم فتخرقه، وربما ضربته بإبرتها فسال منه الماء»(١١).

وخرق القمقم أو الطست لا يحدث بقوة الإبرة كما يُظَنّ، بل بتأثير التفاعل الكيماوي بين السم والمعدن، وقد لاحظ الجاحظ ذلك فقال: «على أن العقرب ليس تخرق القمقم من جهة الأَيْد وقوة البدن، بل إنما ينفرج بطبعٍ مجبول هناك»(١٢). ونفهم من عبارة: «طبع مجبول هناك» أنه تفاعل كيماوي بين السم والمعدن.

حلب العقارب

كيف نحصل على سموم العقارب من أجل إجراء الدراسات عليها، وإعداد الأمصال الواقية؟



طقوس الاقتران عند العقارب معقدة ومثيرة

ابتكر العلماء طريقة فعالة لاستخراج السموم من العقارب، وهي ما تسمى بطريقة الحلب بتأثير الصدمات الكهربائية. يُمسك العقرب بملقطين معدنيين من طرفيه، ويوجه الذنب نحو أنبوب زجاجي، والملقطان موصولان بمولد كهربائي يعطي تياراً خفيفاً عند إغلاق الدارة، وعندما يتلقى العقرب صدمة كهربائية يفرز بضع قطرات من السم في الأنبوب الزجاجي، وهكذا يمكن حلب العقرب الواحد أكثر من مرة بتربيته في أحواض خاصة، وحلبه كلما دعت الضرورة.

ظاهرة غريبة

يقول الجاحظ: «ونجد العقرب تلدغ إنساناً فيموت، وتلسع آخر فتموت هي، فدلَّ ذلك على أنها كما تعطي تأخذ، وأن للناس سموماً عجيبة»(١٣).

وهذه الظاهرة موجودة في كل مكان، ومتواترة، وقد علل بعضهم هذه الظاهرة بأن الشخص الذي تموت العقرب بلدغتها له، ربما كان ذا مناعة مكتسبة بسبب تعرض أمه للدغة العقرب وهو جنين في رحمها، وذكر الجاحظ ذلك في كتاب «الحيوان» فقال: «وتلسع بعض الناس فتموت هي، ولا ينال الملسوع منها من المكروه قليل أو كثير، ويزعم العوام أن ذلك إنما يكون لمن لسعت أمه عقربٌ وهو حَمْلٌ في بطنها»(١٤).

ولا يوجد تعليل علمي قاطع لتفسير هذه الظاهرة. ولكن نضع احتمالين لتعليلها:

الأول: أن العقرب بعد اللدغ يتظاهر بالموت كما تفعل بعض الحشرات، والملدوغ يقتلها فوراً، ولا ينتظر حتى تتحرك بعد فترة قد تكون طويلة. لكن حدوث الظاهرة مع أشخاص معينين وأكثر من مرة يستبعد هذا الاحتمال.

الثاني: أن العقرب عندما يفرغ السم في الملدوغ، يتلقى صدمة كهربائية تشل حركته وبعض الأشخاص لهم كهربائية ساكنة ملحوظة في أجسادهم، وهذا الاحتمال يحتاج إلى إثبات تجريبي.

في كل الأحوال عدم تأثر الملدوغ بسم العقرب ليس له علاقة بحسب الشخص ونسبه أو بسلوكه وأخلاقه كما يظن بعضهم، والرسول عليه السلام تأثر من لدغة العقرب فعالج موضع اللسعة بالماء الملح.

إسعاف الملدوغ بالعقرب

لسعة العقرب مؤلمة، وقد تكون مميتة إذا لم يسعف الملدوغ بسرعة، والإجراءات الأولية السريعة لإسعاف الملدوغ هي:

- الطلب من الملدوغ عدم التحرك كي لا تنشط الدورة الدموية ويسري السم في الجسم.
- ربط العضو الملدوغ من جهة القلب كي نمنع انتقال السم إلى القلب.
- إحداث جرح بآلة نظيفة وحادة في مكان اللدغ.
- عصر الجرح كي يخرج الدم والسم.
- مص الجرح بفم سليم خال من الجروح وبصق الدم مع السم.
- إعطاء الملدوغ سوائل مهدئة للأعصاب مثل الزهورات.
- في حال تفاقم الوضع ينقل الملدوغ إلى أقرب طبيب لإعطائه المصل المضاد لسموم العقارب.

فإذا كنت في مكان تكثر فيه العقارب، فكن حذراً، فقد ينالك منها ما لا تحمد عقباه.

الهوامش والمراجع

١ـ الجاحظ، ج٥ ص٤٠٠.
٢ـ القزويني، ج٢ ص ٣٣٤.
٣ـ المرجع السابق ص ٣٣٥.
٤ـ الدميري، ج٢ ص ١٤٦.
٥ـ المرجع السابق ص ١٣٧.
٦ـ المرجع السابق ص ١٣٧.
(٧ـ ١٤) ـ الجاحظ، صفحات٣٦٣، ٣٥٧، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦١، ٥٥٠، ٣٦١، ٣٦٢.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب «الحيوان»، تحقيق عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٩م،
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، كتاب «عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات»، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٨م.
- الدميري، كمال الدين، كتاب «حياة الحيوان الكبرى»، ج٢، ص ١٤٦، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٨م.
- د. عادل حموي وآخرون، علم الحيوان العام، دمشق ١٩٨٢م، مقرر جامعي.
- برتاموريس باركر، كتيب «الحياة منذ كانت»، ترجمة د. أحمد حماد الحسيني، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
- موسوعة الشباب، المجلد الثالث، ميدليفانت، سويسرا. من دون تاريخ.
- الموسوعة العلمية الميسرة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦م.
- موسوعة الطبيعة الميسرة، مكتبة لبنان، بيروت. ط١ ١٩٨٥م.

ألم الظهر.. مشكلة العصر

حسان عكفلي

«كان الألم رهيباً. أحسست كأن شخصاً أوقد ثقاباً وأحرق ظهري! كل ما أتذكره هو أنني انحنيت لأبعد ابن أختي الصغير عن بعض الزجاج المكسور، فاشتعل - إذ جاز التعبير - ظهري كله فجأة. وبقيت أياما في هذا الوضع، غير قادرة على الانتصاب مستقيمة. لم أشعر أبداً بألم كهذا من قبل»، هذا ما روته نبيهة البالغة من العمر ٣٢ سنة من العمر، وهي ربة منزل وأم لولدين.

تظهر التقارير الطبية أن مرض الظهر قد أصبح مشكلة عالمية واسعة الانتشار، واستناداً إلى الطبيب آلف ناكيمسن الباحث العلمي في مشكلات الظهر، فإن بليوني مريض حول العالم عانوا من ألم في أسفل الظهر في العقد الماضي. وقال: «في وقت ما خلال حياتنا التي نقضيها في العمل سيختبر ٨٠٪ منا ألم الظهر إلى حد ما».

يحتل ألم الظهر في الولايات المتحدة المرتبة الثانية بعد الصداع في عدد الأشخاص الذين يصيبهم، فهو السبب الرئيس للعجز الطويل الأمد في الأشخاص الذين يقل عمرهم عن ٤٥ سنة، والسبب الرئيسي الثالث بين أولئك الذين يزيد عمرهم على ٤٥ سنة، ويصرف المتألمون نحو ٢٤ مليون دولار أمريكي في السنة بحثاً عن الراحة، وهذا المبلغ يماثل أربعة أضعاف ما صرف على معالجة الإيدز في سنة ١٩٩١م.

وفي ألمانيا، يعاني شخص بين كل ثلاثة أشخاص باستمرار ألماً في الظهر. ويبلغ الغياب عن العمل بسبب اضطرابات متعلقة بالظهر ٧٥ مليون يوم عمل في السنة. وليس الراشدون أو المسنون فقط هم الذين يصابون، وإنما هناك ١١ في المئة من الأشخاص دون الثامنة عشرة من العمر جرى فحصهم فكانت لديهم أيضاً اضطرابات متعلقة بالعمود الفقري.

دورة من الألم

لا يميز ألم الظهر بين شخص وآخر. فالعمال والموظفون على السواء معرضون للأذى في الظهر. والرجال والنساء، الصغار والكبار، يمكن أن يقعوا ضحية هذا الألم. وعندما يكون الألم معاوداً ومتواصلاً، يمكن أن يؤثر في العمل، والدخل، وحياة الأسرة، ودور الفرد في العائلة، مما ينتج ألماً عاطفياً أيضاً. كيف؟

«يجد الناس أنفسهم في دورة من الألم»، كما يذكر أحد المختصين، فالألم الجسدي يحدث القلق والكآبة اللذين بدورهما قد يؤديان أيضاً إلى ألم أشد وأكثر ديمومة . قد يكون على الوالد أو الشاب المعيل مثلاً أن يتغلب على ضغط العمل، وضغوط الأصدقاء بسبب العجز الذي يمكن أن ينتج من مشكلات الظهر.



ظروف العمل قد تضطر كثيرين إلى عدم مراعاة الشروط الصحية للنوم أو الاسترخاء

«أجد أن المشكلة الكبرى هي عدم الفهم والتعاطف من جهة عائلتي وأصدقائي . فالناس يميلون إلى التقليل من شأن الألم، غير فاهمين ما تعانيه من ألم»، وقالت أمل البالغة من العمر ٣٥ سنة، وتعمل سكرتيرة ، وبدأت معاناتها مع ألم الظهر منذ سنة ١٩٨٦م:«وبما أنكم لا


مثل هذه الجلسة قد تسبب تقوساً في الظهر

تعرفون متى وأين ستثور ثائرة الألم، تميلون إلى عدم صنع الكثير من الخطط، وقد تبدون انطوائيين جداً، إذ لا تلبون الدعوات، ولا تحملون مولوداً جديداً لأحد، ولا تبتسمون، وكل ذلك لأنكم تتألمون. والألم، إذا سمحتم له، يمكن أن يتحكم فيكم».

لماذا يؤلم الظهر؟

هل ألم الظهر محتوم؟ ماذا يمكنكم أن تفعلوا لتخفيفه أو تجنبه؟ متى يلزم أن تطلبوا مساعدة طبية من أجل ظهركم؟ مع أن ألم الظهر الدائم يمكن أن يشير إلى أمراض داخلية كثيرة، فإن تناوله في هذه المقالة سيتركز على مصدرين له، وهما: الأقراص المفتوقة HERNIATED DISKS، وتشنج العضلات.

الأقراص المفتوقة سبب رئيس لمرض الظهر بين الراشدين الشبان والكهول؟ وغالبا ما يشار إلي مثل هذه الأقراص بأنها «أقراص منزلقة، وهذه التسمية»مغلوطة، لأنه لا يمكن أن تنزلق إلى داخل مكانها أو خارجه.

وعندما يبدأ الشخص يضع قدميه على أعتاب العشرينات، يبدأ القسم الداخلي الإسفنجي للأقراص بخسارة مرونته ورطوبته، مما يسبب انكماشاً في الأقراص. لكن ذلك لا يؤدي عادة إلى ألم. ولكن، عند بعض الأشخاص، يحدث الألم الشديد عندما ينفتق أو ينتأ جزء من القسم الداخلي الإسفنجي من خلال الحلقة الخارجية للنسيج الليفي.

تعلق إحدى المختصات على الأقراص: «حالما تنتكس متجاوزة نقطة معينة، فإن أقل إجهاد كالعطاس أو الانحناء لتحريك المسجل«الاستيريو» - يمكن أن يكون العامل الأخير الذي يسبب الألم».

تعمل الأقراص على امتصاص الصدمات بين الفقرات، أو بين عظام العمود الفقري الـ٢٤ الأولى. فهذه العظام موضوعة إحداها فوق الأخرى وتشكل نفقًا عموديًا للقناة الشوكية، يمتد عبره النخاع الشوكي. وتوجد بين كل فقرتين فتحة صغيرة تمر من خلالها حزمة من الأعصاب تدعى جذر العصب، حزمة واحدة في كل جانب. والقرص يمكن أن ينفتق ويضغط على عصب معين. وهذا الضغط يمكن أن يقطع الإشارات العصبية التي تنقل الإحساسات إلى أجزاء الجسم الأخرى ومنها.

ويمكن أن تحدث، على سبيل المثال، حالة مؤلمة جداً معروفة بعرق النسا إذا كان هنالك ضغط يمارس على جذور العصب الوركي. والكثير من الجذور العصبية التي تخرج من الجزء الأسفل للعمود الفقري تشكل العصب الوركي. وهناك جذر عصبي واحد في كل جانب، يمتد نزولاً خلف كل فخذ حتى الركبة، وبعد ذلك يتشعب إلى أعصاب أخرى. يبتدئ ألم العصب الوركي عادة في أسفل الظهر ويمتد إلى الورك والألية ونزولاً إلى خلف الفخذ، وأحياناً إلى بطن الساق والقدم. ونتيجة لذلك، قد يشعر الشخص بارتخاء في القدم،وقد تصل الحالة إلى حد عجز عضلات الساق عن رفع أصابع القدم. وقد يشعر المتألم أيضًا بوخز إبر، أو خدر، وضعف عضلي في الساق المصابة.

وإذا ضغط القرص على الجذور العصبية في الـ كودا إكوينا (ذيل الفرس)، وهي مجموعة من الأعصاب تحت الخصر تماماً مسؤولة عن المثانة والأمعاء، فقد تصير لدى الشخص مشكلات في التبول والتغوط. و يجب على الأشخاص الذين لديهم مثل هذه الأعراض أن يستشيروا طبيبًا على الفور، لأنها تكون إشارات إلى مشكلات خطيرة في الجهاز العصبي.

وعندما تتقلص هذه الأعصاب وتسترخي، تنضم العضلات في الظهر إلى الربط في الأدوار الداعمة، مانعة العمود الفقري من الانهيار، وممكنة إياه من الانحناء والالتواء. ولكن تحت الإجهاد، يمكن أن تتشنج العضلة التي ليست في وضع صحيح، وتتوتر جداً بحيث تصير كتلة صلبة. وهذا التشنج يحدث من دون إنذار ويشل حركة الشخص مؤقتًا، ويمكن لأعراض تشنجات الظهر أن تكون مبرحة. ويصف أحد المتألمين الألم بأنه «سلسلة من الزلازل تحدث في ظهركم».

ويوافق الأطباء على أن تشنجات العضل تحدث لوقاية الشخص من ضرر إضافي يلحق بالعضلات الضعيفة. ويلاحظ طبيب مختص أنه: «بشل حركة الظهر، يجبركم التشنج على اتخاذ الإجراء الأفضل والاستلقاء. وهذا الوضع لا يعمل على وضع مقدار أقل من الإجهاد على

ظهركم فحسب، بل يسمح بأن يصلح النسيج الملتهب نفسه».

ومن أجل تجنب إجهاد الظهر الذي غالباً ما يحدث التشنجات، يلزم أن تبقى عضلات الظهروالبطن والفخذين متوترة ومتينة. فعضلات البطن الرخوة، على سبيل المثال، قد تحدث إجهاداً في الظهر؛ لأنها لا تقدم الدعم المناسب، ولأنها أقل قدرة على مقاومة ضغط وزن الجسم على العمود الفقري. وإذا كانت عضلات البطن في حالة صحية جيدة؛ فإنها تجعل حزاماً عضلياً يقي أسفل الظهر من التقوس والصيرورة في حالة السرج. والسرج انحناء مفرط لأسفل الظهر، يغير تناسق فقرات أسفل الظهر.

ما يمكن أن تفعلوه لتخففوا الألم

الوضعية السيئة والسمنة والعضلات الضعيفة والإجهاد أربعة عوامل تساهم في احتمال حدوث الألم في أسفل الظهر. والنشاطات العادية التي تمارس على نحو خاطئ، كالجلوس، أو الوقوف، أو رفع الأشياء عوامل مؤثرة أخرى.

وتوجد علاقة متبادلة بين الوضعية الجيدة وعضلات البطن والظهر القوية. فالوضعية الصحيحة تسمح للعضلات بأن تعمل على نحو صحيح، بينما يكون التوتر العضلي الجيد حيوياً للوضعية الملائمة. والوضعية الجيدة تستلزم التناسق الذي يكون بموجب انحناء S الطبيعي للعمود الفقري على نحو صارم.

يظهر روبن ماكيتري الاختصاصي في معالجة آلام الظهر، أنه إذا صححت الوضعية الخاطئة، يمكن إزالة الألم إذا كانت سبباً له، ويضيف: «ولكن إذا لم



الإجهاد في العمل يجعل الشخص معرضاً للإصابة بآلام الظهر

تصحح، فإن الوضعية السيئة الناشئة عن العادة تسبب على مر الوقت تغييرات في بنية المفاصل، فيحدث بري مفرط، وتكون النتيجة هرماً مبكراً للمفاصل».

والوزن الزائد، ولا سيما في البطن، يمكن أن يجهد الظهر؛ لأنه يحدث شداً جاذبياً للعضلات التي تدعم الظهر. وبرنامج تمرين مقنن هو الحل لظهر صحيح وسليم. وحتى لو لم يشعر بالألم، فإن التمرين أساسي، لأن ألم الظهر الذي زال يميل إلى أن يعود ثانية من دون توقع. وينصح بتقويم طبي تام قبل البدء ببرنامج للتمرين. فالطبيب يمكن أن يقترح التمارين الملائمة لمشكلة الفرد في الظهر، أو يمكن أن يحيل المريض إلى معالج فيزيائي.

ويعتقد باحثون كثيرون أن الإجهاد STRESS يمكن أن يجعل الشخص معرضاً أيضاً لمشكلة في الظهر. فالإجهاد قد يحدث تشنجات لبعض الناس؛ لأن التوتر غير المخفف يجعل العضلات مشدودة، مما يؤدي إلى ألم الظهر. فمعالجة مصادر الإجهاد أو إزالته يمكن أن تساعد على تخفيض احتمال حدوث ألم الظهر.

والناس الذين يصرفون مقداراً كبيراً من الوقت جالسين في أثناء العمل، أو عند السفر مسافات طويلة قد يشعرون بإجهاد الظهر؛ لأن مزيداً من الثقل يمارس على أسفل الظهر عند الجلوس، استناداً إلى دراسة سويدية.

ومن المؤسف أن هذا الاحتمال يتزايد باستعمال كراسي المكاتب التي لها دعامة للظهر غير ملائمة. وقد يكون من المناسب مقاطعة الجلوس في فترات منتظمة بالوقوف والتمشي دقائق قليلة.

والفرد الذي يعتاد أوضاعاً غير ملائمة يكون على الأرجح عرضة لمشكلات الظهر. فعمال خط التجميع، والممرضون، والكهربائيون، وربات البيوت، والمزارعون تتطلب أعمالهم أن ينحنوا إلى الأمام فترات طويلة لإنجاز عملهم. وللتقليل إلى الحد الأدنى من احتمال حدوث أذى في الظهر، ينصح المعالجون الفيزيائيون بأخذ الراحة القانونية الكافية أو تغيير الأوضاع. ويُنصح الأشخاص الذين يقفون



ينصح الأشخاص الذين يقفون فترات طويلة من الوقت باستعمال كرسي لأخذ الراحة ولبس أحذية مريحة

فترات طويلة من الوقت أن يستعملوا كرسيًا صغيراً للقدمين أو مسنداً للقدم، وأن يرفعوا قليلاً إحدى القدمين لكي يجعلوا أسفل الظهر مستقيماً.

وعمومًا يمكن تقديم النصائح التالية:

- تجنبوا رفع شيء بسرعة، وإذا اقتضى الأمر الانحناء من الخصر، فاحنوا الركبتين.
- اطلبوا المساعدة عند رفع الأشياء الثقيلة.
- عند حمل حزم عديدة، وازنوا بين الحملين في كل جانب. وإذا كنتم تحملون شيئًا واحدًا ثقيلاً، فاحملوه وذراعاكم إلى الأمام، أقرب إلى الجسم. وإذا حملتموه جانبيًا، فاجعلوا الجانبين يتناوبان الحمل.
- من أجل السفر، استخدموا حاملة للحقائب قابلة للطي، أو حقيبة من الوزن الخفيف ذات أحزمة للأكتاف.
- عند رفع حزم من صندوق سيارة، ضعوا الحزم قريبة من جسمكم قبل رفعها.
- عند التنظيف بالمكنسة الكهربائية، استعملوا واحدة ذات مقبض طويل، وبدلاً من الانحناء من الخصر لتنظيف الأشياء السفلية، اركعوا على ركبة واحدة، مستعملين ضمادات للركب. وإذا كان لابد من الانحناء من الخصر، فيمكن استعمال إحدى اليدين لدعم أنفسكم على شيء.
- عند القيام بعمل مكتبي، يفضل الوقوف وراء سطح عمل عال علوّ خصركم، بدلاً من الجلوس وراء المكتب.
- اركعوا عند العمل في البستان، وقسموا العمل إلى أجزاء أقصر. وعندما تقفون لا تنحنوا من الخصر.
- قوموا بتمارين للظهر على أساس منتظم ولو مدة ١٠ إلى ١٥ دقيقة فقط في اليوم. استعملوا تمارين معتدلة إذا كنتم أكبر سنًا.
- عند ترتيب الأسرة، اركعوا على السرير بركبة واحدة، وادعموا أنفسكم بذراع واحدة لبلوغ الجانب الآخر من السرير. وعند تسوية الشراشف أو ثني أطرافها تحت الفراش، اركعوا على الأرض عند كل جانب من السرير.
- عند القيادة مسافات طويلة، توقفوا فترات للراحة. وإذا لم يكن ظهر مقعد السيارة مريحًا، فاستعملوا وسادة لملء الفراغ، ليكون الجلوس صحيًا.
- لاتقوموا بتمارين العدو البطيء على أرض صلبة. البسوا أحذية ملائمة للتمرين.
- استعملوا وسادة أو أي داعم آخر للظهر عند الجلوس على كرسي أو كنبة مريحة. قوموا على مهل، مستعملين ساقيكم لتنهضوا.
- إذا كنتم تصرفون ساعات جالسين في أثناء العمل، فاحصلوا على كرسي له دعامة ظهر ملائمة الشكل. قفوا أحيانًا، وتمشوا.
- لا تنحنوا فوق جوارير خزانة الملفات فترة طويلة، بل اجلسوا على كرسي ما أمكن ذلك.
- إذا كان يلزم أن ترتدوا حذاء عالي الكعب خلال اليوم، فخذوا حذاء مريحًا إضافيًا لتستبدلوه به عندما يكون ذلك ممكنًا.



الوضعية السيئة في أثناء العمل تسبب تغييرات في بنية المفاصل

البحث عن العلاج

بالنسبة إلى غالبية أولئك الذين يعانون من ألم الظهر، ويكون سببه عضليًا، ينصح الأطباء بالمعالجة المحافظة، والراحة في السرير، واستعمال الحرارة، والتدليك، التمرين. وفي البداية يمكن استعمال العقاقير المخففة للألم والمضادة للالتهاب. وفي ما يتعلق بالعقاقير، يعطي الدكتور مارك براون من جامعة مدرسة الطب في ميامي كلمة تحذير يذكر فيها أنه في الولايات المتحدة يكون الاستعمال الطويل الأمد للعقاقير سبباً رئيساً للمعاناة من ألم الظهر، أي من التأثيرات الجانبية للأدوية.

قد تكون الجراحة ضرورية لمعالجة المشكلات المرتبطة بالأقراص المفتوقة أو تخفيف ألمها. لكن الأطباء في الأغلب ينصحون أولاً بالمعالجة المحافظة لغالبية الذين يعانون من ألم الظهر. والأشخاص الذين يقال لهم إنهم بحاجة إلى جراحة يفعلون حسنًا إن استشاروا طبيباً ثانياً أو ثالثًا.

بالنسبة إلى ملايين المتألمين، فإن ألم الظهر المتواصل الذي يمكن احتماله هو جزء من حياتهم. وكثيرون يكيفون أنفسهم مع الألم لكنهم يسعون ألا يدعوه يعيق النشاطات اليومية. وهم يدركون العوامل التي تسبب الألم فيتخذون إجراءات لاتقائها أو إبطالها. ويقومون بالتمارين الرياضية للاحتفاظ بوزن ملائم، ويحسنون وضعيتهم، ويقللون من الإجهاد في حياتهم.

برشلونة مدينة تاريخية وحضارية

غازي سليمان حاتم



العائلة المقدسة.. رمز مدينة برشلونة

برشلونة ثانية المدن الإسبانية ومن أهمها اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا ورياضيًا. مدينة تاريخية تعاقبت عليها كل من الحضارات الإيبيرية والإغريقية والرومانية والعربية. ديناميكية وحية ومتطورة وجذابة للسياح. تتمتع بجو ثقافي بارز، وبموقع جغرافي مهم، وبطقس معتدل، وبمناطق ومواقع تاريخية وسياحية مهمة. تشتهر بمينائها الكبير الذي يعدّ من أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط. احتضنت دورة الألعاب الأوليمبية في عام ١٩٩٢م ومؤتمر برشلونة المتوسطي في عام ١٩٩٥م. تحتفظ متاحفها الآثارية ببعض القطع الأثرية التي تعطي دليلاً شاهدًا على عصرها الأندلسي، بينما تمتاز متاحفها الفنية باحتوائها على لوحات ومنحوتات أبدعها كبار الفنانين الإسبان، أمثال: بيكاسو، ودالي، وميرو. إضافة إلى ذلك، تضم عدة بلدات ذات شهرة تاريخية وثقافية وسياحية.

لمحة تاريخية

ولكن قبل الغوص في وصف ما يشاهده الزائرون من معالم هذه المدينة، لابد من عرض لمحة عن تاريخها، ذلك التاريخ الذي ترويه لنا أبنيتها وساحاتها ومراكزها الثقافية والفنية، والذي يرتبط بتاريخ إقليم كاتالونية الذي يحتل مساحة كبيرة من مساحة إسبانيا.

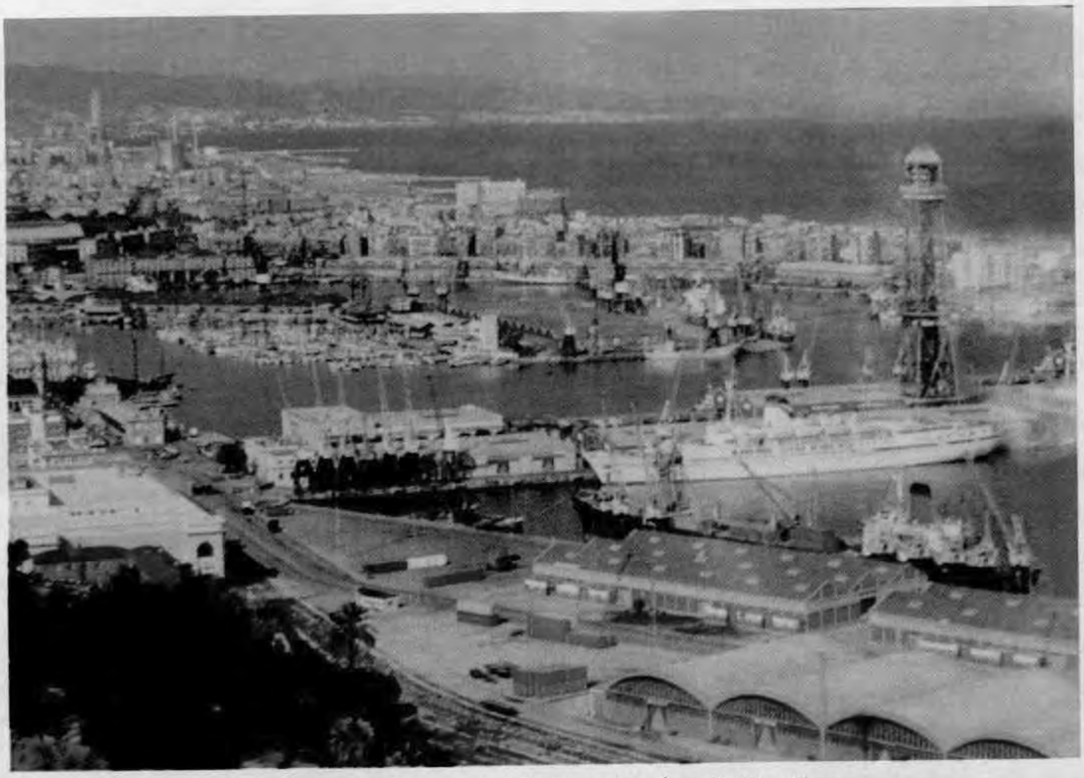
تقع برشلونة في الزاوية الشمالية الشرقية من إسبانيا، وتبعد عن مدريد ٦٢٠كم، وعن فرنسا ١٥٠كم، وعن بلنسية ٣٥٠كم، ويعود تاريخها إلى نحو الألف قبل الميلاد عندما سكنها الإيبيريون. في عام ٥٥٠ ق.م وصل إليها الإغريقيون وسكنوا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بينما أشاد القرطاجيون في عام ٣٠٠ ق.م مدينة كانت تسمى بارسينو، وتسمى الآن برشلونة، وبقوا في المنطقة حتى أتى إليها الرومان، وأقاموا في منطقة تاراخونا، ثم احتل القوط المنطقة في عام ٤١٥م، وجعلوا من برشلونة عاصمة لهم، وبعد نحو ٣٠٠ عام وقعت برشلونة تحت سيطرة العرب، وبالضبط بعد عامين من بداية الفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية، حيث فتحها موسى بن نصير - حسب ما تشير إليه المصادر التاريخية والمصورات (الخرائط) - واتخذ له ولجيوشه طريقاً في الشرق والشمال الشرقي محاذياً لشاطئ البحر الأبيض المتوسط، وبعد فتحها أرسل سراياه للجهاد وراء جبال البرت، حدود إسبانيا مع فرنسا، وبعد ذلك اتخذ طريقه نحو الشمال والغرب في خط مواز لخط طارق بن زياد الذي سار بمحاذاة سلسلة جبال كنتبرية في شمال إسبانيا وطهر المنطقة الشمالية من الجيوب المعادية.

في بداية القرن التاسع الميلادي، خرجت برشلونة من سيطرة العرب من دون أن يتركوا فيها آثاراً معمارية على عكس ما حدث مع جاراتها من المدن الكاتالانية مثل ليدا وتاراخونا حيث تحتفظان ببعض القصبات والأسوار العربية، ثم تم تعيين كونت لها اسمه ويفريدو البيوس. وبعد ذلك وُسعت مساحة برشلونة واتحدت كاتالونية وأراغون في عام ١١٣٧م، ثم حدثت تطورات في إسبانيا، وتولى عرشها عدة ملوك، من بينهم الملك فيليب الخامس دي بوربون الذي ثار على الكاتالان، حيث أغلق جامعة برشلونة، ومنع التداول باللغة الكاتالانية، وبقي الأمر على هذا المنوال حتى شهر سبتمبر/ أيلول من عام ١٧١٤م عندما سقطت كاتالونيا بيد الكاتالان، وأصبح ذلك اليوم عيداً وطنياً يحتفلون به كل عام.

في نهاية القرن الثامن عشر، حدث تطور في برشلونة حيث زادت نسبة الدخل من الزراعة، وبدأت تجارة النسيج والنبيذ مع أمريكا. أما الصناعة التي برزت في برشلونة في منتصف القرن التاسع عشر فقد جعلت منها مدينة أكثر تطوراً في إسبانيا، وأدى هذا إلى



أحد أبنية غيل التي بناها غاودي



ميناء برشلونة، من أكبر الموانئ الواقعة على البحر الأبيض المتوسط

الاهتمام باللغة الكتالانية وبأدبها، وإلى حث المعنيين على العمل لبناء أبنية جديدة وشوارع كبيرة في منطقة جديدة مسماة لا إكسامبل EIXAMPLE، وعلى انتقال العائلات الغنية ولا سيما التجار منهم وتحركهم في برشلونة لجعلها مدينة ذات نمط معماري وحضاري، وأهم من برز من سكانها، واهتم بالعمارة المهندس أنتونيو غاودي ANTONIO GAUDI.

وفي بداية القرن الحالي حدثت مشكلات سياسية ومظاهرات وانقلابات في كاتالونية وحصلت على استقلالها كجمهورية عاصمتها برشلونة، وفي عام ١٩٣٦م بدأت الحرب الأهلية الإسبانية حيث شهدت شوارع برشلونة في بداية عام ١٩٣٧م حرباً أجبرت كثيراً من سكانها على الرحيل، ودامت الأمور على هذا المنوال حتى عام ١٩٣٩م عندما سيطر الجنرال فرانكو على جميع مدن إسبانيا بمساعدة الجيش حتى وفاته في عام ١٩٧٥م، ثم ولي عرش إسبانيا من بعده الملك خوان كارلوس، وفي عام ١٩٧٨م صدر دستور جديد لإسبانيا، وفي العام التالي حصلت كاتالونيا على استقلالها الذاتي وأصبح لها حكومة ذاتية، تعمل على تسيير أمور الإقليم بالكامل تسمى بـ «الجنيراليتات»، بينما أصبح لمدينة برشلونة بلدية خاصة بها تغطي مجالاتها كافة.



بوبلي إسبانيول

ويوما بعد آخر، ازدادت قدرة برشلونة السياسية والاقتصادية والثقافية، وغدت المدينة الثانية من حيث أهميتها في إسبانيا، بل الأولى من الناحية الرياضية، حيث أدت دوراً مهماً على الصعيد العالمي، فقد اختيرت في تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٨٦م لتكون مركزاً للألعاب الأوليمبية، وفي عام ١٩٩٢م بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا، وقد احتضنتها ونظمتها بكفاءة عالية نتيجة الجهود الكبيرة التي قدمتها الحكومة المركزية في



برشلونة.. مدينة ديناميكية وحضارية

مدريد بشكل عام والحكومة المحلية وشعب برشلونة بشكل خاص، ولا غرو في ذلك، فإن شعبها عشق الرياضة منذ زمن طويل وقدم أثرياؤها وحكومتها المحلية دعماً مادياً ومعنوياً لفرق المدينة، وسمح هذا الدعم بإحضار أفضل لاعبي العالم إلى نواديهم للاستفادة من خبراتهم ومهاراتهم والوصول بلاعبيهم إلى درجة متميزة.

وفي ٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني، عام ١٩٩٥م، احتضنت المدينة مؤتمر برشلونة المتوسطي الذي ضم الدول الأعضاء في الاتحاد الأوربي ودول حوض البحر الأبيض المتوسط وتحت هدف جعل المتوسط منطقة أمن وازدهار دائمين. وعلى هذا المنوال تكون برشلونة متجهة نحو القرن الحادي والعشرين بحماسة ومساندة من سكانها المعروفين بتعلقهم الكبير بها والذين يزيد عددهم على ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة.

مواقع برشلونة الرئيسة

توجد في مدينة برشلونة مواقع رئيسة تجعل منها مدينة مميزة، ومن لم يرها لم ير برشلونة. وأهم هذه المواقع هي لارامبلا الواقعة في قلب مدينة برشلونة؛ وهو المكان الذي غالباً ما يبدأ منه السياح والمصطافون تجوالهم فيها، ويمتد من ساحة كاتالونيا الواقعة في وسط مدينة برشلونة حتى تمثال كولومبس. وهذه المنطقة واحدة من مناطق برشلونة القديمة التي تضم بالإضافة إليها كلاً من الرابال والحي الغوطي والريبيرا.

ولارامبلا مشهورة بما تملكه من نصب تذكارية تاريخية، وشوارع ضيقة، وبما تتمتع به من جو شاعري، وبما تملكه من مطاعم ومقاهٍ كثيرة، ومحلات لبيع الحاجيات القديمة، وبعض الأغراض التذكارية التي يشتريها السياح.

وبمتابعة السير جنوباً وإلى اليمين تنتقل إلى حي الرابال الذي يحوي المطاعم الصغيرة والمقاهي الليلية، والمركز الثقافي العصري لبرشلونة، ومتحف الفن المعاصر. وقد كان هذا الحي يُعرف بالحي الصيني، وشهد خلال تاريخه أحداثاً سياسية كثيرة. وإلى اليسار توجد ساحة ريال المعروفة باحتوائها على شجر النخيل العالي جداً، وبالقرب منها يوجد مركز الحكومة الكتالانية (الجنيراليتات) وبلدية برشلونة حيث يعود بناؤها إلى القرن الرابع عشر.

أما الحي القوطي فهو الحي المركزي في المدينة، ويحوي كثيراً من الشوارع الضيقة التي يضيع فيها الزائر فيضطر لبذل جهود لا بأس بها حتى يكتشف الطريق الصحيح لمتابعة مشواره، ويضم الحي القوطي الكاتدرائية وعدة مراكز تاريخية. والحي الأخير في



منطقة لارامبلا.. مركز مدينة برشلونة وأكثرها ارتياداً من السياح والبرشلونيين على حد سواء

المدينة القديمة هو لاريبيرا المشهور بشوارعه الظريفة والمحببة وأهمها شارع مونتكادا، وبقصوره العائدة لعائلات عريقة، وهي تعطي صورة عن التقدم التجاري الذي وصلت إليه برشلونة في العصور الوسطى، وفي الشارع نفسه يوجد متحف بيكاسو الذي يعدّ المتحف الأكثر شعبية في برشلونة، ويضمُّ كثيراً من اللوحات التي أبدعها هذا الرسام الكبير، والتي تدلُّ على عبقرية نادرة.

لا إكسامبل

وعندما يسأل الزائر أحد السكان الأصليين عن منطقة لا إكسامبل تعود الذاكرة بهذا الأخير إلى اسم العبقري والمهندس المعماري أنتونيو غاودي، ويحكي للزائر عن تعاونه مع بعض المهندسين المعماريين أمثال خوان بويغ ودومينتش مونتانير الذين بنوا هذا الحي بعد أن شعروا بالحاجة إلى تحديث مدينة برشلونة في القرن التاسع عشر، وإلى بنائها بناءً حديثًا وتجهيزها بأحدث ما يمكن، بحيث تكون ملائمة لسكن الطبقات النبيلة في تلك الأوقات. ومن يحب الهندسة المعمارية يشعر بأن هذا الحي هو متحف في حد ذاته، حيث يكتشف أن لكل بناية أهميتها التاريخية والفنية. ويعدّ هذا الحي، في الوقت الحالي، منطقة مركزية في برشلونة لما تضمه من مراكز تجارية وسكنية مهمة، إضافة إلى صالات العرض الفنية والمطاعم وأماكن للمحادثات واللقاءات الشاعرية الليلية. ويتركز العدد الكبير من الأبنية الحديثة على القطاع المسمى بـ «كوادرو دي أورو» (مربع الذهب) الذي يعد متحفًا في الهواء الطلق لإنجازات أنتونيو غاودي وأصدقائه، ومن أهم هذه الأبنية: لا كاسا تيراديس. وأهم إنجازات المهندس غاودي هو معبد العائلة المقدسة، الذي يُميز مدينة برشلونة من أية مدينة في العالم، حيث بدأ بإنشاء هذه الكاتدرائية منذ عام ١٨٨٣م، وسخَّر كامل وقته لها منذ عام ١٩١١م حتى عام ١٩٢٦م عندما مات مدعوسًا بحافلة كهربائية تاركًا هذا الإنجاز قبل أن ينتهي. كما تعدّ دياغونال وبيدرالس منطقة حديثة ومركزًا للتجارة والإقامة والفنادق. ومن أهم المواقع البارزة في هذه المنطقة مركز مجموعة الفنان تيزين بورنيميزا أو ما تسمى بيدرالبيس.



إحدى المناطق السكانية الهادئة بجانب جبل مونتسيرات

مونتي خويس

لقد كان جبل مونتي خويس مركزًا لكثير من الأحداث

التاريخية والثقافية والرياضية البارزة، أما الرمز التاريخي والأثر الأقدم العائد لنهايات القرن السابع عشر فهو (الكاستيل دي مونتي خويس) الذي يقدم للسياح مشاهد جميلة جداً للمدينة. وقد كانت هذه المنطقة مكاناً للمعرض الدولي الذي أقيم في مونتي خويس في عام ١٩٢٩م، ومن أهم الأمثلة عن تلك الفترة: بلازا دي إسبانيا وأبراجها. وأكثر الأبنية البارزة من ذلك الوقت هو البوبلي إسبانيول الذي يُمثل الآن مركزاً سياحياً جذاباً ويُوازن بكثير من الآثار

بالاو سان جوردي وبرج الاتصالات والملعب الأوليمبي دي مونتي خويس، وقد فخر الشعب الكاتالاني حكومة وشعباً بنجاح الألعاب، حيث قدم كثير من المتطوعين جهوداً كبيرة مادياً ومعنوياً لتحقيقه ورفع سمعة برشلونة دولياً. ويوماً بعد آخر تتضاعف المساعدات المالية والمعنوية من محافظة برشلونة، وتوضع الخطط وتقدم الجوائز والكؤوس والميداليات للفرق الرياضية وللبارعين في الألعاب كافة.



درهم عبدالرحمن الثالث (برشلونة)

المهمة في إسبانيا، مثل الخيرالدا في إشبيلية والقلاع في إيبلا، إضافة إلى ذلك فهو مكان ينصح بالذهاب إليه لتناول العشاء في مطاعمه الجيدة. وآخر تجديد في تلك المنطقة كان في عام ١٩٩٢م، حيث تم تحديثها بالطريقة نفسها التي أجريت في عام ١٩٢٩م، وتمت صيانة الملاعب والمسابح وكثير من التجهيزات الأخرى مثل

الواجهة البحرية لبرشلونة

إضافة إلي المناطق الرئيسة الوارد ذكرها، توجد مناطق أخرى ينصح بزيارتها في برشلونة، وهي الواجهة البحرية لها،لا سيما في فصل الصيف، حيث يقترب شاطئ البحر الأبيض المتوسط من تلك المنطقة السكنية. ويعدّ ميناؤها الميناء الثالث من حيث الأهمية على شاطئ البحر المتوسط،

ويستطيع زائر المطاعم والمقاهي الموجودة في منطقة هول دي لافومتا أن يشاهد مناظر رائعة لليخوت والنوادي البحرية، وكذلك حديقة غيل التي كُلف إيوسيبي -EU SEBI GUELL المهندس غاودي في عام ١٩٠٠م ببنائها، حيث تم بناء بيتين فقط ودشنت في عام ١٩٢٢م. ويعدّ دير دي بيدرالبيس الذي دشن في عام ١٣٢٧م أكبر هذه المباني التي تحفظ الأثر المعماري القوطي في كاتالونيا.

كما يوجد في هذه المنطقة الميناء الأوليمبي الذي تتيح سعته إمكانية ممارسة رياضة بحرية، وحي البارسيلونيتا المعروف بتقاليده البحرية وبمطاعمه الممتازة التي تقدم وجبات لذيذة من السمك البرشلوني، بالإضافة إلى النصب التذكاري الرائع لمكتشف القارة الأمريكية كريستوفر كولومبس (كريستوبال كولون كما يسمونه) الذي زار برشلونة خلال عودته من إحدى رحلاته البحرية، حيث استقبله الملكيون الكاثوليكيون ضمن احتفال رسمي خُصص لذلك.

مواقع تاريخية وسياحية بارزة

تتميز برشلونة باحتوائها على بلدات جميلة مثل بلدة سيتج وبلدة كاردونا، حيث تبعد الأولى ٣٧كم عن برشلونة وتقدم إغراءات سياحية كثيرة كالطبيعة الجميلة والهواء العليل والشاطئ الجميل، وتفسح المجال لمحبي الرياضة ليمارسوا رياضات الغولف والفروسية والسباحة والمراكب الشراعية. وتشتهر بشوارعها القديمة الجذابة، ومن أهمها شارع بيرمير دي مايج الذي يرتاده غالبية

الزائرين لهذه القرية. كما يوجد فيها كثير من المحلات المخصصة لبيع الحاجيات الصغيرة والمعبرة التي تعوِّد السياح على شرائها عند سفرهم، وتقديمها هدايا رمزية معبرةً عن بعض ذكريات الأماكن التي زاروها. أما البلدة الثانية كاردونا، فتحتوي أراضيها على كنوز معمارية، ومن بينها الجسر الروماني، والقصر المسمى باسمها الذي أدى دورًا بارزًا في عدة حروب إسبانية، واستخدمه كثير من الحكام، ومن بينهم العرب المسلمون، وأكثر الذين اهتموا به هو



خريطة إسبانيا وتبدو برشلونة في الشمال الشرقي منها

ويفريدو الفيوس الذي أعاد بناء القصر، كما أُجريت عليه بعض التحصينات حيث تمت إعادة بناء أسوار القصر من قبل الجنيراليتات في عام ١٦٩٣م، وتم بناء جناح جديد فيه سنة ١٧٣٨م، ووضع تحت تصرف الجيش سنة ١٧٩٤م، حيث حسَّنوه لكي يكون مركز دفاع خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وحدثت آخر الإجراءات المعمارية فيه في الفترة الواقعة بين ١٩٧٢ - ١٩٧٦م حيث تحوَّل بعد ذلك ليكون فندقًا سياحيًا. وأهم مواقع هذا القصر هي قلعة مينونا MYNO-NA الشامخة، وأهم الإجراءات التي أدت إلى شهرته هو إنجاز فيلم «دقات الجرس في منتصف الليل» الذي قام به السينمائي الأمريكي أورسون ويلس.

مكانة ثقافية مرموقة

عند الحديث عن برشلونة لا يمكن نسيان ما تتمتع به من مكانة ثقافية في إسبانيا والعالم، لأنه يوجد فيها عدد كبير من المتاحف والمسارح وصالات السينما والموسيقى والمراكز الثقافية التي تغطي النشاطات الثقافية والعلمية والفنية كافة، فبالإضافة إلى متحف بيكاسو الذي تم ذكره سابقًا، تبرز أهمية مؤسسة خوان ميرو الفنية التي تم بناؤها في عام ١٩٧٥م في منطقة مونتي خويس وتضم كثيرا من أعمال هذا الفنان الذي يعدّ أحد أعضاء ثالوث الفن الإسباني المؤلف منه ومن دالي وبيكاسو، وأهم عمل له هو نحت «امرأة وعصفور». كما يوجد في متحف الآثار لقىً عائدة إلى عصور قديمة، منها درهم الأمير عبدالرحمن الثالث (الناصر) الذي حكم الأندلس في الفترة الواقعة بين العامين ٩٢٦-٩٦١م.

ومن يزر برشلونة يُلاحظ تعصب البرشلونيين لمدينتهم ونواديها الرياضية ومراكزها الثقافية، وإلى لغتهم الخاصة المعروفة باللغة الكتالانية، وإلى كُتّابهم، ومن بينهم الكاتب البرشلوني الكبير خوان جويتسولو ذو الأصل العربي، الذي أُجبرت أسرته على التنصر في فترة تسلط محاكم التفتيش على العرب الذين بقوا في إسبانيا بعد انتهاء حكمهم لها، كما يتأكد من أن هذه المدينة هي مدينة محببة بالنسبة إلى العرب الموجودين في إسبانيا، على الرغم من أنها لا تحوي آثاراً معمارية إسلامية كالمدن الأندلسية الرئيسة مثل غرناطة وقرطبة وإشبيلية، إلا أنها تحفظ بعض ذكريات التاريخ الإسلامي في إسبانيا المملوء بالأمجاد والمآثر، ويوجد فيها عدد لا بأس به من العرب المقيمين في إسبانيا، الحاصلين على شهادات علمية ويعملون في مجال اختصاصهم، أو الذين يعملون في مجال التجارة والأعمال الحرة، أو الذين يتابعون دراساتهم فيها على السواء، حيث يلتقون في المراكز الإسلامية أو النوادي العربية الإسبانية التي ترمي إلى تجميعهم وزيادة تمسكهم بعروبتهم ودينهم، وإلى تعزيز علاقتهم مع أهلهم في وطنهم الأم.

الكوخ العاشق

شعر: محمد منذر لطفي

جـاءني .. ينشـر سِـحـرهْ   والضُّـحى.. يغـزلُ تِبْـرَهْ
وحـديثُ العين في سِـفـ   ـرِ الهـوى يكشف أمـرَهُ
حـبُّـه في شَـفَـتَـي لحـ   ـنٌ وفي قلبي مَـسـرَّهْ
يتـشـهَّى الطَّلُّ رَيَّـا   هُ ويهـوى الكرمُ خـمـرَهْ
هو سِـرُّ الفـتْنةِ العـذ   راءِ هلْ أكـشفُ سـرَّهْ .. ؟
أيُّ حُلْمٍ زار «كـوخي »   ومـضى يَسـفح عطرَهْ ..؟
راح يُغـريني .. وللحُـسـ   ـنِ سَنَـا أعـشقُ بـدرَهْ
راح يدعـوني .. فَلَبَّـيْـ   ـتُ وبـعـضُ الحـبِّ ثـورَهْ

في ضـمـيـر «الكوخ» طَيْـفـا   نِ وعَـتْـبٌ .. وأمـانِ
ولـقـاءٌ .. عَـبِقُ الأطْـ   ـيـابِ وَرْدِيُّ الحـنـانِ
والمُنى رفَّتْ كـمـا رفـ   ـفَ السَّنا في مِـهْـرجـانِ
والهـوى وَشَّى فُـؤادَيْـ   ـنا بأحـلامٍ حِـسـانِ
وكـرومُ الحلوةِ المِـغْـ   ـناجِ صـهـبـاءُ الزمـانِ
أسْلَمَـتْني لرؤى حُلْـ   ـمٍ حـريريٍّ المعـاني
فـأطلَّ الحبُّ.. والشـو   قُ وبـاحـت نَـظـرتـانِ
فـإذا كُلٌّ مـتـاع «الـ   ـكـوخ » أحـداقٌ رَوانِ



رحيلها

شعر: عقيل بن ناجي المسكين



لم أدرِ.. ما قالتْ نجومُ الليلِ أو باحتْ بهِ للساهرينْ!!
لم أدرِ.. هل كشفتْ غطاءً للأنينْ؟؟
نظمتْ قصيدَ الراحلينْ..
أم أنها عزفتْ لحون الغابرينْ..
وترًا حزينًا منْ سنينْ..
آهاتهُ تحكي.. تقولْ:
قدْ آنَ يا «ليلى» الرحيلْ..
آن الرحيـ ...

لم أدرِ أن النورَ يذبحُ عاشقيهِ كغادرٍ
يهوى الدماءْ
والهائمينَ بأنسهِ والمتعبينْ..
الحزنُ خيَّمَ في العيونْ
والأدمع الحرَّى كـ «سيلٍ» لا يبينْ..
عشقٌ يهرولُ كالجنونْ
والهمُّ أضحى كالغيومْ
رحلتْ على متنِ النجومْ...

تحت ظلال الصنوبر

قصة من الأدب الهندى الحديث

بيغم حجاب امتياز علي* ترجمة: سمير عبدالحميد إبراهيم

منذ قدمت إلى هذه المناطق الجبلية، وأنا أسمع من الصغير والكبير عن جمال نهر «روحناك» وفتنته الخلابة، يقول الناس: إن الأحلام الوردية تتلألأ على شاطئه المغطى بظلال الصنوبر، وطبقًا لما يردده البدو القادمون من أعالي الجبال، فإن قمم جبال مجهولة تشق أخدودًا في السماء، عند منطقة ماء، ومن هناك ينساب مجرى نهر «روحناك» أخدودًا يمضي بين المناطق الجبلية. يتلوى، وينحني، حتى يشكل في النهاية نهرًا يمضي في هذا الوادي.

متى كان يمكن أن يقر لي قرار من دون أن يجذبني الشوق العارم إلى مشاهدة هذه المنطقة والتنزه فيها خصوصًا بعد أن سمعت هذه العبارات الرومانسية؟!

توسلت إلى صديقتي «جسوتي» ذات يوم.. قلت لها:

«مرّ على مجيئنا هنا أسبوعان بالتمام، ومع هذا لم نذهب حتى الآن إلى النزهة في نهر «روحناك» إن رأيت الأمر مناسبًا لك، استأجرنا الليلة «فالوكة» وقمنا بنزهة في النهر.

صديقتي جسوتي فتاة لها طبع سليم، تغطي وجهها حمرة ممزوجة بالبياض، وأنا نفسي حملتها على المجيء معي في هذه الرحلة، بل أجبرتها على ذلك.. ابتسمت جسوتي وقالت:

«كما تحبين يا عزيزتي، ولكني أخاف الماء».

عندئذ قالت خادمتها السمراء، المشوقة القوام:

«سيدتي! سمعت أن هناك على شاطئ نهر «روحناك» ملاحًا عجوزًا، يبلغ من العمر مئة عام، ملاحًا خبيرًا، لا تهتز له سفينة أمام الأمواج، فإذا أمرت قمت باستئجار فالوكة (الصحيح فُليكة) هذا الملاّح».

فقلت من دون مبالاة: «لا يهم من يكون الملاّح، ولا يهمنا أي فالوكة تكون..».

فقاطعتني جسوتي: «ملاح عمره مئة عام، ويبحر بفالوكة..».

قالت الخادمة السمراء: «سيدتي! سمعت أنه يقود الفالوكة منذ سبعين سنة، ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا، لم تتعرض لحادثة قط».

وانتهى الأمر بذهابنا على الفور لاستئجار الفالوكة، وترتيب أمور شاي المساء الذي سنتناوله فيها.

حين وصلنا جسوتي وأنا إلى المكان الذي سيبدأ منه الملاح العجوز الرحلة على سطح نهر «روحناك»، وجدنا في انتظارنا فالوكة مزخرفة بقطع من المرايا الصغيرة والفصوص الزرقاء والحمراء كأنها جواهر حقيقية، ومن خلال تموج الستائر المرصعة باللآلئ، بدت لنا وسائد جميلة مصفوفة فوق قطع من السجاد العجمي، كأنها تدعو القادم إلى الجلوس والراحة.

ابتسمت وقلت لجسوتي: «يبدو أن هذا محراب هارون الرشيد».

بعد أن انحنينا قليلاً وولجنا إلى الداخل، التفتنا فرأينا ملاّح السفينة، شيخًا بلغ المئة، يجلس في الناحية المقابلة، ممسكًا بيده المجداف بقوة، وعلى وجهه الذابل، كانت شعيرات لحيته البيضاء الطويلة تتراقص بفعل نسمات هبت في الحال، لم نشاهد في عينيه الغائرتين بريق الحياة، كل ما بدا على وجهه، كان ملامح حسرة الماضي الذي ألقى بظلاله على نظرات عينيه.

أعدت الخادمة السمراء الشاي، ووضعته أمامنا، فبدأنا نرتشف الشاي بلذة، ونسكب جرعة منه تلو الأخرى في حلوقنا، ونحن نمضي ببطء إلى داخل مجرى النهر الذي كان الغروب قد غطاه، بينما كانت الشمس تماطل، تنثر أشعتها الذهبية فوق سطحه.. وبدا المنظر تدريجياً يدعو إلى الهيام، فشعرنا بعطر النسيم العليل يفوح أكثر فأكثر، بينما بدا صوت تتابع الموجات الهادئة كأنه مطر يسقط في جزيرة أحلام على البعد.. واحتوتنا الطبيعة بجمالها، وضمتنا بسحرها الخلاب، فشعرنا كأننا في أحضان جمالها الرباني، صورة رائعة.. ترى فيها الشمس وهي تميل إلى الغروب، تظهر في كل لحظة بطريقة مختلفة، يصعب على الناظر تخيلها، كنا كالأطفال المبهورين أمام «الحاوي» الذي يعرض ألعابًا تتغير أشكالها بين لحظة وأخرى.. يا إلهي سبحانك!

كانت هذه أرض الأحلام بحق، كانت جزيرة الخيال من دون منازع.. تراءت لنا أشجار الصنوبر الفارهة الضخمة التي بدت كأنها انبثقت من باطن الأرض منذ لحظة، ومن بينها ينساب بساط من الأزهار البديعة، ومن ناحية أخرى بدت التلال الخضراء كأنها تستحم في بحر من النور البديع، وبدت في إحدى النواحي سلسلة هضاب تختفي وسط نتف السحاب في الأفق البعيد.. غلفنا الصمت، وعمنا السكون، لم أدر كم ابتعدنا؟ وكم من الوقت مر على الفالوكة وهي تسير بنا في النهر؟ وفجأة انتبهنا على صوت الخادمة السمراء وهي تقول:

«سيدتي! لنرجع.. فالشمس تغرب.. حتى لا نضل طريقنا على سطح الماء».

فنطق الملاح العجوز وقد علا وجهه شبه ابتسامة مشكوك فيها، وقال:

«مستحيل.. لن نضل الطريق.. لقد اعتدت اجتياز مجرى النهر مدة سبعين عاماً».

أخذت أحدق صامتة في وجه الملاّح، الذي تركت حرارة الأيام وبرودتها على وجهه أخاديد ظاهرة، كتلك التي تتركها عوامل التعرية على وجه الطبيعة، ثم سألته:

«يبدو أنك تسكن هنا منذ ما يقرب من قرن من الزمان؟!».

- «نعم».

- «أين بيتك؟».

- «بيتي! لا يوجد لي بيت في أي مكان يا سيدتي! إنني أسكن ظلال أشجار الصنوبر».

وشعرت أن آهة انطلقت من صدره الضعيف وهو ينطق بعبارته الأخيرة، فقلت له وأنا في حيرة:

«تسكن ظلال الصنوبر! هذا الحر الشديد الذي لا يطاق، والبرد القارس لا يجعلانك ترفض هذا الشكل من المعيشة؟ ألا يوجد لديك حل لهذا الأمر؟

- «حل!» قالها وهو يضحك ضحكة باهتة. «يوجد لدي ذكريات قديمة، ومن يوجد لديه ذكرى، لا يمكن للصيف، ولا للشتاء ولا لأي فصل آخر أن يترك أثره فيه».

وازداد فضولي فجأة فقلت له:

«يبدو أن ماضيك مملوء بالحكايات».

لكن العجوز لم يلتفت إليّ وظل يتمتم.. يتكلم مع نفسه:

«أفضل أن أعيش تحت ظلال الصنوبر، من الصعب عليّ أن أفارق هذه الظلال ساعة واحدة، حينما لا أذهب للعمل في المدينة أظل هنا أتجول في مركبي هذا تحت هذه الظلال».

سألته بلهجة كلها توسل ورجاء:

«ألا يمكن أن تطلعنا على السر الذي يجعلك تعشق ظلال الصنوبر إلى هذا الحد؟».

- «هذا ليس سراً» نطق بهذه الجملة فجأة، وقد تحول إلى شبح أسود تجاه أشعة الشمس.

- «إن الجميع يعرف لماذا أعشق ظلال الصنوبر؟ ولماذا أريد أن تنتهي أخر أنفاس حياتي تحت هذه الأشجار؟».

أسندت أنا وجسوتي ذراعينا على الوسائد، وأنصتنا إليه بعمق، بينما أمسك العجوز بالمجداف بين يديه، وراح يسمعنا حكايته بلا مبالاة.

- «منذ سبعين سنة كانت الدنيا في نظري في عنفوان شبابها، كنت أشعر في كل حركة من حركاتها بالفتنة والسحر والجمال، لم أكن ملاحاً فقيراً، بل كنت من التجار الميسورين في هذه الناحية من الجبل.

ذات يوم وفي فصل الربيع.. وفي ليلة كان فيها القمر الفضي يضاحك السماء، خرجت إلى شاطئ النهر، وحين اقتربت من ظلال أشجار الصنوبر تلك وقعت عيناي على صورة نادرة للحسن والجمال.. كانت فتاة صغيرة تجلس على صخرة خضراء تحت ظلال الصنوبر، ثم تحولت فجأة إلى سلّة!! لا تطلبوا مني تفصيل ما حدث.. فظلمة الليل تحل علينا.. احسبوا أنني لم أذهب إلى هناك.. كانت هناك قوة تجذبني، تلك القوة التي تملأ قلب كل شاب بورود المحبة وأزهارها.. بدأ الحب يربط بيننا، كنا نلتقي كل يوم تحت ظلال الصنوبر المتراقصة، فيعبر كل منا للآخر بقلب مضطرب عن أمانيه وآماله.. وبسرعة فائقة تزوجنا».

عندئذ صرخ فجأة بلبل حزين من أعلى شجرة الصنوبر، فاستدار العجوز، ونظر إليه، ثم قال وهو يرتجف:

«ماذا يقول هذا الطائر المجنون؟ هنا نهاية طريق المحبة، إنه لظلم شديد جداً».

نظرت إلى جسوتي بصمت، تطلعت إليها دون أن أنبس بحرف، لابد أن قلب العجوز كان يفور يوماً ما بينبوع الشعر.. ضرب العجوز الماء بمجدافه عدة ضربات ثم تأوه وقال:

«بعد الزواج مرت ستة أشهر في غاية السعادة، وفجأة قلب حلم تعس حياتنا رأساً على عقب، ففي الصباح فتحت زوجتي عينها وهي راقدة على وسادتها وقالت بلهجة حزينة:

«لقد رأيت حلما فظيعاً».

فنظرت إليها بحب متسائلاً: «كيف كان هذا الحلم؟».

فأصدرت آهة طويلة وقالت: «رأيت في منامي ملاك الأقدار الذي أوكل له الله كتابة أقدارنا، جاء يرفرف بجناحيه من أعلى قمم الجبال، وقال لي: إذا لم تزيني شعرك بزهرة ورد ذات لون بنفسجي قبل حلول الليل، فسيحل الخراب في بيتك..».

قبل سبعين عاماً كانت الدنيا ملأى بالخرافات والأوهام التي لا حصر لها، وهكذا حين سمعت من زوجتي قصة الحلم الفظيع، تحول حبي إلى خوف وذعر، فقالت زوجتي بعد أن رأت اضطرابي وقلقي:

«لكن لماذا كل هذا القلق؟».

فقلت لها: «كيف لا أقلق يا أعز من في الوجود؟ ألا تعلمين أن زهرة الورد ذات اللون البنفسجي نادرة بل لا وجود لها في هذه المنطقة الجبلية؟!».

اصفرّ وجه زوجتي على الفور وقالت:

«نادر.. غير موجود؟! إذن ماذا سنفعل؟! لابد أن أزين شعري بالوردة البنفسجية قبل حلول الليل، وإلا تحطم بيتنا السعيد، هكذا قال ملاك الأقدار».

واضطربت من الأفكار التي ملأت ذهنها ولا تدري عنها شيئاً، ثم انفجرت في البكاء، فأخذت رأسها، وأرحتها على صدري، ووعدتها أن أرسل جميع «الجنايني» في المدينة إلى مختلف حدائق المناطق المجاورة، وسوف ألحّ عليهم أن يحضروا بشكل أو بآخر زهرة الورد البنفسجية.

نشرت زوجتي شعرها الطويل على كتفيها فانساب حتى وصل إلى خصرها، وانطلقت لتستحم عند عين الماء القريبة، حتى تصفف شعرها قبل أن تصل الوردة البنفسجية.. وخرجت بدوري مرتبكاً مضطرباً قلقاً، للبحث عن الوردة البنفسجية، قابلت كل بستاني في المدينة، وسألته، ولكن الجميع قالوا إن من المحال أن توجد وردة بلون البنفسج في تلك المنطقة، وأصابني اليأس والحزن والأسى، فذهبت إلى بستان حاكم المدينة، وعرضت على البستاني حاجتي.. كان رجلاً ظالماً جداً، فكر.. وفكر ثم قال: إن زهرة الوردة البنفسجية موجودة في بستاننا، لكن قيمتها لا تقل عن ستة جنيهات أشرفية، فوضعت الجنيهات الستة في

كفه، وأخذت الوردة البنفسجية، وعدت إلى بيتي فرحان تغمرني السعادة.

طارت زوجتي من الفرح حين شاهدت الوردة البنفسجية، وقالت مبتسمة:

«لو لم أزين شعري بهذه الوردة فأي مصيبة كانت ستحل بنا يا تُرى؟!».

فقلت لها: «هاك الوردة ضعيها في شعرك على الفور..».

لكن لا أدري ما الذي جعلها تقول لي: إن شعرها لا يزال مبتلاً، ويستحسن ألا أضعها الآن، سأضعها قبل أن يحل الظلام.. قالت هذا ثم ملأت إحدى المزهريات بالماء، ووضعت فيها الوردة، وحتى تظل الوردة بطراوتها ورونقها وضعت المزهرية على حافة النافذة في الهواء الطلق..

لم أستطع الذهاب إلى عملي ذلك اليوم لانشغالي بالبحث عن الوردة طوال اليوم، فذهبت إلى أحد المحلات، وفي المساء وحين كنت في طريق عودتي إلى البيت التقيت فجأة صديقي القديم «حمري» قريباً من بيتي، لم أكن قد رأيته هنا منذ عدة أسابيع، عانقته بسرور..

«كنت قد ذهبت إليك، ولكن لم أجدك، ويئست من لقائك، وها أنا ذا راجع من حيث أتيت»، ولم يكد ينهي جملته حتى وقع بصري على عُروة عباءته، فتوقف الدم في عروقي، وانكتمت أنفاسي وسألته على الفور:

«حمري! من أين أتيت بهذه الوردة البنفسجية؟!».

كان صديقي حمري بطبعه مرحاً وصاحب دعابة، فضحك قائلاً: «لماذا؟ لماذا بدا عليك القلق هكذا؟ لقد أهدتها لي حبيبتي.. شيء نادر الوجود، بل لا وجود له هنا في هذه المنطقة!!».

أظلمت الدنيا أمام عيني، وأُصبت بالذهول، ذلك الحلم، ملاك الأقدار، نبوءته كل ذلك كان كذبًا وخداعًا، لقد اخترعت زوجتي هذا الكذب المزخرف لمجرد أنها تريد أن تزين عروة عباءة حمري... يا للحياة القاسية!! يا للحياة الظالمة!!

وصلت إلى البيت وأنا أرتعد غضبًا، رأتني زوجتي، فجاءت مهرولة، قالت والدموع ترقرق في عينيها:

«يا للأسف!! انظر لسوء الحظ.. لقد ضاعت الوردة.. يا اللّه.. ماذا أفعل الآن؟ لابد أن مصيبة ستحل بنا، لا بد ستحل بنا مصيبة».

وصدر عني زفير، وقلت:

«لا يمكن أن تكون هناك مصيبة أكبر من الموت، أدركي أن موتك قد حان».

وتحيرت زوجتي، وبدأت تنظر إليّ، لكني في ذلك الوقت لم أكن أرى في أي حركة من حركاتها سوى المكر والخداع والدهاء، فصرخت وقلت:

«حان موتك.. استعدي لتتحقق نبوءة ملاك الأقدار».

فتعجبت وقالت:

«ماذا تقول؟ لا تقل هذا الكلام، بالله عليك، ابحث عن الوردة البنفسجية، لقد وضعتها في الشباك حتى تكون في الهواء الطلق، وانشغلت بتصفيف شعري، وحين عدت، نظرت فلم أجدها في الشباك».

أشعل كلامها الماكر النار في جسدي وفي بدني، فأمسكت ذراعيها اللينتين بيدي القويتين، ودفعتها بقوة إلى الحائط، فارتدت بعد أن اصطدمت به، وتفجرت الدماء من رأسها كالنافورة..

وفي ظلمة الليل البهيم دفنتها تحت ظلال أشجار الصنوبر تلك، حيث كان لقاؤنا الأول..

وانتابني شعور جنوني غير إرادي، وبينما كنت عائدًا إلى البيت إذا أنا مصادفة ألتقي صديقي (حمري) عند منعطف أحد الطرق، وحين رأيته فارت الدماء في عروقي، وتطاير الشرر من عيوني، لكنه ضحك وقال:

«عيناك حمراوان، كأنك سفكت دم أحد الآن في هذه اللحظة».

كان يتكلم وكأنني لا أعرف عن سره الدفين شيئًا، فهجمت عليه وأمسكت بتلابيبه، وقلت:

يا خسيس! أتظن أني لم أسيّل دمها؟ لقد واريتها في التراب». قلت هذا، ونزعت الوردة البنفسجية من عروة عباءته، وألقيتها على الأرض، ورحت أسحقها تحت حذائي بحركات مجنونة، وظل حمري يحملق في وجهي دهشًا متعجبًا، حتى إذا قلت له: لقد قضيت على حبيبتك، وأنا أستعد الآن لأقضي عليك، عندئذ وجدته يصرخ من أعماق قلبه قائلاً:

«يا قصير النظر! يا متعجل! أيها التعس المنحوس! تلك الوردة البنفسجية التقطتها من الشارع حين كنت أمر من ناحية السوق، وجدتها فالتقطتها، ولعلها سقطت من شباك بيتك»..

سمعت كلماته، فغيمت سحابات الظلام على عيني.. سحابات لاتزال تغيب عن نظري تقلبات الزمان وتعاقباته..

كان كلام ملاك الأقدار صحيحاً، فلم تستطع زوجتي أن تزين شعرها بالوردة البنفسجية في تلك الليلة، وتحطم بيتنا على يدي، نتيجة لحماقتي وتسرعي، لقد مر على هذه القصة أكثر من سبعين سنة، ولكني لا أزال نادمًا على ما ارتكبت من خطأ، وما اقترفت من ذنب، ولا زلت أشعر بالاحترام والحب لهذا الطين الذي دفنت فيه حبي تحت ظلال الصنوبر..

ووصلت الفالوكة إلى الساحل.

هامش

• الأديبة حجاب إسماعيل التي صار اسمها بعد الزواج بيغم حجاب امتياز علي، نالت مكانة عالية في الأدب الأردي بين كتاب القصة القصيرة، وكان ذلك قبل تقسيم شبه القارة الهندية في عام ١٩٤٧م، وقد عمدت في قصصها إلى التركيز على التعاطف بين الناس، وبيان الشعور بآلام الآخرين، ومن هنا غلب طابع الحزن على قصصها، واشتهرت من ناحية أخرى بقصصها الخيالية، وعنصر الخيال دائماً واضح في قصصها، كما أن الطابع الرومانسي يسود كتاباتها التي تتميز بالإبداع، ومن العجيب أن تتوقف عن الكتابة بعد تقسيم شبه القارة.

وتمر السنون

ياكوف سيفيل* **ترجمة: توفيق ونوس**

نيسان

- ألو.. من يتكلم؟
- ألو.. إنني أقضم تفاحةً شهية.
- ماذا؟
- أقضم تفاحةً شهية.
- من تريدين؟
- أنت.
- ومن أنتِ؟
- فتاة.
- وهل أعرفك؟
- كلا.. لكنني لمحتك مرتين وشعرتُ برغبة للاتصال بك.
- لتقولي أنكِ تقضمين تفاحةً شهية؟
- فعلاً.
- آه.. إن صوتك رائع.
- شكراً.. سأقفلُ الخط.
- بهذه السرعة؟ لكن لماذا اتصلتِ بي؟
- لأسمع صوتك.
- فقط؟
- فقط.
- انتظري لحظة.. لا تقفلي الخط.. إن صوتك رائع.
- سبق أن قلتَ ذلك.
- إذا أقفلتِ الخط فسوف أفقد أثركِ.
- لا يهمّ.
- هيا.. على الأقل أخبريني ما اسمك؟
- قدَ لا يفيدكَ ذلك.. لكن اخترْ.. كاتيا، كاتنكا، كاترينا.. أيها تفضل؟
- أيها تفضلين أنت؟
- في الحقيقة لا أفَضل أحدها.. لكن أفضل كارينا.
- حسناً يا كارينا.. هل أستطيع الاتصال بك؟
- لكنك لا تعرف رقم هاتفي.
- إذن أعطنيه.
- كلا.
- حسناً .. عديني بالاتصال بي ثانية.
- ....
- ألو.. أين أنتِ؟
- نعم.
- ماذا بك؟
- إنني أفكَر.. لا بأس.. سأتصل بكَ.
- في نفس الوقت غداً.
- حسناً.. في السادسة غداً.

غدا في الساعة السادسة

- ألو إنني أقضم تفاحةً شهية.
- مضى عليً نصف ساعة قرب الهاتف.
- اتفقنا على الساعة السادسة، وها هي السادسة الآن.
- شكراً كارينا.
- ماذا؟
- إذا سألتك شيئًا فهل تجيبين؟
- هذا يعتمدَ على السؤال.
- كم عمرك؟
- ١٦.. حوالى ١٦.. وأنت عمرك ١٧ واسمك ميشا وتقطن في ٢٣ شارع بترفكا.
- كيف عرفت كل ذلك؟
- أعرف كل شَيء عنكَ.
- هذا ليس عدلاً.
- لماذا؟
- لأنك تعرفين عني كل شيء.. وأنا لا أعرف عنك شيئًا.. هل أنتِ طويلة؟
- متوسطة.
- جميلة؟
- متوسطة أيضًا.. سأنصرف الآن.
- لحظة واحدة.. متى تتصلين بي ثانيةً؟
- لا يهمَ.
- لا.. إنه مهم.
- سيّان.
- لمِ لا تعطيني رقمك؟
- ....
- هل تفكرين؟
- لا بأس.. اكتب ٩٨٦٣٥٧.

الساعة ١٠ر٦ من اليوم نفسه

- استعلامات؟
- نعم.
- إني أعرف الرقم وأريد معرفة العنوان.
- آسفة.. لا يمكن تقديم مثل هذه المعلومات.
- لكني بأمس الحاجة إليها.
- آسفة جداً.. لا يمكنني مساعدتك.
- إذن ماذا أفعل؟
- لا أدري.. ابحث في دليل الهاتف.
- قد يستغرق ذلك سنين.



- لا أستطيع مساعدتك.
بعد يومين
- آلو.. هل أستطيع التحدث مع كارينا من فضلك؟
- لا يوجد لدينا أحد بهذا الاسم.
- لا يعقل ذلك.. إنها فتاة في السادسة عشرة من عمرها.
- أوه.. ربما تكون كاتيا غرادوفا.. فهي تخلع على نفسها أسماء مبهجة.. تعالي يا كاتيا.
- آلو.. كارينا.. هذا أنا.
- لقد خمنت ذلك.
- تلك المرأة لم تعرف من أريد حين سألتها عن كارينا.
- أنت الإنسان الوحيد الذي يعرف هذا الاسم.. فهو سر.
- حسناً.. لن أبوح به لأحد.. ولقد عرفت كنيتك أيضاً.. غرادوفا أليس كذلك؟ وبت أستطيع الحصول على عنوانك من الاستعلامات.. فإذا أعطيتهم اسمك فلابد أن يعطوني عنوانك.
- أرجوك لا تفعل ذلك.. لكن لا، لا.. أفعل إذا شئت، فلن يجديك هذا نفعاً.. إن الهاتف ليس باسمنا.
- هكذا إذن.. عليّ الانتظار.
- ولِمَ الانتظار؟
- إن صوتك ساحر.. وأريد رؤية قوامك.
- قلتَ لك إنه متوسط.
- غير ممكن.
- كلمة شرف.. إنه متوسط تماماً.
بعد بضعة أيام
- آلو.. أريد كارينا من فضلك.
- من؟
- أقصد كاتيا.. كاتيا غرادوفا.
- يا لهذه الأسماء التي تبتدعها هذه الفتاة.. ليست موجودة.
بعد بضعة أيام
ألو.. هل أستطيع التحدث مع كاتيا غرادوفا من فضلك؟
- آسفة.. جميع آل غرادوفا في السوق.
بعد بضعة أيام أخرى
- ألو.. أريد التحدث مع كاتيا غرادوفا من فضلك.
- أنا والدتها.. لقد ذهبت كاتيا لقضاء الصيف عند جدتها.. سأكتب لها غداً.. هل تريد شيئاً؟
- أرجوكِ أخبريها أن ميشا يسأل عنها.
نهاية تموز
- ألو.. هل أستطيع التحدث مع كاتيا غرادوفا؟
- أظنُّها خرجت.
- إذن والدتها من فضلك.
- دقيقة.
- ألو..
- ألو.. هل أنتِ والدة كاتيا؟
- نعم.
- هل تذكرينني؟ لقد اتصلت بكِ منذ مدة.
- آه.. نعم أذكرك.. ستحضر كاتيا من الريف غداً.. اتصل بها غداً.
- لا أستطيع غداً.. فأنا راحل.
- هل ستنزح؟
- كلا.. بل سأنطلق إلى الخط الأمامي للقتال.. بلّغي كاتيا أسمى تحياتي ولك أطيب تمنياتي.
- أتمنى لكَ عوداً سالماً أيها الشاب.. ماذا قلت اسمك؟
- ميشا.
بعد أربع سنوات
- ألو.. هل أستطيع الاتصال بكاتيا غرادوفا من فضلك؟
- من
- كاتيا غرادوفا؟
- لا يوجد أحدٌ لدينا بهذا الاسم.

- بل كانت تقطن لديكم قبل الحرب.
- انتظر لأسأل لك الجوار.
- ألو.. هل أستطيع مساعدتكَ؟
- إنني أبحث عن كاتيا غرادوفا.
- لقد رحلت منذ أربع سنين ولم تعدْ.
- إذن ليست في موسكو.
- لا.. بل هي في موسكو.. لكنها انقطعت عن الحضور إلى هذه الشقة منذ مصرع والدها.. وهي تعيش اليوم مع أسرة زوجها وقد رُزقت بطفل، كما ذهبت أمها للإقامة معها أيضاً.
- وهل لديك رقم هاتفها الجديد؟
- لحظة.. إنَه مدوَّن على الحائط.. اكتب ٨٧٥٣٩١.

اليوم نفسه

- ألو.. هل هذا ٨٧٥٣٩١؟
- نعم.
- هل أستطيع التحدث إلى كاتيا غرادوفا.
- لم تعدْ تحمل اسم غرادوفا الآن. لقد أصبح اسمها زيمتسوفا.. هذه أنا ياميشا.
- وكيف عرفتني؟
- هذا أمر بسيط.
- انقضى أكثر من أربعة أعوام.. ومازلتِ تعرفين صوتي؟
- أجل.. وأنا مسرورة لكونك..
- حياً.
- نعم.. ولأنك اتصلتَ بي.
- لا زال صوتك كعهده.
- لا أصدق أنه انقضى أربع سنوات ياميشا.
- بل أكثر.. إذن أنتِ الآن زيمتسوفا.
- نعم لقد تزوجتُ.
- إنني أعلم ذلك، وأعلم أنكِ رُزقت بطفل وأن والدتكِ تعيش معكِ وأعرف رقم هاتفك.
- هذا كله صحيح.. الآن أنت تعرف عني كل شيء وأنا لا أعرف عنك شيئًا.
- ماذا تريدين أن تعرفي؟ حاربت كسواي في الخط الأمامي وجُرحت مرتين.
- وكيف جراحك؟
- لقد تعافت.. ثم سُرِّحت وعدتُ إلى البيت ويبدو أنني كبرتُ فثيابي باتت صغيرة علي.
- حوالي خمس سنوات.. زمن لا بأس به.
- في جيب بزَّتي القديمة وجدتُ مذكرة صغيرة تحمل رقم هاتفك فاتصلت به وأعطوني رقمك الجديد.
- أشكرك على اتصالك.
- والآن تزوجت؟
- منذ زمن.
- يبدو أنك تعتذرين.
- مجرد مصادفة.
- وهل تحبين زوجك؟
- كثيراً وأحب طفلي.. وكلاهما يحبني.
- كارينا..
- ....
- كارينا.. هل أستطيع أن أراك؟
- ...
- لمَ لا تجيبين؟ هل تفكرين؟
- لقد فكرت.
- يا لصوتك العذب.
- ولِمَ ينبغي أن نتقابل؟
- لمَ؟
- آه.. إنك تنعت صوتي بالعذوبة والروعة.. وهذا لطف منك.. لكن كيف أوضح لك ذلك؟ لست أدري.. أنت تعتقد أن صوتي جميل.. وربما تتوقع أن أكون شيئًا ما خاصًا.. هل تتابعني؟
- قليلاً.
- لابد أنك تعي ما أقول.. والآن دع الأمور تجري كما كانت منذ أربع سنوات وأن ثمة فتاة تدعى كارينا.. لها صوت رائع.
- ....
- لاحظ.. أنت الذي لا تجيب الآن.
- إنني أفكر.
- لك مني أطيب التمنيات يا ميشا.. تمتع بالحياة.
- لا أدري إن كنت سأتمتع.. لكنني سأحاول.
- آمل لك ذلك.
- كارينا.. وجهي لي كلمة حلوة قبل الفراق.
- ماذا مثلاً؟
- أي شيء تحبين؟.. أفضل شيء تفكرين به الآن؟
- إنني أقضم تفاحة شهية.

هامش

* ياكوف سيفيل كاتب روسي، ولد في موسكو في عام ١٩٢٣م، وانتسب إلى المعهد السينمائي وأصبح مخرجًا سينمائيًا لامعًا. من أشهر أفلامه «البيت الذي أسكنه»، و«وداعًا للحمام». كما اشتهر بكتابة القصة القصيرة.

الطفل واللغة الأجنبية

كلود هاجج مراجعة: محمد الدنيا

إذا كانت الطفولة هي فعلاً مرحلة الإمكانات الأغنى والأكثر تنوعاً في الحياة، فإنها مرحلة فحسب، ومن ثم كان من المناسب أن نستغل ما تنطوي عليه من قدرات واسعة من دون تأخر. وذلك صحيح بشكل خاص في ميدان اللغات، سواء أكانت اللغة رئيسة أم مضافة، بهدف تكوين شخص ثنائي اللغة Bilingue.

إن فرص نجاح التعلم الثنائي اللغة ترتبط ارتباطاً مباشراً بمدى حرصنا على تشجيع هذا التعلم منذ بداية الحياة، لقد لوحظ أن الطفل يميز صوت أمه منذ الولادة، وأنه بعد بضعة أيام من ولادته لا يكون حساساً لكل ظاهرة صوتية فحسب، بل إنه يكون قادراً أيضاً على تحديد مصادر الأصوات. فالملاحظ أن الطفل يلتفت نحو مصدر الصوت، ويمكننا من خلال ملاحظة حركته الرأسية، التي تفيده في تحديد مصدر الصوت، أن نستنتج أنه يتمتع فطرياً بتنظيم متطور في المراكز السمعية، إذ إنه قادر على تحويل مؤشرات البعد الزماني ومؤشرات الشدة السمعية التي تسجلها أذناه إلى تعابير مكانية.

بعد ذلك، تتعاقب المراحل بإيقاع مدهش. فمنذ منتصف الأسبوع الثاني من الحياة، نلمس لدى الوليد ظهور قدرة تمييز الصوت البشري من كل مصادر الأصوات الأخرى، سواء أكانت أصواتاً ناشئة عن البيئة الطبيعية أم عن نشاط الإنسان أم عن أصوات الدمى المختلفة أم عن أي مصدر آخر. وفي الأسبوع الرابع، يستطيع الرضيع تمييز بعض الحروف الصامتة Consonnes وبعض الحروف الصوتية Voyelles إذا سمعها بالتقابل مع حروف صامتة وحروف صوتية أخرى. وفي بداية الشهر الثالث، تتطور لدى الرضيع الحساسية نحو تغيرات مقامات الصوت البشري التي تتوافق والمضمون الدلالي Semantique القابل للتفسير: يبكي عندما يكون الصوت فظاً خشناً أو أجشّ معبراً عن التأنيب والغضب، ويبدي بشاشة عندما يتلون الصوت ونبراته بالحنان والمودة. أخيراً، وفي الشهر الرابع، يكون الرضيع قد اكتسب القدرة على التمييز بين الأصوات البشرية الذكرية والأنثوية (Petit 1992).

بين الفطري والمكتسب

وقبل أن يكشف الطفل عن أنه يعرف تحديد جنس الأصوات (مذكرة أو مؤنثة)، يكون قد بدأ منذ وقت سابق - نحو الشهر الثالث - يميز عدداً متنامياً من الأصوات التي تستخدمها اللغات البشرية في التفريق بين الكلمات (Werker et Tees 1983). إلا أن اللغات، على اختلافها، لا تستخدم سوى جزء، متغير جداً، من التضادات الصوتية التي يستطيع جهاز الإنسان التلفظي إنتاجها وتستطيع أذنه إدراكها. ولما كان عدد الأصوات التي يستطيع الطفل تمييزها أكبر من عدد نتاجات محيطه اللغوي، فإنه يمكن عدُّ هذه القدرة فطرية. ويمكننا أن ندرك أيضاً أن تعلم اللغة الأم خلال نمو الطفل لا يستغل سوى جزء من الإمكانات المسجلة في رمزه الوراثي Code Genetique.



L'ENFANT AUX DEUX LANGUES
CLAUDE HAGEGE
الطفل واللغة الثانية
كلود هاجج
باريس: منشورات أوديل جاكوب

مما سبق نستنتج أن مهمات تعلم اللغة تتوزع بين حقلين: أولاً حقل المكونات المنتقلة بالوراثة والمنتمية إلى نواة ترسيمات Schemas حسية حركية مبرمجة مسبقاً، يمكنها أيضاً، من حيث إنها تنظم الإدراكات والأفعال، تحديد السلوك اللغوي عند الطفل (Cellerier 1979)، وثانياً عناصر البيئة، أي العناصر التي تمنح الطفل خبرة خارجية حول العالم الطبيعي. وتؤدي هذه الخبرة دوراً حاسماً في تعلم لغات خاصة.

تقليد المحيط

لدى الطفل دافع تقليد يؤدي دوراً بارزاً في تعلم اللغات، كما هو الشأن في تعلم الحياة الاجتماعية كلها. وإذا كان هذا الدافع نفسه ناشئاً عن الرمز الجيني أو ناجماً عن البيئة، فإنه لا يتمخض عن سيرورة التقليد إلا إذا تم تحريضه. إن البيئة البشرية ليست حتمية فحسب من أجل أن يتعلم الطفل لغة قومه، بل هي حتمية كذلك، وبشكل خاص، للتعلم الثنائي اللغة. وهكذا، كما في اللياقة اللغوية، لا يفضي دافع المحاكاة إلى اكتساب اللغة إلا إذا وفر المحيط لها ظروف إجلائها وشروطه. فلكي يتعلم الطفل لغة من اللغات، فإنه يقلد البشر المحيطين به، فالتقليد معطى أساسي من معطيات علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وترتكز جميع طرائق تعليم اللغات على قوة تأثيراته في الطفل.

الحركات/الإشارات، والراشد والطفل

ليس النطق قابلاً للاكتساب بشكل حسن في أي سن كانت. هذا ما يؤكده النموذج السائد لدى الأجانب الذين تعلموا لغة ثانية في حياة رشدهم فلم يستطيعوا التخلص من لهجتهم الأصلية (أسلوب النطق المميز في التعبير الشفوي). وهكذا، كان ر. جاكوبسن متعدِّد لغات رائعاً، ولكن قيل: إنه يتحدث الروسية بعشر لغات Langues. إذن، يجب أن ننظر إلى العادات التَلَفُّظية Articula-toires المكتسبة منذ الطفولة في اللغة الأولى على أنها حركات (إشارات) Gestes اجتماعية، وأنه هنا تكمن الضغوط القوية التي تمارسها هذه الحركات عندما تترسخ. ولما كانت محددة بالجهاز الذي يمتد بين الشفتين إلى الحنجرة، أي بمدى ضيق إلى حدٍّ ما، فإن عمليات تلفظ الأصوات Sons، التي تمثل الجانب الصوتي من اللغات البشرية، هي سلوكيات حركية/إشارية أيضاً. إنها تنتمي إلى ثقافة جماعة معينة، تماماً كالحركات الأخرى، التي لا يخطر ببالنا أن نوازن بينها، لأننا لا نفكر بطبيعتها: الحركات التي تقوم بها اليدان مثلاً، أو الرأس، أو الساقان في أثناء المشي، والركوع، إلخ..، أو انحناء الجذع إلى الأمام، والخلف، والجانب.

ولكن هناك ملاحظة جوهرية تفيد أن اكتساب السهل والطبيعي من الحركات الثقافية عند الطفل يصبح متنامي الصعوبة منذ سن ٦ إلى ٧ سنوات، مع اختلاف كبير طبعاً في الحالات وفقاً للأشخاص. فخلال السنوات الأولى من الحياة، لا تكون الرغبة الشديدة في التعلم وطواعية التقليد معرضتين للضغوط الاجتماعية، أو هما ليستا كذلك إلا قليلاً. إن طفل الست سنوات لا يخاف من سخرية الآخرين إذا ما أطلق صوتاً غريباً عند تنفيذه الإيماءات اللازمة لإطلاقه، ولا يهمه كثيراً أن تصطدم حركات لسانه وشفتيه وأسنانه برفض الجماعة أو تهكمها، هذه الجماعة المعتادة، بتأثير ثقافة الوسط السائدة، على حركات وجهية مختلفة تعكس هويتها.

التطور السمعي واكتساب الأصوات

إن الإدراك السمعي والتلفظ الصوتي شديدا التمايز أحدهما من الآخر من وجهة نظر تكوّن الفرد Ontogenese. وقد بات معروفاً أن لدى الجنين ردود أفعال سمعية تجاه صوت الأم بشكل رئيس، تنتقل عبر السائل الأمنيوسي، نحو الأصوات الخفيضة التردد. وقد تبين أيضاً أن الوليد شديد التأثر بالأصوات المختلفة إذا كانت مشابهة لتلك التي سبق أن سمعها وهو في رحم أمه. ولا يعني ذلك بالطبع أن السمع تام منذ تلك المرحلة الجنينية، ذلك أن تشريح الأذن الداخلية والوسطى والخارجية، وكذلك تشريح العصب السمعي والمراكز الدماغية تشهد نموها المهم خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حياة الرضيع. إلا أن هذه المرحلة وجيزة جداً، ومن ثم فسرعة هذا النمو تشكل حدثاً رائعاً فعلاً.

التقليد معطى أساسي من معطيات (الأنثروبولوجيا) وترتكز جميع طرائق تعليم اللغات على قوة تأثيراتها عند الطفل

بالمقابل، هناك بطء واضح في تطور الجهاز الصوتي، إذ إنه في الواقع، لا يصل إلى مرحلته التشريحية التي تتوافق ووضع البلوغ إلا عقب الولادة بنحو ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين شهراً. وبشكل خاص، من المعروف أن إحدى الخاصيات النموذجية لحنجرة الوليد تتمثل في أنها ما تزال قائمة في موضع هو أعلى بكثير قياساً مع حنجرة الراشد، أي إنها ليست في مستوى الفقرات الرقبية الأخفض (من الرابعة إلى السابعة)، بل بمستوى الفقرات الأعلى. وبهذه الخاصية، فإن الطفل البشري لا يشبه مجمل الثدييات الأخرى غير البشرية فقط، بل جد الإنسان أيضاً، أي بالتحديد جد «الإنسان المنتصب» Homo erectus، ونعني به الإنسان الماهر Homo hab-ilis، الذي يتميز منه الإنسان المنتصب الذي ظهر قبل ٢٠٠٠٠٠ سنة تقريباً، من بين أشياء أخرى، بهبوط الحنجرة، المرتبطة على الأرجح بوضعية الانتصاب التي

أعطته اسمه. وبعبارة أدق، وكما كان الحال لدى «الإنسان الماهر»، ما دامت حنجرة الطفل في وضعية مرتفعة جداً، وهو ما يقلل من حجم تجويف البلعوم، فإن هذا البلعوم لا يمكنه العمل كمرنان، وبذلك لا يستطيع التأثير - كما هو الحال مع صوت البالغ - في الأصوات الصادرة بمستوى المزمار Glotte. كما أن هبوط الحنجرة، الذي يتم عند الطفل بين الولادة وسن السنتين، يمهد الطريق لعمل البلعوم كصندوق رنين.

عتبة سن الحادية عشرة الحاسمة

يتمتع الطفل كما ذكرنا بحساسية سمعية ممتازة نحو الخاصيات التي تميز الأصوات Sons في اللغات البشرية. ولكن يحدث منذ وقت مبكر فقدان سريع لهذه الثروات الوراثية. فإذا كان صحيحاً أن اللياقات المسجلة في رمزه الجيني Code Genetique واسعة جداً، فمن الصحيح مع ذلك أيضاً، أن ضغط الوسط - البيئة - قوي جداً هو الآخر. وقد تبين أن قدرات الطفل التمييزية تبدأ بالتضاؤل منذ سن ستة إلى عشرة أشهر أو اثني عشر شهراً. هنالك تضادات Oppositions صوتية لا يسمعها الطفل في محيطه، ببساطة؛ لأن اللغة المتكلمة في هذا المحيط لا تنطوي على مثل هذه التضادات. وبذا تتضاءل حساسية أذن الطفل لها شيئاً فشيئاً.

ويكمن تفسير هذا الانحسار على الأرجح في أن من شأن غياب الإثارات Stimuli في الوسط المحيط أن يؤدي إلى تراجع مرونة المشابك العصبية Synapses (المشبك العصبي هو نقطة تصل بين خليتين عصبيتين/ أو بين عصب وعضلة) التي تتوافق وهذه الإثارات.

ولا يعني هذا التراجع المرجح في مرونة المشابك - بالطبع - أن نخراً ذا طبيعة مرضية يدل على وجود آفة ما قد أصاب نواحي معينة من الخلايا العصبية. يعني ذلك فقط أن تضاؤلاً قد حدث في نشاط القدرات الوظيفية غير المحرّضة. ولهذا السبب، فإن التراجع الملحوظ ليس نهائياً.

وهناك ما يمكن أن يسمى الفترة الحرجة عند الطفل، وتقع بين سن سبعة أشهر - وهي السن التي تظهر فيها أولى علامات التراجع في اللياقات التمييزية الملاحظة خلال الأشهر الأولى من الحياة - وسن عشر سنوات - وهي السن التي يصبح هذا التراجع بعدها نهائياً بعد أن يبقى قابلاً للترميم حتى هذه السن - بعدئذ، يستحيل تجنب التداخلات بين اللغة الرئيسة واللغة المتعلمة كلغة ثانية، في غالبية الحالات على الأقل، أي دون أخذ المراهقين الموهوبين جداً في الحسبان، حيث يشكل هولاء حالة استثنائية.

يجب أن نتذكر أيضاً أن عتبة سن الحادية عشرة الحرجة هذه تشمل بشكل خاص تعلم الصوتيات Phonetique. وفي الميادين الأخرى، غير ميدان الأصوات Sons، يمكن تعلم اللغة الأجنبية بشكل جيد جداً. ففي كتاب وقعه مع ثلاثة مؤلفين آخرين، يؤكد م. كنديليه M. Candelier حقيقة العتبة الحرجة عندما يتعلق الأمر بالأصوات: «إن الرأي العام مقتنع بأن الطفولة هي فترة الحياة التي يمكن فيها فعل (الأعاجيب) على صعيد الاكتساب اللغوي. لقد بدا أن البحوث الفيزيولوجية العصبية قد وفرت - لسنوات طويلة - أساساً علمياً لهذا الرأي بالاستناد إلى فرضيات تحدد بعشر إلى اثنتي عشرة سنة السن التي يتم فيها التخصص في نصفي كرة المخ. ومن المعتقد اليوم أن ظهور هذا التخصص يحدث في وقت أبكر بكثير من هذه السن (المذكورة أعلاه)، مما يقوض التفكير الذي يربط هذه الظاهرة بتراجع مفترض في تعلم اللغات ... إن النطق Pro-nonciation هو الميدان الوحيد الذي أمكن فيه الحصول على عدد من الملاحظات المطابقة التي تدعم فكرة أن الأطفال (بين سن السابعة والعاشرة من العمر) هم أفضل اكتساباً للغة. أما بالنسبة إلى الجوانب الأخرى، سواء ما تعلق منها بسرعة التطورات المنجزة أم باكتساب الكفاءات اللغوية، فإن الدراسات متقاربة من حيث إثبات تفوق متعلمي اللغة الأكبر سناً. إذن، إذا كان من المؤكد، وفقاً لخبرات الحياة، أن الراشد يستطيع اكتساب سيطرة جيدة جداً على اللغة الأجنبية، ولو لم يتمكن من نطقها بشكل صحيح، فلا شيء



تعلم الكلمات من خلال النصوص المكتوبة أسلوب فعّال في تعلم اللغة

يؤكد أن الطفل هو أدنى قدرة فيما يتعلق بتعلم المفردات وآليات القواعد.

الاستماع والتصويت

إن أذن الطفل، حتى سن عشر سنوات، أو حتى سن إحدى عشرة سنة في الحالات الأنسب، هي عضو استماع عادي، لم يطور بعد توجهات (انحيازات) محددة. إلا أن التصويت Phonation على علاقة بالأصوات Sons التي يسمعها الطفل حوله. وهذا ما تظهره حالة الصمّ، الذين يسمون غالبًا «خرسانًا»، ولكن تجاوزاً، وذلك لأنهم لا يعانون - بشكل عام - من أي مرض تلفُّظي، وهم ليسوا خرساناً إلا لأنهم غير قادرين على إصدار أصوات لغوية، إذ إنهم لم يسمعوها. وفي حالات قصور السمع، دون وجود صمم تام، تصبح المنظومة الصوتية Phonologique المكتسبة مهددة بالتفكك في غضون بضع سنوات. ولا يمكننا بالطبع أن



اللوحات الإيضاحية من الوسائل المهمة لتعلم اللغة الثانية

نستنتج من ذلك، على نحو قاطع، أن التصويت مشروط مباشرة وشموليًا بالدلائل التي يأتي بها الاستماع.

بعد سن العاشرة إلى إحدى عشرة سنة، يصبح تراجع اللياقات الصوتية غير المحرضة عصياً على الترميم، إذ تغدو الأذن التي تبقى حتى هذا الوقت عضو الاستماع الطبيعي أذناً وطنية. ويمكن أن نطلق اسم الأذن الوطنية على الأذن التي تعمل على غرار المرشحة التي لا تفتح ممراً إلا للأصوات المعروفة في اللغة الأم، بدلاً من أن تعالج بالطريقة نفسها كل الأصوات التي تلتقطها، بأن تمهد الطريق لتسجيلها في الدماغ. إن أذن طفل الحادية عشرة الناطق بالفرنسية الذي لم يتعرض منذ ولادته للغة أخرى إضافة إلى اللغة الرئيسة، تتصرف على غرار مرشحة فيها أربعة وثلاثون ثقباً، أي عدد الوحدات الصوتية Phonemes نفسه في اللغة الفرنسية. فمنذ هذه السن، يصعب على معظم الفرنسيين أن يدركوا بوضوح أو أن يقلدوا الأصوات العديدة الموجودة في اللغات الأوربية الأخرى وغير المألوفة في لغتهم. وما ينطبق على الفرنسيين ينطبق على سواهم. إن هذه الأذن الوطنية موجودة لدى جميع أحاديي اللغة في العالم بدءاً بسن إحدى عشرة سنة، وهي سبب أساسي لتلك «النبرة (طريقة النطق) الغريبة» التي يميزها أصحاب اللغة فتفاجئهم أو يجدونها مسلية.

حاجز البلوغ والخوف من الخطأ

بعد تلك الفترة الحرجة، يُخشى الاصطدام بما يمكن تسميته حاجز البلوغ، ونعني بذلك تلك العتبة التي يصبح فيها المراهقون، على مدى عدة سنوات حاسمة، أقل نهماً للتعلم وأكثر اهتماماً بحالة الانتقال إلى سن الرشد وما يضيفه إلى أجسامهم من علامات وتغيرات. ويحل محل التشويق القوي الذي كان يمكن أن يجذب الطفل إلى اللغات حين تتضافر شروط انجذابه لها، فضول قلق يغذيه كثير من جوانب الحياة المختلفة. منذئذ، يتضاءل التذوق الطفولي إلى حد كبير تجاه المعالجات الشفهية. ويحل قلق الصورة الاجتماعية التي يحب المراهق إظهارها، وهاجس الاهتمام الدائم بآراء الآخرين حوله، ومن ثم يحل الخوف من الخطأ، محل التلقائية البهيجة.

وبدلاً من تحمل هذا الخطأ على أنه أمر فيه فائدة من خلال ما يستدعيه من تصحيح، نرى المراهق يخشاه بإصرار نتيجة ما يمكن أن يسببه من سخرية يتصورها مُنقصة لأهليته. وفي الحالات الأشد، يمكن أن يؤدي الخوف من ارتكاب الخطأ ليس إلى مجرد الصمت المتقطع، الملاحظ عند البعض أحياناً، بل إلى إحداث حالة من الحُبْسة A Phasie (فقدان الكلام أو فهم اللغة عقب أذية قشرية في نصف الكرة المخية المسيطر - الأيسر لدى اليمناويين أو الأيمن لدى اليسراويين - والتي يحدد توضُّعها نمط الحبسة).

فينبغي عدم المبالغة بوخامة هذا الوضع، فالأطفال قادرون على تجاوز الكثير من التثبيطات والعقبات الاجتماعية. ويبقى من الصحيح دائماً أن الطفل يتمتع بموهبة القدرة قبل تلقفه المعارف. بعبارة أخرى، يميل الطفل ميلاً طبيعياً إلى إشراك جسمه وذهنه في تعلم اللغات من دون معرفة مسبقة بالأسس النظرية، ولكن يصعب على الراشد، والمراهق المطلعين على هذه الأسس تطبيقها قبل ذلك في سلوكهما الحركي (الإشاري) Gestuelle. والنتيجة بديهية: إذا لم نقم باستثمار الموارد الطفلية، الضخمة، فلن نعثر على وسائل فعالة للتعلم الثنائي اللغة.

الإبكار في تعلم اللغة الثانية

ليس لمفهوم الإبكار هنا معنى يتعلق بشخصية الطفل الحيوية (البيولوجية) أو الذهنية، بل هو معنى مؤسساتي -Institutionnelle. وهناك اتفاق إجماعي حول جعل سن الحادية عشرة سناً متأخرة لتعلم لغة ثانية. إذن، فمفهوم الإبكار مرتبط هنا بالتعلم الممارس قبل السن المنصوص عنها في قوانين المؤسسة الرسمية. صحيح أن الفترة المقررة لبدء تعلم اللغة الأجنبية هي فترة المدرسة الابتدائية، ولكن يجب أيضاً، ضمن هذا الإطار الواسع، تحديد السنة المعنية بشكل دقيق. فليس في عبارة «إبكار»Precocite، المستخدمة في وصف التعليم الثنائي اللغة، الذي تبنته السياسات المدرسية على نحو غير واضح في عدد من البلدان، مثل النمسا وفنلندا وإيرلندا وسويسرا والسويد... ما يشير بوضوح إلى السن والصف اللذين يجب أن يبدأ الطفل فيهما بتعلم اللغة الأجنبية. فيجب أن يبدأ الطفل بتعلم اللغة الأجنبية، اللغة الثانية، قبل سنة من دخوله المدرسة الابتدائية أو حتى قبل ذلك بقليل. حينها، يجب استغلال جاهزية التلميذ الصغير التامة واستعداداته وتأهبه، بأذنيه وعينيه المفتوحتين على العالم، ككنز ثمين، لكنه قابل للتلف أيضاً. في هذه الفترة تحديداً يمكن أن تستفيد بذور اللغات، التي نزرعها، من تربة خصبة جداً، تتلقاها بحيوية ونهم لا نجد لهما بعد ذلك مثيلاً أبداً.

إن من شأن استغلال هذه القدرات المبكرة في التعليم الثنائي اللغة المبكر أن يشكل ضمانة مستقبلية للنجاح على صعيد التعلم المتعدد اللغات. وقد تبين أن الأطفال الذين تعلموا لغة أجنبية منذ وقت مبكر جداً، واكتسبوا أسسها جيداً، تمتعوا لاحقاً - بالموازنة مع آخرين - بقدرة كبيرة على تعلم لغة إضافية في الوقت الملائم.



من المفضل أن يبدأ الطفل في تعلم اللغة الثانية قبل سن دخول المدرسة الابتدائية

الطفل والزمن واللغة

إن الزمن لدى الطفل هو مجال مفتوح، في حين أنه يسير لدى الراشد باتجاه الاختتام. إلا أن الزمن، بالنسبة إلى الطفل والراشد على حد سواء، هو تدفق لا عودة فيه. من هنا يجب أن يبدأ التعليم الثنائي اللغة منذ وقت مبكر جداً. والثقافة هي رفيقة الزمن. وتشكل المعرفة بإحدى اللغات الأجنبية جزءاً لا يتجزأ من الثقافة، ومن ثم تتطلب استثماراً للزمن. ولا تشكل اللغة أحد مضامين الثقافة فحسب، بل هي أيضاً إحدى ركائزها الأصلب. ومنذ أن نتبين أهمية العلاقة بين اللغة والثقافة، لابد من استخلاص بعض النتائج. فمن جهة، تفرض اللغة السائدة في بيئة الطفل الثقافية الاجتماعية، أو في الإرث اللغوي للأسرة أو المنطقة التي ولد فيها، ضرورتها بشكل طبيعي تماماً كلغة ثانية حين وجود لغة هي الأولى. وهذه الضرورة هي أقوى بكثير، من حيث الجذور الثقافية التي تتغذى بها، من ضرورة اللغات الغريبة عن ثقافة البيئة، مهما بلغ مستوى انتشارها عالمياً. ومن جهة أخرى، تعني دراسة اللغة تمثُّل مضامينها الثقافية الأصلية، التي لا تتطلب من الطفل، غير المنغلق بعد داخل حصن من المعارف الموجهة، كما هو الحال غالباً بالنسبة إلى الراشد الأحادي اللغة، إلا أن يفتح عينيه وأذنيه. فينبغي منذ وقت مبكر جداً استغلال حماسة الطفل واندفاعه وحب اطلاعه على مالدى الآخرين من عادات وقواعد أدبية ومجاملات مثلما تظهر في اللغات. بالنتيجة، من المناسب منذ بداية الحياة، وليس في سن البلوغ كما يعتقد الناس غالباً، تحديد الأهداف الثقافية، أي تدريب الطفل على طرائق عيش الشعب الذي يتكلم اللغة الثانية التي يريد الطفل تعلمها، وإطلاعه على حساسياته ومعتقداته؛ لأن كل ذلك ينعكس على لغته. إن هذه الطريقة في تعليم الطفل اللغة الثانية، والتي لا تترك تأثيرات سلبية في جذور الطفل أيا كانت، تفتح عقله على التسامح، وتغني معارفه، من حيث إنها ترتكز على موازنة ضمنية بين هذه المضامين الثقافية والأخرى التي تغذيه بها بيئته.

التداخلات اللغوية

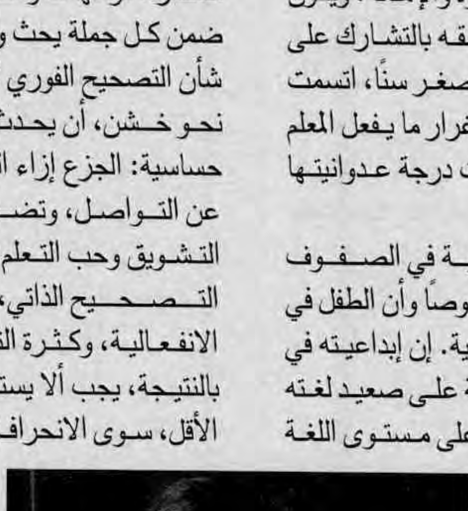
إن توافر جميع العوامل المواتية المرتبطة باكتساب اللغة المبكر لا يعني أنه يكفي أن يكون المرء طفلاً كي يتعلم لغة ثانية بلا جهد. إن التداخلات بين اللغة الأم واللغة الجديدة الحية الأولى (اللغة الثانية) غير معدومة لدى الطفل، إلا أنها سائدة لدى الراشد، وتزداد عدداً كلما أدى تقدم عمر الشخص الأحادي اللغة إلى تعزيز لغته الوحيدة، وكلما زادت هذه البنى

من ضغطها على أية لغة أخرى رغب في تعلمها. وعلى العكس، ليس هناك خوف أن تصل هذه التداخلات عند الطفل إلى طور الثبات إلا إذا كان هناك قصور في تقديم معطيات اللغة الجديدة الحية الأولى. أما إذا كانت هذه المعطيات كافية، فإن التداخلات اللغوية عند الطفل سرعان ما تتلاشى حالما يدخل اكتساب هذه اللغة مرحلة حاسمة، فلن يتسنى لها حينذاك أن تصبح حاسمة لا عودة فيها، كما هو الحال في ميدان الأصوات بشكل خاص. على كل، لاداعي للقلق عندما تبدواالتداخلات وكأنها قد استمرت فترة أطول مما ينبغي، فهي عادية تماماً ومن العبث أن نتوقع رؤية الطفل وقد سيطر منذ الأسابيع الأولى على كل مقول Enonce بسيط في اللغة الجديدة المتعلمة.

التصحيح الذاتي والمنافسة

إن التصحيح الذاتي للأخطاء هو أفضل من تصحيح المعلم، خصوصاً إذا كان تصحيح المعلم يتسم بالجزم والحزم، أو إذا كان ينطوي على شيء من القسوة والإهانة. ويكون التصحيح الذاتي أكثر فاعلية عند تطبيقه بالتشارك على صعيد الصف كله. وكلما كان التلاميذ أصغر سناً، اتسمت التصحيحات المتبادلة فيما بينهم، على غرار ما يفعل المعلم وبمبادرة منه، بروح التعاون، وانخفضت درجة عدوانيتها وتبخيسيتها - وفقًا لما يؤكده المعلمون -.

يجب أن تكون دروس اللغة الأجنبية في الصفوف الابتدائية ميداناً للتحريض المتبادل، خصوصاً وأن الطفل في هذه المرحلة هو في سن الشراهة التعبيرية. إن إبداعيته في هذه السن كبيرة، مثلما يلاحظ في البداية على صعيد لغته الأم. إن موهبة الابتكار هذه، الملاحظة على مستوى اللغة الأم، يجب أن تُستغل في تعلم اللغة الحية الجديدة الأولى. وينبغي ترك الطفل يستمتع بتكرار المتواليات اللغوية الأجنبية التي سمعها، ولو انطوت حالات تقليده أو تكراره لها على بعض الشذوذات ولم تلتزم المقاييس السوية. وتعكس التصرفات الصاخبة وغير المنضبطة غالباً، التي ترافق حماسة التكرار وحيويته، رغبة الطفل في القول والحاجة إلى تأكيد هويته بالكلام. وإذا كان المعلم يتمتع بموهبة فرض التناغم في صفه، وهو ما لا يعني بالطبع الانضباط الصارم



الطفل في السنوات الأولى يكون تعلمه أسرع لأنه لا يخاف من سخرية الآخرين

ولا حظر مثل هذه التصرفات عند تلاميذه، فإن التنافس حينذاك يمكن أن يؤدي إلى أفضل النتائج.

المعلم يصغي

عند أي ابتعاد عن المألوف ينجم عن هذا الابتهاج التعبيري الصاخب عند الطفل، وعلى نحو أعم، إزاء أي شكل من أشكال الانحراف، من المناسب الالتفات إلى الوضع المعياري، القياسي، ومراعاته. ومن العبث، إن لم يكن من المؤذي، أن يتابع المعلم هذه الانحرافات وكأنها ويلات أو كأنها أمراض يجب استئصالها، خصوصاً عندما تجعل هذه المتابعةُ جو الصف ثقيلاً ومتعباً.

ولا يعني ذلك طبعًا أن على المعلم التخلي عن بعض التصحيحات من حيث إن هدفه تحديداً هو تعليم المعيار، السواء، في اللغة الجديدة الحية الأولى. إلا أنه من غير المرغوب فيه أن يقوم المعلم بتصحيح كل انحراف حالما ينطق به أو يرتكبه التلميذ. إن الرسالة اللغوية هي منظومة (سلسلة) مستمرة، قوامها مكونات بنائية، أي الجمل، والكلمات المتعاقبة ضمن كل جملة يحث ويقود بعضها بعضها الآخر. إن من شأن التصحيح الفوري المستمر، بمقاطعة تعبير الأطفال على نحو خشن، أن يحدث ردود فعل سلبية حتى لدى أقلهم حساسية: الجزع إزاء الخطأ، وتنامي (إستراتيجيات) الابتعاد عن التواصل، وتضاؤل المشاركة في الصف، وتلاشي التشويق وحب التعلم، وانخفاض الحماسة على صعيد التصحيح الذاتي، وتحاشي النظر إلى المعلم، وازدياد الانفعالية، وكثرة التصرفات العدوانية تجاه المحيط... بالنتيجة، يجب ألا يستهدف تصحيح المعلم، في البداية على الأقل، سوى الانحرافات التي تشكل عثرات حقيقية على صعيد التواصل.

علاقة ثقة

يتطلب كل ذلك أن يرسي المعلم علاقة من الثقة المتبادلة مع الصف، هذه العلاقة الجوهرية لكل تعلم. والعبارة ليست بلا مسوغ، فالطفل يتقدم ويتطور على نحو أفضل عبر التشجيع المستمر، والرفق، وحسن الالتفات، بعيداً عن كل حالة نزاعية. ويجب أن يكون مقتنعاً، عبر رفق المعلم ودماثته الدائمة، بأنه قادر على اكتساب معرفة جيدة باللغة الأجنبية. كما ينبغي أن

نجنبه التوتر، وألا نخيفه بالتصحيح الذي يشككه بأهليته، وأن نشعره بالتقدير من خلال المديح والتشجيع، وأن نراعي أيضاً إيقاعات نموه ومداركه، وألا نترك لديه انطباعاً في أننا نعمل على تسريع وتائر اكتسابه وأننا نستعجل منه الحصول على نتائج سريعة تامة. ويجب أن تترافق كل حالة قلق وكل حالة خوف من الخطأ، وما شاكلهما من الحالات المعيقة، بتعزيز ثقته في أنه يسير في الاتجاه الصحيح، وبتصحيح الأخطاء باستخدام المزيد من الكلمات والأمثلة والتعابير إذا بدا أن ما يقوله أو يظن أنه فهمه غير صحيح. هذا الموقف إزاء الطفل هو الموقف نفسه الذي يجب اتباعه مع الراشدين عند تعلمهم لغة أجنبية. إن هذا الأسلوب يجعل الراشدين يحصلون على نتائج جيدة، وفقاً لشهادات تلاميذ متفوقين، ورجال سياسة شهيرين، وممثلين، وموسيقيين ممن تعلموا الفرنسية، والألمانية، على يد أساتذة واختصاصيين معروفين من الجامعات الأمريكية (كاليفورنيا وبنسلفانيا).

وهنالك مبدأ آخر قد يلزم تطبيقه في التعليم المبكر، من أجل مزيد من التشويق والفعالية: المبدأ الذي يقوم على جعل التلاميذ أنفسهم يتولون، قدر الإمكان، تنفيذ مجريات الدرس في الصف، وتشغيلهم في توجيهه، وتحميلهم مسؤولية الحركية (الدينمية) الاكتسابية.

ويمكن القول: إن الثقة، التي تدفع المعلم بهذا الشكل لأن يضع بين أيدي تلاميذه - من أجل نتائج أفضل - جزءاً من حقوقه وسلطته التقليدية، يجب أن تكون كبيرة كفاية كي يتمكن من الحصول على معرفة جيدة بـ «التاريخ الفردي» لكل طفل. في الواقع، يحدث أن يستمتع طفل، دون آخرين، بتكلم اللغة الأجنبية أكثر مما يستمتع بتكلم لغته الأم. والمعلم المتنبه إلى شخصيات تلاميذه يعرف كيف يكشف هذه الحالات، التي تُلاحظ فيها مساهمة تعلم اللغات الأجنبية في إغناء الشخصية والتعبير عن الذات - فمثلاً لما كانت التضمينات Connotations (التضمين هو ما تحمله الكلمة من مضامين ومعانٍ إضافية فضلاً عن معناها الأصلي) المرتبطة ببعض التعابير في اللغة الأم، تنطوي على تأثيرات مثبطة، فإن من الأسهل أحياناً أن نعبر بحرية أكبر عما نحسه باللغة الأجنبية.


تأكيد الدور الإيجابي للطفل ضرورة لتعلم اللغة الثانية

وسائل إيضاح

من المعروف، في الصفوف الأولى من المدرسة الابتدائية، وحتى في الصفوف التالية واللاحقة، أن المعلمين يزينون الجدران بلوحات إيضاحية للمواد المتعلمة. إن من المفيد، في دروس اللغة الأجنبية، الاستعانة بالصور التي تمثل الجهاز الصوتي مقطعياً، من الشفتين إلى الحنجرة، ومواجهة أيضاً، لإظهار مختلف الأشكال التي يتخذها هذا الجهاز في لفظ أصوات هذه اللغة، خصوصاً الأصوات غير المعروفة في اللغة الأم، والتي تتطلب مشاركة أعضاء أو وضعيات أعضاء لا يقوم الجهاز الصوتي بتحريضها عادة.

تشكل اللوحات المغنطة، التي تعرض صوراً صغيرة تتحرك، أداة تعليمية أخرى مفيدة. فمن خلال جذبها انتباه الطفل، حيث إن كلاً منها يمثل واحداً من أصوات اللغة الأجنبية المتعلمة، وعبر تعويده لفظ هذا الصوت الذي يتوافق والصورة المعروضة، نستبدل طريقة حركية مكيفة بشكل أفضل مع ميوله بطرائق العرض السكونية.

ويعد عرض الأفلام، التي تُظهر متحدثين من أصحاب اللغة الأجنبية وهم يلفظون الأصوات الصعبة في هذه اللغة وسيلة مطلوبة وجيدة، للسبب نفسه.

الاستعانة باللغة الأم

إن الخلط المستمر بين اللغة الأم واللغة الثانية أثناء التعلم غير مرغوب فيه، ولا يعني ذلك حظر الاستعانة باللغة الأم. إن من الوهم الاعتقاد بأن الطفل الأحادي اللغة، من سن ست سنوات، لا يحتاج إلى شروح تقدم باللغة الأم، ذلك أن الطفل يبدأ تحويل العالم إلى كلمات من خلال تعابير ومصطلحات اللغة الأم، قبل أن يتفتح على عوالم لغوية أخرى. على العكس، تشكل اللغة الأم داعماً ثميناً، إذ من خلالها تُقدم الخاصيات القواعدية للغة الأجنبية المتعلَّمة. ولكن من المناسب عدم استخدامها إلا ضمن أطر محددة تماماً، مع الحرص على عدم تداخلها باستمرار مع اللغة الجديدة الحية الأولى، بغرض الحد من التداخلات بين اللغتين ليس أكثر. ومن الصحيح القول إن هذه التداخلات تشكل جزءاً من سيرورات الاكتساب الطبيعية، ومن المستحيل التخلص منها. ولكن لا توجد فائدة ترجى من تعزيزها. إذن، تتم الاستعانة باللغة الأم

وفق معايرة محددة ودقيقة عندما نشرح ونترجم باللغة الأجنبية النصوص التي تشكل مادة التعلم الأفضل، أي الأغاني والحكايات المخصصة للعب وأي نتاج لغوي آخر يتوافق وحب الطفل للعلم والمعرفة ويداعب خياله وحسه الفني، على غرار ما هو معروف في تعليم الأبوين طفلهما اللغة الأم نفسها.

من الكلمات إلى الكلام

إن الطفل، قبل تردده إلى المدرسة، لا يتعلم لغته الأم من خلال مفاهيم الأسماء والصفات والأعداد. لأنه خلال هذه الفترة من حياته، وكذلك خلال السنة الأولى من المدرسة الإبتدائية، لا يكون للطفل القدرة على ممارسة نشاط عقلي من النمط التأملي، الذي يقوم على تحليل العمليات التي ينجزها دماغه تلقائيًا. بعبارة أخرى، لا يستطيع الأبوان أو المعلم اللجوء بفعالية إلى التفاسير التحليلية خلال هذه المرحلة من بناء المعارف لدى الطفل. فمثل هذه التفاسير تتطلب وعيًا بالتقعيد اللغوي، أي القدرة على استخدام الأشكال أو الصيغ اللغوية. وأيًا كان الأمر، يمكننا عدُّ تعلّم الكلمات، في المراحل الأولى، أحد أسرار سيرورة التطور الطبيعي. ومن وجهة النظر هذه، لا فرق أساسيًا بين اللغة الأجنبية واللغة الأم التي تُكتسب في حضن الأسرة، في البيئة الوطنية.

> ينبغي ترك الطفل يستمتع بتكرار المتواليات اللغوية الأجنبية التي سمعها، ولو انطوت حالات تقليده أو تكراره لها على بعض الشذوذات ولم تلتزم المقاييس السوية

وتميل التجارب التي أنجزها الاختصاصيون (خصوصًا Nation 1993) إلى تأكيد أن العلاقة بين سعة المفردات اللغوية والقدرة على استخدام لغة ما تشهد تحولاً كلما تنامى مجموع مفردات الطفل. ففي البداية يبدو واضحًا أن القدرة على استخدام اللغة مرتبطة إلى حد كبير بعدد الكلمات التي يعرفها الطفل. وفي مرحلة لاحقة، تصبح معرفة مضمون الكلمات مرتبطة بمدى السهولة التي يتوصل بها الطفل إلى التواصل مع الآخرين، أي بمدى يُسر التعبير. ويسر التعبير هذا متعلق إلى حد كبير بقدرة المعلم على إدراج الكلمات التي يلقنها الطفل في شبكة من الترابطات العديدة والمتينة. وعلى أساس هذا اليسر نفسه، تزداد المفردات اللغوية ثراءً، كلما دخل الطفل ميادين معرفية جديدة. وانطلاقًا من تأثر السيرورات إياه، يجدر بنا منذ البداية أن نعزز عند التلاميذ اكتساب أكبر قدر ممكن من المفردات، وفق ما يتيحه مستواهم. إن تعلم الكلمات من خلال النصوص المكتوبة يعدّ أسلوبًا فعالاً، ويقتضي أن يكون الطفل قد تعلم القراءة جيدًا، باللغة الأم أولاً بطبيعة الحال، ضمن الظروف الطبيعية.

تعلم الكلمات الأكثر ترددًا

أيًا كانت الطريقة المستخدمة، فإن من المهم بشكل خاص أن يكتسب الطفل الكلمات الأكثر ترددًا. ذلك لأن معرفة هذه الكلمات هي التي تضبط وتقود أو توجه لياقة الفهم، التي تضبط هي نفسها تعلم الكلمات الجديدة التي يتضمنها النص أو سياق الكلام. إن اكتساب الكلمات الأكثر ترددًا في اللغة الأجنبية منذ وقت مبكر يمنح الطفل الذخيرة اللغوية كي يفهم لاحقًا، إبان المراهقة وخلال مرحلة الرشد بشكل خاص، الكلمات الأقل ترددًا، والعبارات العلمية والفنية، وكذلك الكلمات الكثيرة التي لا تتكرر إلا قليلاً في الأحاديث، والتي تعد معرفتها دليلاً على غنى المفردات. يجب أن يستند تعليم الكلمات الكثيرة التردد إلى التكرار من دون أدنى تحفظ. وفضلاً عن فعاليته اللعبية Ludique في صفوف الأطفال وطابعه المألوف عند تطبيقه على الكلمات المستعادة في استعمالات (أحاديث وعبارات) الكبار، فإن التكرار يعدّ سلاحًا مناهضًا للصعوبة. أما الكلمات التي يجب أن ننظر إليها على أنها صعبة فهي أولا تلك التي لا تشبه أية كلمة في اللغة الأم عند الطفل، والكلمات التي هي ليست أسماء. ونشير بهذا الصدد إلى أن الأسماء التي تدل على أشياء هي عناصر لغوية يتعلمها الطفل بشكل أسهل، لأن هذه الأشياء تشكل جزءًا من بيئته. لذلك، فإن ازدياد المفردات يرتبط ارتباطًا مباشرًا بمعرفة العالم. إن اللغات ليست مخططات خالية من المادة، بل تتحدث عن العالم، وتعكسه، وتنظمه، ولو أن ذلك يتم من خلال شبكات تختلف باختلاف الثقافات. إذن يؤدي المعلم هنا دور المرشد، الذي يرافق الطفل على الدرب، الصعب والواعد، درب اكتشاف الأشياء، تمامًا كالأبوين اللذين يساعدان الطفل على اكتساب لغته الأولى.

الجمل والنصوص أغذية الفكر

إذا قلنا: إن الطفل يتعلم الكلمات قبل أن يبني جملاً، وإنه من المناسب أن نساعده على اكتساب هذه الكلمات في أبكر وقت ممكن، فذلك لا يعني أن نعلمه الكلمات خارج كل سياق Contexte. فمن خلال الجمل يتبلغ الطفل رسائل الكبار، حتى

ولو لم يكررها أو ينسخ في البداية سوى متواليات كلمات مبتورة لا تعدو أن تكون كلمات وحيدة قوامها مقطع لفظي مُعادٌ. ومن المؤكد أن إطلاق الكلمات أصعب من تلقيها، غير أن ذلك لا يعني أن دماغ الطفل ليس قادراً على تسجيل تعابير كاملة ومعالجتها بدقة متنامية. وهذا ما يظهره الحوار بين الطفل وأحد والديه، في البداية، تكون الوسائل مختلفة: كلمات عند أحدهما، وجمل عند الآخر؛ لكن ذلك لا يشكل عقبة في طريق الفهم. يجب أن نتأكد دائماً من أن الأطفال قد تمثلوا السياق، الذي قدم فيه عدد كبير من الكلمات الأكثر تردداً في اللغة الأجنبية، حتى لو لم يتمكنوا من تكراره في المراحل الأولى.

وهكذا، وبعيداً عن تعليم الطفل لوائح كلمات معزولة، من المناسب، على العكس، تعليمه لوائح جمل منذ أن يبلغ مرحلة التواصل الأولى على صعيد اللغة. يقول أحد علماء اللغة، متحدثاً عن تجربة شخصية من طفولته: لما كنت شديد الولع منذ صغري بتعلم اللغات، فقد كنت أطلب من والدي أن يشتري لي كراسات محادثة وقواعد، ومعاجم. وكنت أحفظ منها جملا كاملة عن ظهر قلب. وبعد ذلك، كنت أشعر بفرح كبير كلما التقيت بمحادثين من أصحاب اللغة الأجنبية التي أتعلمها، إذ كنت أستطيع أن أفهم العديد من جملهم وأن أفهمهم العديد من جمل لغتي. وكان هذا الشعور بالنسبة إليّ - وأنا طفل - نوعاً من أنواع الابتهاج اللعبي إلى حد كبير: كان يبدو لي، وأنا أؤدي هذه المشاركة في الكلام، أنني أقوم بتشغيل وضبط آلية ما، وأنها كانت تعمل أمام عيني. وما كان يمكن لمعرفة الكلمات المعزولة، مهما كبر عددها، أن تتمخض عن مثل هذه النتيجة. وما جعلني متأكداً من ذلك تماماً في وقت لاحق هو تلك الزيارة التي قمت بها إلى الصين، حيث التقيت بطلاب صينيين في بكين أذهلتني دقة تحدثهم بالفرنسية. وتحريت طرائق تدريس الفرنسية هناك، وتبين لي أنهم يعلمون التلاميذ، في «معهد اللغات الأجنبية»، وهو معهد شهير، جملاً كاملة بشكل رئيس، منذ بداية الدراسة وحتى نهايتها، ويترافق ذلك عند اللزوم بشروح للقوعد.



بعد سن العاشرة يستحيل تجنب التداخلات بين اللغة الأم واللغة الثانية

من المؤكد أننا لا نعرف إن كان تفكيرنا يتم على شكل جمل أم على شكل كلمات، أم أننا نفكر بطريقة إجمالية لا تتوافق والتقطيعات التحليلية للغات. إلا أن الفكر تغذيه الجمل الواضحة، المسموعة، والمقروءة، أو التي يتلفظها المفكر نفسه. ولا بد لعلم أصول تدريس اللغات من أخذ هذه الحقيقة في الحسبان.

وتوضح دراسة الأوضاع التعليمية والتربوية الحية أن تعليم لغة ما، من خلال عدد كبير من الجمل الحقيقية، لا يشكل طريقة جيدة لمنح الطفل وسيلة التوصيل فحسب، بل أيضاً الوسيلة الفاعلة لإكسابه المفردات وقواعد اللغة: المفردات، لأن الكلمات المراد تعلمها في السياق الطبيعي لاستخدامها تصبح شيئاً آخر غير الكينونات المجردة. وقواعد اللغة؛ لأن الجمل هي تطبيق القاعدات نفسها، ومن الواضح أن المعرفة بالقواعد اللغوية - غير المفهومة على كل حال بالنسبة إلى الأطفال الأصغر سناً - ليست هي التي يمكن أن تتيح لهم التواصل باللغة الأجنبية، إلا أن الكلمات المعزولة لا توفر لهم مساعدة أكبر. إن اكتساب أكبر عدد ممكن من الكلمات منذ وقت مبكر مهم من دون شك، غير أن ذلك ملائم في بداية التعلم، ثم إن الجمل هي الإطار الحي للكلمات.

إن الجمل نفسها غير معزولة، فلها إطارها. ولما كانت وحدات من مرتبة أعلى، فإن الجمل تدمج الكلمات، غير أنها تندمج بدورها في متواليات التواصل التلقائية: النصوص الشفهية والحوارات، فلا يكفي أن يكتب الطفل ويقرأ جملة بلا أخطاء، كما لا يكفي أن يكرر بسرعة جملة سمعها خارج كل سياق، إذ يجب أن يصبح قادراً على تكييف الجمل، التي يتوجب عليه استخدامها، مع السياق بهدف التواصل المتبادل الحقيقي وأيضاً مع الوضع الذي يتم فيه هذا التبادل. إذن، ينبغي غمر الطفل في تواصل كامل، ضمن علاقة اجتماعية حقيقية أداتها اللغة. ولابد من تجاوز الجدل حول هل نعلم القواعد أم المفردات، وذلك بالجهد التربوي التعليمي الهادف إلى إكساب الطفل كفاءة تواصلية واسعة وحقيقية.

ردًا على عبدالله بن سليم الرشيد

الأخطاء في كتابة الأعلام

الدراسة الموضوعية، والبحث المنهجي، ديدن أهل العلم الثَّاقب، والفكر النيِّر، والثقافة البنَّاءة، لكن الذي يحزن القلب، ويحير اللب التجنِّي على العلم باسم العلم!

فالعدد (٢٥٧) من مجلة الفيصل الثرية، احتوى على دراسات ومقالات ممتازة، ومن المؤسف أن نجد بين طيَّاتها دراسة لصاحبها عبدالله بن سليم الرشيد بعنوان مثير للفضول احتوى على كثير من المغالطات والاتهامات المجانية لأمة بأكملها يفوق عددها التسعين مليون عربي مسلم يمثلون المغرب العربي الكبير (الجزائر - المغرب الأقصى - ليبيا - تونس - موريتانيا).

فالعنوان نفسه «الأخطاء في كتابة الأعلام» يثير عددًا من التساؤلات:

- ما المنهجية العلمية المتبعة في كتابة هذه الدراسة؟ «إذا اتفق المختصون على منحها درجة الدراسة».

- وماذا عن المرجعية العلمية، والثقافية، والسوسيولوجية المغيبة في محتوى هذه المقالة؟!.

- وهل فعلاً، وحقيقة ما توصل إليه الكاتب، يعبر عن واقع المجتمع المغاربي؟.

أبدًا، وكلا. لقد أثار الكاتب موضوعًا مهمًا ببساطة وسطحية بائنة، دون تكليف نفسه عناء البحث المعمَّق والدراسة المتأنية وفقًا للمنهجية العلمية المتعارف على اتِّباعها في مثل هذه الدراسات، والبحوث الأكاديمية!. والنزول إلى الواقع «فالإنسان ابن بيئته» والسماع، والمعاشرة للمجتمع محلّ الدراسة. وذلك لإنصاف أمة بأسرها لها بنيتها، وتركيبتها البشرية، ونمطها المعيشي الخاص بها، وتعدد لهجاتها وألسنتها، ولله في خلقه شؤون، يقول سبحانه عزّ من قائل: *ومن آياته خلقُ السماوات والأرض، واختلافُ ألسنتكم وألوانكم إنَّ في ذلكَ لآيات للعالمينَ*. **الروم:٢٢**.

وقوله: *يا أيّها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شُعوبًا وقبائلَ لتعارَفُوا إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم*. **الحجرات:١٣**.

مما يدل على اختلاف الألسن، وتنوع الثقافات. لكن الإسلام جمع هذه الأمة على لغة واحدة، لغة القرآن الكريم. وبفضله نحن نتناقش اليوم من خلال صفحات الفيصل، وليس لأي أحد منّا فضل على الآخر سوى ذلك الرجل العظيم وأصحابه الأبرار، محمد صلى الله عليه وسلم، الذي بلّغ لنا رسالة الإسلام، ولغة القرآن العظيم، اللغة العربية.

والاختلاف في النطق سنَّة الله في الكون، وشأنه وحكمته في خلقه.

وكذلك الألوان، والأجناس والثقافات والأعراف وعليه إنّ قول الكاتب: «وصل كلمة (ابن) بما بعدها في الكتابة، وهي ظاهرة تشيع عند المغاربة، فتجدهم يكتبون «محمد بنعيسى» و«بنيونس» وهكذا، وصارت تكتبها بخطئها الأصلع..»، لا يجانب الحقيقة ألبتة. فسكان المغرب العربي الكبير تختلف لهجاتهم، لكن اللغة العربية هي الأم، الجامعة الشاملة لـ ٩٠ مليون عربي مسلم، بكل من الجزائر، والمغرب الأقصى، وليبيا، وتونس، وموريتانيا.

وما خفي عليه - الكاتب - فهو كثير وكثير، فمثلاً اللهجة الأمازيغية تختلف من منطقة إلى أخرى، وهنالك اللهجة الميزابية، والتارفية.

ويميل جلّ السكان القاطنين بالغرب الجزائري مثلاً كوهران، وتلمسان، ومعسكر، ومستغانم، وغليزان إلى اللكنة أو اللسان المغربي - المغرب الأقصى - كمدينة وجدة وطنجة، والناظور - فكلمات مثل: نعم تُنطق (وَاهْ، وأَيَّاهْ)، ومَا بِكَ تُنطَق (شَابيكْ)، وتعالى تُنطق (آجي)، وماذا تريد تُنطق (شَاتَبْغي).. إلى غير ذلك من الكلمات المختلفة، اختلاف النمط البيئي، والتركيبة الاجتماعية (السوسيولوجية)، والتأثيرات المتعددة لهؤلاء السكان.

أما بناحية الشرق الجزائري فتجد سكان مدن كتبسَّة وسوق أهراس الجزائريتين يميلون للِّسان أو اللهجة التونسية لمجاورتهم المدن التونسية الحدودية، كسوسة، والمقاطعات القريبة جدًا، كساقية سيدي يوسف، والكاف،

فكلمات مثل: قليلاً من الحاجات تُنطق هكذا: بَرْشَه احْوايَجْ، وماذا أشْنُوَّهْ، والمرأة تُخاطب أنتَ والرجل أنتِ، وسائر الكلام يسير في هذا الاتجاه!.

أما المدن المجاورة لليبيا، كواد سوف، وإليزي، فكلمات مثل: القرب من عرجون النخلة، تُنطق هكذا: واشْ فَـــرِيْكْ للعرجون.

ويغلب على مجمل الحديث اللغة العربية السَلِسَة.

وأمـــا سكان الوسط الجـــزائري كـالمسيلة، والجلفة، وبعض سكان الجهة الشرقية في سطيف، وبرج بوعريريج، وميلة، فيتحدثون اللغة العربية بطلاقة بغير تلعثم.

أمـا مـدينة تيـزي وزو، وبجـاية فيتحدثون العربية بلكنة متلعثمة لميلهم إلى الأمازيغية، وهذه الأخيرة تختلف اختلافاً كبيراً عن بقية اللهجات البربرية بكل من الأوراس، والميزابية بمدينتي غرداية، والأغواط، والتارقية بعموم الصحراء الجزائرية «الجنوب الجزائري».

التبـاينات في النطق بالنسبـة إلى اللهجة الأمازيغية واضحة وواسعة بين مـختلف المدن الجـزائرية خـصـوصـاً والمغاربية عموماً، وكذلك طريقة الكتابة.

أما الصحراء فيميل سكانها إلى مالي والنيجر الإفريقيتين، ويتحدثون باللهجة التارقية، ولغة عربية بلسان ثقيل.

وأما سكان العاصمة الجزائرية فلعدّة أمور هناك تميز في النطق، فمثلاً يا أخي تُنْطق هكذا: يـا خـو، وأعطني مئـة دينار تُنطـق: آرادي مـيل، أو عـــشـرة آلاف فرنك!.

والملاحظ استعمال اللغة الفرنسية والإيطالية بكل عواصم المغرب العربي الكبير بشكل واسع بجانب اللغة العربية.

فبالنسبة إلى اللغة الفرنسية تستخدم في عواصم الجزائر، والمغرب الأقصى، وتونس، وموريتانيا، واللغة الإيطالية تستخدم في دولة ليبيا.

ويرجع ذلك إلى أثـر الاستـعمارين الفرنسي والإيطالي بطبيعة الحال، وما خلفاه من رواسب ثقافية.

وعلى الرغم من عشرات السنين من الاحتلال الصليبي للمغرب العربي الكبير بقي السكان على أصالتهم وعقيدتهم الإسلامية، ولغة القرآن الكريم والقرآن نفسه الذي يشهد إقبال الآلاف عليه، بل الملايين من الأطفال والشباب يقبلون على حفظه، وتجويده، ومعرفة أحكامه.

قول الكاتب: «غير أنّ أخـشى مـا أخشاه.. على من يسقط «ابن» من اسمه وحديثه عن إدماج بنعيسى، وبنيونس عند المغاربة هكذا»، اتهام باطل لا أساس له من الصحـة، فـالكلمـات أو الأعـلام اصطلاحاً، التي تحدَّث عن الخطأ الأصلع في كتابتها كما يقول وهي: بنعيسى وبنيونس لا، ولم تُكتب أبداً بهذه الصيغة، بل تكتب في الجزائر، والمغرب، وتونس، وليبيا، وموريتانيا هكذا:بن عيسى، وبن يونس عكس مـا أورده الكاتب ولا أدري من أين تحصل على هذه الصيغة؟!

وللعلم نحنُ في الجزائر، وسائر بلاد المغرب العربي الكبـير نكتب اللقب الأسري، ثم اسم الشخص، ثم الأب، وإن شئت (في دفاتر الحالة المدنية فقط): أبو الأب، وجدّ جدّ الأب حتى الأصل الأول أو ما يُسمى بالشجرة الأسرية.

وحاليا نستعمل الصيغة التالية: فلقب كـاتب هذا الرد واسـمـه ، واسم والده كالآتي: خنُّوس يعقوب بن محمد. وليس كما ذكر صاحبُ الدراسة بنمحمد.

أما أسماء: اخليفة وامْحَمَّدْ، وابْرَاهيم، فتُنطق بصفة عادية، وتُستعمل بكثرة بجمهورية مصر العربية ودول المشرق العربي، وغاب عن الكاتب أنّ استعمال الصيغة المذكورة آنفًا محلّ استغراب عـبدالله بن سليم الرشيد يرجع ألى الأعراف والتقاليد التي لا يمكن أن تُمحى وتُنسى بين عشيَّة وضحاها. والمطلوب في نظري المتواضع هو التفكير في إيجاد مركز عربي للبحوث، يهدف إلى غربلة هذا الكمّ الهائل من المصطلحات المتداولة بين مـلايين السكان العـرب، بالمغرب العربي الكبير، والمشرق العربي على حدّ سواء.

والعـــمل على إيجـاد آليـات ـ ميكانيزمات ـ لتلاقح الأفكار، والاجتهاد في العمل للحدّ من تفشي المصطلحات الأجنبية سواء: الفرنسية، أو الإيطالية، أو الإنجليزية بدول المغـرب والمشـرق العربيين في جوهر العربية وما تمثله من خطر داهم، وتأثير كبير في عقلية الجيل القادم ـ ولا أقصد تعلّم اللغات الأجنبية ـ نتيجة اختلاف الثقافات وتباين الأفكار، وفق مـا تمليه المصلحة العامـة للأمة العربية، والقاضية بالمحافظة، وبتطوير اللغة العربية، باستيعابها للتقنيات الجديدة، كبنك المعلومات «الإنترنت» وجيل الحاسوب «الكمبيوتر»، والإسراع في وضع برنامج عربي لمحو الأمية التي تفشت بشكل داهم وخطير في أوساط الفرد، والمجتمع العربي، ورسم خطة عملية لاستغلال القمر الصناعي العربي «عربسات» في خدمة مستعجلة لتبادل المعلومات الثقافية المتنوعة، والتنويع والإكثار من الدورات والندوات العلمية والثقافية بمشاركة علماء، وباحثين، ومختصين عرب عوض السِّجال العقيم، والدخول في مـهاترات لا تخدم اللغة العربية في حدّ ذاتها.

خنوس يعقوب بن محمد
المسيلة ـ الجزائر

مسابقة الفيصل

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها في فترة لا تتعدى نهاية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ....)

طريقة الوصول إلى الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى: ١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي). **الجائزة الثالثة: ٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).**

الجائزة الثانية: ٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي). **الجائزة الأخيرة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).**

مسابقة الشهر (العدد ٢٧٨)

ضع علامة [✓] أمام الإجابة الصحيحة:

(١) أبو إسحق الإصطخري ☐ جغرافي ورحالة عربي ☐ صاحب «أسرار البلاغة» «ودلائل الإعجاز».

(٢) دلمون ☐ الاسم القديم للبحرين ☐ قلعة شهيرة في الجزائر.

(٣) سيمون بوليفار ☐ فيلسوف فرنسي ☐ عسكري ومناضل سياسي فنزويلي.

(٤) البيوتان ☐ مركّب غازي ملتهب يكون في البترول ☐ شعب صغير يسكن شمال بلجيكا.

(٥) السلوقي ☐ نبات يحتوي على مادة قابضة ☐ كلب صيد منسوب إلى قرية سلوق اليمنية

الاسم: .... **ص.ب:** ....

العنوان: .... **الرمز البريدي:** ....

المدينة: .... **هاتف:** ....

الدولة: .... **ناسوخ:** ....

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الملف الثقافي

ندوة بجامعة الملك سعود بمناسبة المئوية

إعلان جائزة أبها

وفاة الشيخ ناصر الدين الألباني

الأديب الألماني جراس ينال جائزة نوبل للآداب

اكتشافان أثريان يغيران نظريات نشأة الخط العربي

حذاء فان جوخ بأربعة ملايين جنيه إسترليني

أحدث الإصدارات والدوريات



خاتمة المطاف:

الرواية في عصر الكمبيوتر والإنترنت

رعى سموه افتتاح ندوة جامعة الملك سعود بمناسبة المئوية

الأمير عبدالله بن عبدالعزيز: الصراع بين الأمم تحول إلى سباق في تطوير التعليم

رعى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني مساء يوم السبت ٧رجب الماضي (١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٩م) حفل افتتاح الندوة الجامعية الكبرى والنشاطات المصاحبة لها التي نظمتها جامعة الملك سعود بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، والتي استمرت حتى ١٩ رجب الماضي.


الأمير عبدالله بن عبدالعزيز يقص شريط الافتتاح

وقد أشار معالي وزير التعليم العالي الدكتور خالد بن محمد العنقري إلى أنه: «إنصافًا لفضائل قيام الملكة وتأسيسها ووفاء واجبًا لهذه المناسبة التي يتزايد اعتزازنا بها عامًا بعد عام آثرت جامعة الملك سعود ممثلة للتعليم العالي أن تعقد ندوة كبرى تتابع فيها تأثير التعليم الجامعي في التنمية في المملكة العربية السعودية خلال مئة عام».

وأوضح مدير جامعة الملك سعود الدكتور عبدالله بن محمد الفيصل

المملكة تنضم إلى المركز الدولي لصون التراث الثقافي

صدرت موافقة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني على انضمام المملكة إلى المركز الدولي لصون التراث الثقافي وترميمه «ايكروم»، وهو أحد المراكز الدولية الحكومية التابعة لمنظمة اليونسكو ومقره روما في إيطاليا.

وصرح معالي وزير المعارف الدكتور محمد بن أحمد الرشيد بأن المركز الدولي «ايكروم» له تجاربه وخبراته الكبيرة في هذا المجال والحفاظ على صور التراث كافة مما يحقق لتراثنا الوطني كل الحماية وعناصر الظهور والاستفادة منه في تحقيق منجزات تراثية مهمة.

المعرض الشخصي الأول للفنان فايع

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير في يوم ٣ رجب الماضي المعرض الشخصي الأول للفنان التشكيلي فايع الألمعي الذي تنظمه جمعية الثقافة والفنون بأبها على هامش جائزة أبها لهذا العام ١٤٢٠هـ بصالة العرض الرئيسة بمركز الملك فهد الثقافي بأبها.

وعلق سموه على اللوحات بقوله: «أعتقد أنها تدل على مستوى راق من ناحية الذوق الفني للأخ فايع طبعًا لصغر سنه بالنسبة إلى الآخرين، وأعتقد أن المشوار أمامه إن شاء الله سيكون أكثر ازدهارًا، وأنا متأكد أنه سيكون له اسم ليس في المملكة فحسب وإنما في العالم العربي إن شاء الله.

كتاب وقرص ممغنط عن الملك عبدالعزيز في لندن

وزع المركز الإعلامي السعودي في لندن كتابًا وقرصًا ممغنطًا يحكيان باللغة الإنجليزية قصة حياة مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ونضاله طيب الله ثراه.

يتطرق هذا العمل الإعلامي إلى عظمة الإنجاز الذي حققه القائد المؤسس في استعادة مدينة الرياض وتوحيد باقي أجزاء البلاد في كيان واحد مستقر.

كما يحكي الجهود التي بذلها - رحمه الله - في إرساء دعائم الدولة وتحقيق الأمن والرخاء للبلاد. ويأتي صدور الكتاب والقرص المغنط عن وزارة الإعلام بمناسبة ذكرى تأسيس المملكة وتوحيد أجزائها بقيادة المغفور له الملك عبدالعزيز.

المالك رئيسًا لتحرير الجزيرة والوعيل لليوم

أصدر معالي الدكتور فؤاد بن عبدالسلام الفارسي وزير الإعلام موافقته على تعيين الأستاذ خالد بن حمد المالك رئيسًا لتحرير صحيفة الجزيرة، ومن المعروف أن الأستاذ المالك كان

أن الندوة تتضمن ١٧٣ بحثاً صنفت في ستة محاور شملت الأدب والتربية والهندسة والصحة والزراعة والإدارة بمشاركة أكثر من مئتي عالم وباحث، ويصاحب الندوة معرض للكتاب وأسبوع الجامعة والمجتمع الثالث.

وقدم الدكتور عبدالله الفيصل سرداً عن تاريخ الجامعة منوهاً بالدعم المادي والمعنوي الذي تلقاه الجامعة من حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، ومن صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض.

وقد ألقى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني كلمة عبر فيها عن سعادته بالنهضة التعليمية التي تشهدها المملكة برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، مشيداً بإقامة جامعة الملك سعود لهذه الندوة التي تمثل وقفة تأمل ومراجعة لما تم إنجازه، وتقويماً للعلاقة بين التعليم الجامعي والتنمية الشاملة.

وأكد أن «الصراع بين الأمم تحول إلى سباق في تطوير التعليم ووسائله وأدواته، ولا يفقد مكانه في هذا السباق إلا من وهنت عزيمته، وهو أمر مرفوض لا نسمح أن تتعرض إليه بلادنا». وأشار سموه إلى أن الأخذ بأسباب التقدم من الثوابت والقيم التي نستمدها من شريعتنا الإسلامية، وأن دور الجامعات يتمثل في ريادة التقدم.

وقد وافق سمو ولي العهد على طلب مجلس الجامعة بتسمية معهد البحوث والدراسات الاستشارية باسم معهد الأمير عبدالله للبحوث والدراسات الاستشارية بمناسبة رعاية سموه لهذه الندوة، وتقديرا لما يوليه من رعاية للتعليم الجامعي والبحث العلمي.



خالد المالك



محمد الوعيل

له دور كبير في صدور صحيفة الجزيرة التي حققت قفزة واسعة إبان توليه رئاسة تحريرها.

كما صدرت موافقة معالي وزير الإعلام بتعيين الأستاذ محمد بن عبدالله الوعيل رئيساً لتحرير صحيفة اليوم، ويعد الأستاذ الوعيل من الكفاءات الصحفية الممتازة، فقد أمضى نحو ربع قرن في ممارسة مهنة الصحافة، بدأ خطواته الأولى محرراً رياضياً وتدرج في الوظائف حتى شغل وظيفة رئيس تحرير صحيفة المسائية.

وتلقى الأستاذان المالك والوعيل التهنئة على هذه المهام الجديدة من كبار المسؤولين في الدولة ومن زملائهما في الحقل الصحفي.

اختتام ملتقى الصحافة الخليجية

اختتم ملتقى الصحافة الخليجية الذي نظمته وزارة الإعلام وجمعية الصحافيين الكويتية فعالياته في يوم ٤ رجب الماضي في ندوة مفتوحة أدارها وكيل وزارة الإعلام مبارك العدواني لتناول القضايا الإعلامية كافة.

وقال وزير الإعلام الكويتي الدكتور سعد بن طفلة العجمي في تصريح لـ «الرياض»: إن الكويت تؤيد إقامة ملتقى الصحافة في دول مجلس التعاون الثاني في المملكة العربية السعودية لما تحظى به من مكانة كبيرة على المستويين السياسي والإعلامي، ولا سيما بعد أن تقرر الرياض ستكون عاصمة للثقافة العربية في السنة القادمة.

وألقى الأستاذ إبراهيم الفزيع محاضرة عن مسيرة الصحافة السعودية أكد فيها أن قيام المؤسسات الصحافية أدى إلى تطور مفهوم الخدمة الصحافية من حيث الاهتمام بالخبر والصورة والاستعانة بمراكز المعلومات ووكالات الأنباء، مبيناً أن حرية التعبير في وسائل الإعلام السعودية مكفولة ضمن الأهداف والقيم الإسلامية والوطنية التي يتوخاها الإعلام السعودي.

موعد مسابقة جائزة الشارقة للإبداع

تحدد يوم ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول الحالي آخر يوم لاستلام أعمال المشاركين في مسابقة الشارقة للإبداع التي تعنى بالإصدار الأول للشباب، في مجال القصة القصيرة «مجموعة»، والرواية والمسرحية، وأدب الأطفال الذي خصص في هذه الدورة لمسرحية الطفل، كما خصص النقد لجماليات الشعر.

وأهابت الأمانة العامة للجائزة بالمشاركين الإسراع في تسليم المساهمات حتى يتسنى تقويم الأعمال المتقدمة للمسابقة والحكم عليها، والتي سوف تعلن نتائجها في فبراير / شباط عام ٢٠٠٠م.

وقد كان الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة وراعي الجائزة قد أمر بمضاعفة قيمتها المالية لتصبح الجائزة الأولى خمسة آلاف دولار أمريكي في كل مجال، والجائزة الثانية ثلاثة آلاف دولار أمريكي في كل مجال، والجائزة الثالثة ألفي دولار أمريكي في كل مجال.

ومن شروط المسابقة ألا يكون العمل المشارك به في المسابقة قد نشر من قبل، وألا يكون قد طبع لصاحبه أي عمل آخر من قبل في الحقل الذي يتقدم للمشاركة فيه، كما أن المشاركة حصرت في الفئات الشبابية فاشترطت ألاّ يتعدى عمر المشاركين، من الجنسين، أربعين عاماً.

وفاة المؤرخ العماني سيف بن حمود البطاشي


سيف بن حمود البطاشي

توفي يوم الأربعاء ٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩م الموافق ٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ الماضي المؤرخ العماني سيف بن حمود البطاشي عن عمر يناهز السبعين عاماً، ، بعد أن أغنى المكتبة العمانية بعدد كبير من المؤلفات الخاصة بالتاريخ العماني.

يقول بعض الباحثين: إن مادة التاريخ العماني شحيحة، وقد غُيب كثير من الحقب الزمنية مما خلق فجوة في هذا التاريخ. ويعزو بعضهم ذلك إلى اهتمام المثقف العماني بالفكر الديني وبتأليف المصنفات الدينية، ونادراً ما نجد مصنفاً في التاريخ.

وحاول المؤرخ الراحل أن يعيد صياغة التاريخ العماني الذي توجد أغلب مصادره في شكل مخطوطات، فعكف على هذه المخطوطات في صبر وجلد على تقدمه في السن وضعف بصره، وكان يستعمل العدسات المكبرة بالإضافة إلى نظارته الطبية، في عين واحدة فقد فقدت الأخرى نورها منذ زمن، على الرغم من ذلك قرأ كثيراً من المخطوطات وحققها، وترك للمكتبة العمانية عدداً من الكتب التاريخية، من بينها: «إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان» ويقع في ثلاثة أجزاء، و«إرشاد السائل إلى معرفة الأوائل»، و«تاريخ المهلب القائد وآل المهلب»، و«إيقاظ الوسنان في سيرة خلف بن سنان»، و«الطالع السعيد في سيرة الإمام أحمد بن سعيد».

مؤرخ مغربي يفوز بجائزة عبدالحميد شومان للشباب


عبدالحميد شومان

كانت جائزة مؤسسة عبدالحميد شومان للباحثين العرب الشبان للعلوم الإنسانية عام ١٩٩٨م من نصيب المؤرخ المغربي عبدالواحد أكمير أستاذ مادة التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تقديراً لجهوده العلمية في مجال التاريخ.

وسيتم تسليم الجائزة في احتفال يقام في الجامعة الهاشمية في عمان في سياق الملتقى العلمي السنوي للمؤسسة الذي يحضره الفائزون في جوائز المؤسسة التي تمنح في مجالات العلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية، والعلوم التطبيقية، وذلك منذ عام ١٩٨١م، وهي تمنح للباحثين العرب الشبان الذين لا تتجاوز أعمارهم الأربعين عاماً.

ومن المقرر أن يناقش الحضور أوضاع البحث العلمي في الوطن العربي.

والفائز الدكتور عبدالواحد أكمير من مواليد شفشاون «شمال» عام ١٩٦٠م، وقد حصل على درجة الدكتوراه من جامعة «كومبلوتينس» بمدريد عام ١٩٩٠م، وكان موضوعها «الهجرة العربية بالأرجنتين»، وقد نشرت له عدة بحوث من قبل، مثل: «الحضور المغربي في غرب إفريقية»، و«العالم العربي وأمريكا اللاتينية».

أزمة ثقافة!!


عبد الرحمن الكواكبي

أوردت مجلة الوسط في عددها رقم ٤٠٠ الصادر في ٢٧ سبتمبر/أيلول الماضي خبراً عن التحقيق الثقافي الذي قامت به مجلة «تشرين الأسبوعي» السورية الذي شمل عينة من طلاب جامعة دمشق حول المستوى الثقافي للطلاب، وكانت نتائج التحقيق كما تقول الوسط «مقلقة تستدعي التفكير والتصرف قبل فوات الأوان»، فقد كشف الاستطلاع أن معظم الطلاب لا يقرؤون الصحف المحلية مطلقاً، في حين بلغ متوسط ساعات الجلوس أمام التلفاز ٦ساعات يومياً.

وكشفت الأسئلة التي تتعلق بالشخصيات العامة عن جهل

الطلبة بأسماء شخصيات لها دور وطني بارز، فمثلاً عرف الكثيرون المفكر التنويري عبدالرحمن الكواكبي على أنه صحافي مصري، وسعد زغلول بأنه شاعر سوري، والشاعر التشيلي بابلونيرودا بأنه أديب مغربي، وهكذا.

ولكن الأمر اختلف عندما كان السؤال عن جنسية الممثلة الأمريكية شارون ستون، وعن فيلم «غريزة أساسية» كأشهر أفلامها، إذ أجاب أكثر الطلاب إجابات صحيحة!!

ورمي الطلاب باللوم على أساتذتهم في الجامعة، واتهموهم بأنهم يلقنونهم معلومات غير صحيحة تدل على جهلهم بالحقائق التاريخية، وأعطى أحدهم مثالاً بأستاذه الذي لا يعرف أن سورية استقلت عام ١٩٤٦م!!.

توزيع جائزة المغرب للكتاب العربي


مولاي رشيد

ترأس مولاي رشيد ولي عهد المغرب بموقع شالة الأثري بالرباط مراسم حفل توزيع جائزة المغرب للكتاب عام ١٩٩٨م، وقد تزامن توزيع الجائزة هذا العام مع الذكرى الثلاثين لتأسيسها عام ١٩٦٨م.

وكانت الجائزة الكبرى من نصيب الدكتور إبراهيم حركان المتخصص في التاريخ واللغة العربية، أما جائزة الإبداع الأدبي فقد فاز بها الكاتب والروائي أحمد التوفيق عن روايته «شجيرة حناء وقمر»، وفاز بجائزة الدراسات الأدبية والفنية الكاتب محمد أنقار عن كتابه «قصص الأطفال بالمغرب»، وجائزة العلوم الإنسانية والاجتماعية والقانونية كانت للكاتب المختار بنعبدلاوي عن كتابه «الإسلام المعاصر: قراءة في كتاب التأصيل»، وكان ختام الجوائز جائزة الترجمة، وقد منحت للباحثة فاطمة الزهراء أزرويل عن ترجمتها لعمل الكاتبة فاطمة المرنيسي «نساء على أجنحة الحلم»،

وقد حجبت جائزة العلوم والتكنولوجيا هذا العام مرة أخرى.

رحيل الشاعر العراقي الحائري

رحل في الأيام الماضية الشاعر العراقي علي بن محمد علي الحائري عن عمر يناهز ٦٦ عاماً .

ولد الشاعر علي الحائري في مدينة كربلاء بالعراق عام ١٩٣٣م، وكان والده رجل دين وخطيباً، فعاش في جو أدبي وتأثر به إذ كانت المدينة آنذاك تعج بالأدباء، فنظم الشعر منذ أن


علي الحائري

كان يافعاً في المرحلة الإعدادية، أي منذ خمسينيات هذا القرن، وتداول قصائده الشعرية أساتذته وزملاؤه، ونشر بعضها في النشرات المدرسية، وبعضها في الصحف المحلية التي كانت تصدر حينئذ مثل صحيفة «صوت الأهالي»، وصحيفة «التآخي»، وصحيفة «العراق»، كما نشرت له بعض المجلات اللبنانية التي كانت تصدر في الخمسينيات مثل مجلة «الورد»، ومجلة «أديب».

وللشاعر الراحل أربعة دواوين هي: «أغنيات في سهر شهر زاد»، وقد طبع في العراق، وديوان «الركب الرائع» وهو مايزال مخطوطاً، ثم «كؤوس ظمأى» و«رباعيات عمر الخيام»، التي قام بترجمتها من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية.

دمشق تشهد المعرض العربي للكتاب

شهدت مدينة دمشق في الفترة من ١٥ سبتمبر/ أيلول الماضي وحتى الخامس والعشرين منه قيام الدورة الخامسة عشرة لـ «المعرض العربي للكتاب» الذي نظمته مكتبة الأسد الوطنية بمشاركة ٤٠٦ دار للنشر تمثل ١٢دولة عربية هي المملكة العربية السعودية، ومصر، والأردن، والإمارات العربية المتحدة، وتونس، وسورية، وسلطنة عمان، وقطر، والكويت، ولبنان، وليبيا، والمغرب، كما شاركت أيضاً بعض دور النشر الأجنبية من إسبانيا وأمريكا، وإيران، وبريطانيا، وروسيا، وفرنسا، إلى جانب عدد من المنظمات الإقليمية والدولية منها: جامعة الدول العربية، ومعهد المخطوطات، وجمعية الهلال الأحمر السوري، ومعهد العالم العربي، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وكان أول معرض قد أقيم في عام ١٩٨٥م، وشاركت فيه ٣٦ دار نشر سورية عرضت نحو ثلاثة آلاف عنوان. وقد قُدِّم على هامش المعرض عددٌ من المحاضرات الثقافية والنقدية شارك فيها عدد من الأدباء والكتاب العرب.

معاجم عربية بلغة الهوسا والفلاني

قامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) مؤخراً بإصدار معجم (عربي - هوسا) بالحرف القرآني، وقد قام بإنجاز هذا العمل الدكتور هارون الرشيد وإلياس علي، ويجيء إصدار هذا المعجم ضمن جهود المنظمة

سمو الأمير سلمان يرعى حفل توزيع جائزة أبها

إعلان جائزة أبها للثقافة لعام ١٤٢١هـ

برعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض أقيم مساء الخميس ٥ رجب الماضي (١٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٩م) على مسرح المفتاحة بمركز الملك فهد الثقافي بأبها حفل توزيع جائزة أبها.

وقد ألقى المدير العام للتعليم بمنطقة عسير والأمين العام لجائزة أبها الدكتور حمد بن محمد الشغرود كلمة استعرض فيها مسيرة جائزة أبها بفروعها الأربعة: الثقافة، والخدمة الوطنية، والتعليم الجامعي، والتعليم العام.

وألقى صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير كلمة رحب فيها بصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز لرعايته ملتقى جائزة أبها، مشيراً إلى أنه رجل عرف باهتمامه ورعايته للثقافة والأدب والفكر والصحافة، وقال سمو الأمير خالد موجهاً حديثه إلى الأمير سلمان: «لن أنسى آخر نصيحة لكم تشرفت بسماعها منكم وأنا أودعكم متوجهاً إلى أبها لأول مرة وأنت تقول لي: «احذر الهوى يا شاعر»، واسمحوا لي ياسيدي أن أعترف أمامكم اليوم أنني حاولت قدر المستطاع ولم أستطع ، فقد وقعت في حب أبها من أول نظرة».


الأمير سلمان بن عبدالعزيز

ونوه سمو الأمير سلمان في كلمته بما لعسير من مكانة في تاريخ الدعوة بالمملكة، مشيداً بجهود سمو الأمير خالد في النهوض بها حيث «كان خير مسؤول نفذ أوامر قيادته وتوجيهاتها بأمانة وإخلاص». بعد ذلك تسلم سموه هدية تذكارية من الأمير خالد الفيصل.

وقد حجبت جائزة أبها للثقافة بجميع فروعها في هذا العام، وتم توزيع جائزة أبها في فروع الخدمة الوطنية والتعليم الجامعي والتعليم العام.

وقد تم الإعلان عن جائزة أبها للعام ١٤٢١هـ وقيمتها مليون ريال مقدمة من صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل في أربعة فروع هي: الخدمة الوطنية والثقافة والتعليم الجامعي والتعليم العام، وقيمة الجائزة في فرع الثقافة ٢٠٠ ألف ريال في المجالات التالية: الشعر الفصيح والقصة القصيرة والمسرح والدراسات الإنسانية والأدبية والعلمية والفن التشكيلي والتصوير الضوئي.

والجائزة مفتوحة للجنسين من السعوديين وأبناء دول مجلس التعاون الخليجي والعرب المقيمين بالمملكة.

في إحياء اللغات الوطنية للشعوب الإفريقية التي كانت تكتب بالعربية قبل أن يطمس الاستعمار لغتها العربية ويحولها إلى اللاتينية في سبيل طمس هويتها الثقافية والحضارية.

وامتدت جهود المنظمة أيضاً لتصدر، بالتعاون مع معهد تدريب معلمي اللغة العربية في إقليم (كانو) بنيجيريا ومشروع التأهيل الزراعي (فوتا جالون) في غينيا، معجماً بلغة الفلاني، ومعجم ثانٍ بلغة الهوسا، سعياً لتوثيق هاتين اللغتين وضبطهما لسانياً، حتى تساعد هذه المعاجم في تعليم لغة الفلاني والهوسا عن طريق اللغة العربية.

كشوف أثرية في السودان

كشفت الدراسات الميدانية التي قامت بها هيئة الآثار السودانية في شمال منطقة الكوة بولاية النيل الأبيض في المنطقة التي خصصت لقيام مشروع سكر النيل الأبيض والتي تبلغ مساحتها ١٥٠ ألف فدان، عن وجود آثار تمثلت في كنوز من الذهب والعاج وأدوات مصنوعة من الحجر والفخار، وبعض الهياكل العظمية التي يبلغ طول الواحد منها مترين.

وعثرت البعثة كذلك على قطع منقوش عليها رسم للفرعون آمون رع مما يعني أنها ترجع إلى فترة مملكة مروي القديمة التي كانت ممتدة في شمال السودان، كما عثر أيضاً على آثار تعود إلى فترة مملكة علوة النوبية.

وقد أشار علماء هيئة الآثار السودانية إلى أن وجود هذه الكنوز الأثرية يعني أن هنالك حضارة عريقة كانت سائدة في هذه البقعة في الزمان الماضي.

مركز للفنون الشعبية في الخرطوم


راشد دياب

أنشئ حديثاً في الخرطوم مركز ثقافي جديد يهتم بإبداعات الفنانين التشكيليين السودانيين، ويسعى المركز - الذي أطلق عليه اسم «مركز دارة للفنون» - إلى تنظيم فرق

في معرض نظمته الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض

اكتشافان أثريان يغيران النظريات المتداولة عن نشأة الخط العربي

نظمت الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض معرضاً عن الخط العربي في قصر طويق بحي السفارات في مدينة الرياض، وذلك في الفترة من (٤ إلى ٦ رجب الماضي).

افتتح المعرض نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض ورئيس الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز.

وقد تضمنت فعاليات هذا المعرض برنامجاً للمحاضرات الثقافية عن الخط العربي. وكان موضوع اليوم الأول عن علاقة الخط العربي بالحضارات، حيث تحدث الدكتور مشلح المريخي عن تأصيل الخط العربي، وتناول الدكتور علي غبان أثر الخط العربي في الحضارات، وحاضر الدكتور محمد الخناش عن دور الخط العربي في اللغات، أدار الحوار حول هذه المحاضرات الدكتور سليمان الذييب.

وكان موضوع اليوم الثاني عن الخط الزخرفي التطبيقي، فقد تحدث الدكتور حسن الباشا عن الخط على التحف، وتناول الدكتور ناصر الحارثي موضوع التوقيعات للصناع، بينما تمحور حديث الدكتور رأفت النبراوي عن الخط على النقود، وكان موضوع الأستاذ نايف الشرعان عن الخط على النقود في نجد والحجاز في العصر الأموي، أدار الحوار حول هذه الموضوعات الدكتور عدنان الحارثي.

وكان موضوع اليوم الثالث عن جماليات الخط العربي، تناوله الدكتور حسين الجبالي الذي تحدث عن الفن التشكيلي والخط العربي، والدكتور عفيف بهنسي الذي تحدث تحت عنوان «جماليات الخط العربي: رؤية علمية»، بينما تناول الدكتور محمد حداد الزخرفة الخطية في العمارة الإسلامية، وركز الدكتور أحمد الزيلعي حديثه على الخط العربي كعنصر جمالي على الأحجار، أدار الحوار الدكتور علي المغنم.

وتضمنت فعاليات هذا المعرض مفاجأة تمثلت في اكتشافين أثريين قد يغيران النظريات التاريخية المعروفة عن نشأة الخط العربي، حيث أعلن الدكتور الغبان أنه عثر في منطقة الحجر (مدائن صالح) شمال غرب المملكة العربية السعودية على حجر يمثل أقدم نقش عربي إسلامي مؤرخ معروف حتى اليوم، يعود إلى عام ٢٤هـ زمن مقتل ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب، وجاء فيه: «أنا زهير كتبت زمن مقتل عمر سنة ٢٤».

وكان شاهد قبر في أسوان في مصر مؤرخاً في عام ٣١هـ يعد أقدم نقش عربي إسلامي مؤرخ.

وأعلن الدكتور المريخي أنه اكتشف نقش «رقوش» الذي يعد أقدم نقش عربي مؤرخ، يعود تاريخه إلى عام ٢٦٧م، والرقوش من النقوش الكثيرة التي تزخر بها منطقة الحجاز، وهذا النقش يتكون من ٣٦ كلمة جاءت في تسعة أسطر كلها عربية باستثناء سبع كلمات آرامية في الأصل.

(ورش) فنية ودعوة كبار الفنانين العالميين في الفن التشكيلي لعرض إنتاجهم في المركز، كما يسعى المركز أيضاً إلى ربط الحياة التشكيلية السودانية بواقع الفن التشكيلي في العالم، صرح بذلك الفنان التشكيلي السوداني راشد دياب مدير المركز ومنشئه.

وأضاف أن المركز سوف يفتح أعماله لأول مرة في نوفمبر / تشرين الثاني القادم بمعرضين، الأول عن «أعمال الحفر»، والآخر الذي يليه «معرض الأجيال التشكيلية في السودان».

مصحف عمره مئتا سنة



المصحف النادر بين يدي صاحبه

رفض المواطن المصري عبدالمحسن محمد أبو الفتوح كثيراً من العروض المغرية التي بلغ أحدها ٣٠٠ ألف جنيه مصري ثمناً لمصحفه الذي يعد واحداً من ضمن أصغر النسخ المطبوعة للقرآن الكريم في العالم؛ إذ تبلغ مقاساته الداخلية ٢ر١× ٩ر١سم، وأبعاده الخارجية ٧ر١ × ٥ر٢سم. ويبلغ عمر هذا المصحف نحو ٢٠٠ سنة، وهو مطبوع بشرق آسيا، كان قد أهدي إلى والده الشيخ محمد أبو الفتوح، وهو أحد شيوخ الأزهر، في إحدى رحلاته الدعوية إلى باكستان، فاكتسب المصحف بذلك قيمة معنوية إضافية تجعل صاحبه أكثر تمسكاً به أمام إغراءات أصحاب المزادات.

البحث عن جيش الملك قمبيز



فاروق حسني

قرر المجلس الأعلى للآثار في مصر إيفاد بعثة أثرية برئاسة الدكتورة سامية الميرغني المختصة في علم الإنسان، والباحثة في مركز بحوث الآثار، إلى واحة سيوة التي تقع في غرب البلاد وذلك من أجل البحث والتنقيب لمعرفة مصير جيش الملك الفارسي

قمبيز الذي تقول الروايات التاريخية: إنه اختفى في هذه المنطقة منذ ١٤٧٥ عاماً.

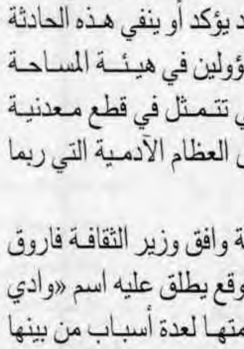
كان هذا الجيش الذي يتكون من ٥٠ ألف جندي تحت قيادة الملك قمبيز في طريقه إلى هدم معبد آمون في سيوة بسبب نبوءة قال بها كهنة المعبد، وتقول النبوءة بقرب انتهاء حكمه، ولكن الجيش الغازي تعرض لرياح شديدة ضربت جنوده ودفنتهم تحت رمال الصحراء.

وكان أمر معرفة مصير هذا الجيش محل اهتمام كل الخبراء وعلماء الآثار، كما يقول محمد الصغير رئيس قطاع الآثار المصرية، ولكنهم لم يتوصلوا إلى شاهد يؤكد أو ينفي هذه الحادثة التاريخية، حتى عثر بعض المسؤولين في هيئة المساحة الجيولوجية على بعض الشواهد التي تتمثل في قطع معدنية مختلفة ورؤوس سهام وخناجر وبعض العظام الآدمية التي ربما تكون لجنود هذا الجيش المفقود.

ونتيجة لوجود هذه الشواهد والأدلة وافق وزير الثقافة فاروق حسني على إرسال بعثة للتنقيب إلى موقع يطلق عليه اسم «وادي الرمال»، ولكن البعثة أخفقت في مهمتها لعدة أسباب من بينها وعورة المنطقة وعدم وجود المعدات والأجهزة اللازمة للكشف تحت الرمال.

وقد زودت البعثة الثانية بالمعدات والأجهزة اللازمة في محاولة للتحقق من هذه الحادثة التاريخية.

جامعة الخليج العربي تدعم الدكتور القصيبي



غازي القصيبي

أكدت جامعة الخليج العربي، وهي جامعة خليجية مشتركة تتخذ من البحرين مقراً لها، دعمها وتأييدها الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي مرشح المجموعة العربية والإسلامية لمنصب مدير عام اليونسكو، وذلك انطلاقاً من إجماع قادة دول مجلس التعاون الخليجي، وهي الدول الأعضاء في الجامعة.

ومن ناحية أخرى صرح الدكتور محمد جابر الأنصاري عميد كلية الدراسات العليا وأستاذ دراسات الحضارة الإسلامية والفكر المعاصر في الجامعة أن هذه «فرصة تاريخية لثقافتنا العربية والإسلامية كي تطل على الأفق الدولي مع اقتراب الألفية الثالثة بوجه مشرّف إبداعياً وعلمياً وأخلاقياً في مستوى الدكتور القصيبي».

أول عربية ترشح لجائزة بوكر البريطانية

دخلت الروائية المصرية أهداف سويف ضمن المرشحين النهائيين الستة لنيل جائزة «بوكر» الأدبية البريطانية، وهي من أهم الجوائز التي تمنح للروائيين الذين يكتبون باللغة الإنجليزية في العالم.

وقد رشحت سويف لنيل هذه الجائزة عن روايتها الجديدة «خريطة الحب» THE MAP OF LOVE، وهي بذلك تكون أول روائية عربية ترشح لهذه الجائزة، وستعلن اللجنة السداسية، التي تضم كبار أساتذة الأدب في الجامعات البريطانية وكبار الكتاب والصحافيين، اسم المؤلف الفائز في يوم ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول الحالي. (وقت طباعة المجلة)

وأعربت سويف عن سعادتها للترشيح لهذه الجائزة مؤكدة أن مجرد الترشيح، بصرف النظر عن الفوز أو عدمه، يجعل المرشح في مصاف نخبة الروائيين في العالم الناطق باللغة الإنجليزية، كما أن المثقفين في العالم يتابعون أخبار المرشحين لهذه الجائزة.

وكانت سويف قد أمضت خمس سنوات في كتابة هذه الرواية حيث كانت تمارس الكتابة بعد الانتهاء من عملها اليومي، وتدور أحداث الرواية حول قصتي حب متقاطعتين، الأولى بين رجل مصري وسيدة إنجليزية، والثانية بين مصري من أم فلسطينية يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وفتاة أمريكية، وتقول سويف إن مما ضاعف سعادتها أن روايتها «تدافع عن وجهة النظر العربية في الأحداث التاريخية التي شهدها القرن العشرون.

والروائية أهداف هي ابنة الدكتور مصطفى سويف مؤسس قسم علم النفس بجامعة القاهرة وأكاديمية الفنون المصرية، ووالدتها الدكتورة فاطمة موسى أول أستاذة للأدب الإنجليزي في الجامعات العربية، وهي متزوجة من الشاعر البريطاني المعروف إيان هاملتون، وقد حصلت على رسالة الدكتوراه من جامعة «لانكستر» البريطانية، وكانت أطروحتها «استعمال الاستعارة في الشعر الإنجليزي في الفترة ما بين ١٥٥٠ و ١٩٥٠م».

أصدرت أهداف مجموعتها القصصية الأولى «آسيا وقصص أخرى» عام ١٩٨٣م، ثم روايتها الشهيرة «في عين الشمس»، التي أثارت ضجة واسعة في الأوساط الأدبية البريطانية، عام ١٩٩٢م.

ورشح إلى جانب سويف خمسة روائيين آخرين هم: ج.م. كوتزيه الأستاذ بجامعة كيب تاون بجنوب إفريقية، وإنيتا ديساي، وكانت قد رشحت لهذه الجائزة مرتين من قبل، ومايكل فراين وهو كاتب وصحافي وخبير في الشؤون الروسية، وأندرو أوهيجان، رئيس تحرير مجلة «لندن ريفيو أوف بوكس» الأدبية، وكولم تيوبن الكاتب الإيرلندي المعروف.

سلفادور دالي يغيث منكوبي الزلزال في تركيا


سلفادور دالي

افتتح وكيل وزارة الثقافة التركية فكرت أوجام المعرض المقام في مركز أتاتورك في اسطنبول بمناسبة مرور عشرة أعوام على وفاة الرسام العالمي سلفادور دالي، ويحتوي المعرض، الذي يخصص دخله لمساعدة منكوبي الزلازل التي ضربت تركيا مؤخراً، على ٢٠٠ لوحة رسمها الفنان دالي، وبعض الكتب التي تتناول سيرته، بالإضافة إلى المصنوعات الفضية والذهبية المهداة له، وبعض الميداليات التي حصل عليها من مختلف دول العالم، ويبلغ سعر بطاقة الدخول إلى المعرض مليون ليرة تركية «نحو ٢٥ دولاراً أمريكياً».

ولد سلفادور دالي (١٩٠٤ - ١٩٨٩م) في مدريد، وأقام أول معارضه وهو في الثالثة والعشرين من عمره في كل من مدريد والعاصمة البرتغالية برشلونة، ثم سافر بعدها إلى فرنسا ومثّل مع الفنان بونيل عدداً من الأفلام السينمائية مثل «كلب الأندلس»، و«العصر الذهبي»، لينال ميدالية باريس الذهبية عام ١٩٥٨م.

أقام دالي أكثر من مئة معرض لأعماله في مختلف عواصم العالم، وحفلت حياته بكثير من المفاجآت والغرائب والطرائف، وكان أكثر الأحداث مأساة في حياته هو موت زوجته الروسية «غالا» عام ١٩٨٢م، فقد تركت فراغاً عريضاً لم يستطع تجاوزه حتى بعد منحه «امتياز الأصالة» من ملك إسبانيا، وظل متأثراً بفقدها حتى مات عام ١٩٨٩م.

أول اتحاد للمصورين العرب

أعلن في بغداد عن تأسيس أول اتحاد للمصورين العرب. ويضم هذا الاتحاد الوليد إلى جانب العراق سبع دول عربية هي: مصر، ولبنان، وفلسطين، وسورية، واليمن، والجزائر، والأردن، وقد اتخذ من بغداد مقراً له.

ودعا الاتحاد، في أول بيان له، الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان إلى رفع الحصار الذي يتعرض له العراق.

لبنانية ترفض جائزة عالمية

رفضت المخرجة اللبنانية رندة الشهال صباغ الجائزة التي منحتها لها منظمة اليونسكو للسلام عن فيلمها «متحضرات» الذي عرض خلال الدورة السادسة والخمسين لمهرجان البندقية السينمائي.

ويأتي رفض المخرجة لهذه الجائزة بسبب حصولها عليها مناصفة مع المخرج الإسرائيلي عاموس جيتاي، وكانت المخرجة في باريس حين علمت بفوزها بالجائزة، فأصدرت من هناك بياناً أعلنت فيه رفضها للجائزة بغض النظر عن أهمية الجائزة، وأشارت إلى نجاح الفيلم وجذبه لعدد كبير من الرواد في أثناء عروضه الثلاثة.

والفيلم يحكي مشاهد من الحياة اللبنانية في أثناء الحرب الأهلية التي كانت دائرة في لبنان من خلال شخصيات متنوعة ومتناقضة، ومن المقرر أن يعرض الفيلم في الدورة الثالثة لمهرجان بيروت السينمائي، كما أن المخرجة سافرت إلى كندا للمشاركة به في مهرجان تورنتو الدولي.

ومن ناحية أخرى هنأ وزير الإعلام اللبناني أنور خليل المخرجة رندة الشهال على هذا الموقف الذي عدّه «قدوة وشجاعة»، وأكد الوزير في برقيته أن هذا الرفض «يؤكد عمق الالتزام الوطني والقومي، ويؤكد أهمية التزام الفن بقضايا شعبنا العربي وحقوقه».

نشر رسومات ناجي العلي


ناجي العلي

تحت رعاية معهد كنعان التربوي النمائي اجتمعت في غزة مؤخراً بعض الفعاليات الثقافية والأدبية والإعلامية وقررت تشكيل «لجنة أصدقاء ناجي العلي» من أجل إحياء ذكره ونشر رسوماته التي تبشر بالثورة، كما صرح بذلك الكاتب غريب عسقلاني.

وأضاف عسقلاني أن ناجي العلي لم يكن منضوياً تحت أي فصيل، بل كان «يختزل همومنا وعناصر واقعنا، يقدمها في أقل مساحة، وأقصر عبارة».

وختم بالدعوة إلى تشكيل محكمة عدل فلسطينية لمحاكمة قتلة ناجي العلي الذين اغتالوه في العاصمة البريطانية لندن قبل ١٢ عاماً.

حكاية شاعرة من فلسطين


فدوى طوقان

«فدوى حكاية شاعرة من فلسطين»، هو عنوان الفيلم الفلسطيني الذي قدم في إطار فعاليات مهرجان الإسكندرية السينمائي الدولي الخامس عشر بالإسكندرية، والذي تناول قصة حياة الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان بصفتها واحدة من رموز حركة التجديد

في الشعر العربي. الفيلم من إخراج ليانة بدر حرم وزير الثقافة الفلسطيني، وقد أعقب عرضه ندوة تحاور فيها النقاد والجمهور مع مخرجة الفيلم.

ولدت فدوى طوقان، التي أطلق عليها بعض النقاد لقب «آخر الشاعرات الكبيرات» في الوطن العربي، في مدينة نابلس عام ١٩١٤م، وهي سليلة أسرة عريقة، فأخوها إبراهيم طوقان، شاعر معروف في الأوساط الأدبية. وقد ظلت على عطائها الأول على الرغم من بلوغها الخامسة والثمانين، وعلى الرغم من قساوة الاحتلال ومرارته حتى وصفها أحدهم بأنها القمة الثالثة التي تتكئ عليها مدينة نابلس بعد قمتي ويمبال وجدزيم.

صدر للشاعرة عبر مسيرتها الفنية عدد من الدواوين الشعرية منها «أعطنا حبًا»، و«أمام الباب المغلق»، و«على قمة الدنيا وحيداً»، و«تموز والشيء الآخر» وغيرها، إضافة إلى مذكراتها التي صدرت في جزأين: «رحلة صعبة» و «الرحلة الأصعب».

وقد نالت الشاعرة عدداً من الجوائز والأوسمة وترجمت أشعارها إلى عدة لغات.

تحف زائفة!!

كشفت التحقيقات التي أجرتها صحيفة «صنداي تايمز»، أن دار المزادات الدولية «سوثبيز» المتخصصة في بيع الأثاث العتيق كانت تبيع لزبائنها، ومنذ عدة سنين، قطع أثاثات مزيفة على أنها أنتيكات.

واستقال، في الحال، اثنان من موظفي الدار كانا يعملان في قسم الأثاث بعد إخفاقهما في كشف تزييف ٤ كراسي بيعت بمبلغ ٣ر١ مليون جنيه إسترليني. وقد اعترف أحدهما وهو جراهام تشايلد، الذي يعد من كبار اختصاصيي الشركة بإخفاقه في مسألة الكشف عن زيف هذه الكراسي، وقال: «ما من أحد معصوم من الخطأ، وبالنسبة إليَّ فقد استقلت من «سوثبيز»، وأفضل ألاّ أعلق على ما جرى في الماضي».

ومن الأثاثات المزيفة التي بيعت منضدة قيل: إنها تعود إلى القرن الثامن عشر، بيعت بمبلغ ٨٠ ألف جنيه إسترليني، وزوج من الشمعدانات بيع بمبلغ ٤٤ ألف جنيه إسترليني، وزوج من مناضد الزينة بلغ سعره ١٦ ألف جنيه استرليني.

واضطرت الشركة أن ترد إلى زبائنها كل المبالغ التي دفعوها في الأثاث الذي ثبت زيفه، إلا أن ذلك لم يرض هواة جمع هذه التحف، الذين يعدون هذه الدار من أهم دور المزادات في العالم.

أربعة ملايين جنيه إسترليني ثمن حذاء فان جوخ

من المقرر أن يقام في لندن في ديسمبر / كانون الأول المقبل مزاد علني لبيع إحدى لوحات الرسام فان جوخ «زوج من الأحذية»، وهي



فان جوخ



لوحة «زوج من الأحذية»

واحدة من سلسلة لوحات في هذا الموضوع رسمها الفنان في الفترة من ١٨٨٦ إلى ١٨٨٧م، عندما كان مقيماً مع أخيه في باريس، ويعرض باقي هذه السلسلة الآن في متاحف العالم المختلفة عدا هذه اللوحة التي كانت مختفية تماماً منذ ٥٠ عاماً حينما اشتراها أحد الهواة، وضمها إلى مجموعته.

ويوضح جوسي بابيلكارنين مدير دائرة الفن الانطباعي في شركة كريستيز، التي تنوي إقامة المعرض، سبب هذا الاختفاء أن فان جوخ أهدى هذه اللوحة إلى الناقد ألبير أوريه وهو الناقد الوحيد الذي أشاد بموهبة جوخ، واحتفظت عائلة الناقد باللوحة حتى باعتها عام ١٩٤٦م، وهو تاريخ اختفاء اللوحة.

وأضاف جوسي أن هذه اللوحة يصعب تحديد سعرها؛ لأن الآراء اختلفت بشأنها، ولكن الثابت أنها تنتمي إلى مرحلة مهمة من مراحل تطوير فان جوخ الفني.

وكانت الشركة قد حددت سعراً أساسيًا لهذه اللوحة بلغ مليوناً ونصف المليون جنيه إسترليني، إلا أن توقعات بعض الخبراء تقول إن سعرها ربما يصل إلى أربعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية.

السينما والإنترنت: علاقات جديدة

دخل الإنترنت منافساً قوياً في صناعة السينما، فخلال شهر سبتمبر/ أيلول الماضي، شاهد ما يربو على مليون شخص في الولايات المتحدة وألمانيا وإيران والمغرب وغيرها من الدول فيلماً من خلال الإنترنت بعنوان ذابيبر الفضولي، وهو شريط رسوم متحركة، قام بتصويره الممثل آدم ساندلر مخصوصاً للإنترنت، وقد علق جيم مولوشوك رئيس شركة «وورنر براذرز أوين لاين» التي رعت هذا العمل أن هذا الرقم «يشير إلى وجود جمهور متعطش لعروض عبر الإنترنت».

ويعد هذا العمل مجرد تجربة لعلاقة قادمة بين السينما والإنترنت، الذي أصبح يشاهد على نطاق واسع في العالم، فقد قررت شركة «ميتا فيلميكس» أن تبدأ مع نهاية العام الحالي بإنتاج فيلم يصور في لوس أنجلوس يبث أولاً من خلال الإنترنت.

ومن المفترض أن يعرض العام القادم فيلم «مشروع الكم»، الذي

بلغت تكلفته ثلاثة ملايين دولار على موقع شركة «سايتساوند. كوم»، على أن يدفع كل مشاهد من دولارين إلى أربعة دولارات نظير مشاهدته.

وفي سابقة تعد الأولى من نوعها، استطاعت شركة «آي. فيلم نت وورك» في مايو آيار الماضي، تنظيم عرض لأحد أفلامها «مفلس» في إحدى صالات نيويورك، وعبر الإنترنت في وقت واحد، وهو ما حدا بمؤسسها روجر رادمان أن يصرح قائلاً: «إننا في بداية ثورة رقمية ستغير صناعة السينما كما نعرفها، من الإنتاج إلى التوزيع مروراً بالترويج للأفلام».

وترصد هوليود هذه التطورات التقنية باهتمام شديد خصوصاً بعد نجاح فيلم «مشروع ساحرة تكلفة بلير» الذي لم تتجاوز تكلفة تصويره ٤٠ ألف دولار وتجاوزت عائداته ١٣٠ مليون دولار نتيجة للحملة البارعة التي حظي بها من خلال الإنترنت، والتي بدأت قبل إنجاز الفيلم.

عودة مؤلف «الأشياء تتداعى»


شينوا أتشيبي

عاد الكاتب النيجيري شينوا أتشيبي، مؤلف رواية «الأشياء تتداعى» والتي عدت من أكثر الأعمال الإفريقية شهرة في الغرب، إلى بلاده مؤخراً وذلك بعد تسع سنوات قضاها في الولايات المتحدة.

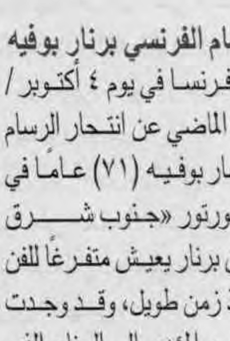
وكان شينوا (٦٩ عاماً) قد غادر بلاده إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٠م بغرض العلاج عقب حادث سير أصيب من جرائه بشلل جزئي، ولم يصرح الأديب العائد إذا كان ينوي الإقامة في بلاده أم أنها مجرد زيارة يعود بعدها إلى الولايات المتحدة.

الجدير بالذكر أن عدداً من الرموز الأدبية والفكرية النيجيرية قد عادت إلى البلاد بعد تولي الحكومة المدنية مقاليد السلطة، وكان أغلب هؤلاء المفكرين قد هاجروا إبان عهد الجنرال ساني آباتشا الذي اتسم بالقمع والبطش، وكان من بين العائدين وولي سوينكا الذي حاز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٦م.

ولد الروائي والشاعر النيجيري شينوا تشيبي عام ١٩٣٠م في أوجيدي، وتلقى تعليمه في كلية أيبادان وعمل بالتدريس في عدد من الجامعات النيجيرية، وتعد رواية «الأشياء تتداعى» التي قام بتأليفها عام ١٩٥٨م من أشهر أعماله، وهي تتناول الآثار التي نجمت عن وصول المستعمر الأوروبي إلى مجتمع الإيبو في أواخر القرن التاسع عشر.

ولشينوا أيضاً عدد كبير من الروايات منها: «القلق» ١٩٦٠م، و«سهم الرب»، ١٩٦٤م، و«رجل الشعب» ١٩٦٦م، و«تلال نمال السافانا»، ١٩٨٧م، وهي تصف الصراع الذي يخوضه الأفارقة في سبيل التحرر من الأوربيين. وقد نشط شينوا سياسياً خلال فترة الستينيات والسبعينيات التي تميزت بأحداث سياسية كثيرة فجاءت كتاباته متناولة هذه المشكلات، فكان ديوانه «حذار يا أخا الروح» ١٩٧١م، و «عيد الميلاد في بيافرا» ١٩٧٣م، ومجموعة من القصص القصيرة تحت عنوان «الفتيات في الحرب» ١٩٧٢م، وكتاب للأطفال بعنوان «كيف حصل الفهد على مخالبه؟» ١٩٧٢م، وساعد أيضاً على إصدار مجلة «أوكيكي»، كما كتب أيضاً عدة مقالات تحت عنوان «صبيحة يوم الخلق» عام ١٩٧٥م، وقد صدرت فيما بعد في كتاب عام ١٩٨٨م تحت عنوان «آمال ومخاوف»، بعد أن أضاف إليه الكثير.

انتحار الرسام الفرنسي برنار بوفيه


برنار بوفيه

أعلن في فرنسا في يوم ٤ أكتوبر / تشرين الأول الماضي عن انتحار الرسام الفرنسي برنار بوفيه (٧١) عاماً في منزله في تورتور «جنوب شرق فرنسا». كان برنار يعيش متفرغاً للفن في بيته منذ زمن طويل، وقد وجدت جثته في الممر المؤدي إلى الجناح الذي كان يرسم فيه، وكانت زوجته أنابيل توجد في المنزل مع عدد من أفراد الأسرة والأصدقاء ساعة وقوع الحادث.

كان برنار يعاني من مرض «باركنسون» الذي كان يعيقه عن ممارسة الرسم، وقد أسر لصديقه صاحب الصالة التي يعرض فيها لوحاته أنه سيقدم على الموت بعد الفراغ من رسم آخر لوحة من اللوحات التي ستعرض، وقد علق الرئيس الفرنسي جاك شيراك عندما بلغه نبأ انتحار برنار بقوله: «نحمل جميعاً في ذاكرتنا قسماته، وخطوطه، وألوانه».

ولد برنار بوفيه في ١٠ يوليو / تموز عام ١٩٢٨م، وتخرج في أكاديمية الفنون الجميلة في باريس، وأقام أول معارضه في عام ١٩٤٦م، وقد اشتهر برنار بغزارة الإنتاج، فقد خلف أكثر من ثمانية آلاف لوحة.

ومع أن حب الفرنسيين لفنه خف مع السنوات، لكن ظلت شهرته ثابتة في اليابان، فقد أطلق اسمه على بعض الشوارع، وكذلك في الولايات المتحدة؛ إذ سجلت لوحاته أرقاماً كبيرة في المزادات العلنية، فقد بيعت إحدى لوحاته عام ١٩٩٠م بمبلغ ٧٩٧ ألف دولار أمريكي، وبيعت أخرى بمبلغ ٧٧٠ ألف دولار أمريكي، ومع هبوط الأسعار الذي ضرب الأسواق الفنية في بداية التسعينيات فمازالت لوحاته مطلوبة من هواة جمع التحف واللوحات.

فوز الألماني جراس بجائزة نوبل للآداب

شهد يوم الخميس ٣٠ سبتمبر/أيلول الماضي بداية إعلان جائزة نوبل للآداب، واستكمل إعلان الجوائز الأخرى خلال ١٦يومًا ابتداءً من ٣٠ سبتمبر/أيلول وحتى ١٥ أكتوبر/تشرين الأول.

وقد أعلنت الأكاديمية الملكية السويدية على لسان أمينها العام الجديد، هوراس إنغدال، وأمام حشد من الصحفيين والمهتمين فوز الألماني جونتر جراس بجائزة نوبل للآداب لعام ١٩٩٩م، وجاء في بيان الأكاديمية أن جراس حصل على هذه الجائزة «لنقله الوجه المنسي للتاريخ من خلال حكايات مروية على ألسنة الحيوانات في قالب من السخرية اللاذعة»، وبذلك يكون أول من فاز بهذه الجائزة في أول هذا القرن هو ألماني «ثيودور مومسن»، وآخر من فاز بها في آخره ألماني أيضًا وهو جراس.

وعلق الكاتب عندما تلقى نبأ الفوز بهذه الجائزة بسخريته المريرة قائلاً: «أشعر أني على وشك الابتسام، لقد انتظرت الجائزة عشرين سنة، وهذا جعلني احتفظ بشبابي وحيويتي، أما الآن فإني أستعيد عمري الطبيعي».

ويعدّ جونتر جراس من أهم كتّاب ألمانيا من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية وأكثرهم نجاحًا وشهرة وإثارة للجدل، وكان له نشاط سياسي واسع، وكان من كتّاب المقالة السياسية المعروفين داخل ألمانيا وخارجها، وكثيرًا ما كان ينتقد حكومته في سياستها تجاه اللاجئين وطرائق تسفيرهم إلى بلادهم.

وانتقد الوحدة الألمانية وعدّها ضمًا لا توحيدًا، وقد سببت روايته «حقلٌ واسع» التي صدرت عام ١٩٩٥م والتي كانت تتحدث عن هذه المسألة، سببت ضجة في ألمانيا، وأثارت عليه غضب كثير من النقاد على رأسهم الناقد الألماني المعروف مارسيل رايش رانيسكي الذي تصدرت صورته غلاف مجلة «شبيجل» وهو يمزق بيديه رواية جراس تحت عنوان «سقوط كاتب كبير»، ولم يكن جراس ضد مبدأ الوحدة في حد ذاتها، ولكنه كان متشائماً بسبب التسرع في إقرارها، وبسبب إغفالها للانصهار الثقافي الذي يعدّه جراس أساساً لكل وحدة.

ومن آراء جراس المثيرة للجدل معارضته الوحدة الأوروبية، ومسوغه أنه «يخشى من أن يجيء إنسان أوربا الموحدة تحت ضغوط بروكسل مخلوقًا يفتقر إلى إرادة القوة الألمانية، وتغيب عنه الذائقة الفنية الفرنسية، ويقتصر على العقلية الأنجلوسكسونية الباردة والمنطقية معًا!!.



جونتر جراس

وفور إعلان فوزه بجائزة نوبل للآداب تبرع بجزء كبير منها لـ «مؤسسة جراس للغجر» الذين تعرضوا للحرب والإبادة على أيدي النازيين، ولم يجدوا التعويضات التي وجدها غيرهم من ضحايا النازية، وهذا موقف يدل على عمق تفكير جراس وحسه الأخلاقي والتاريخي.

ولجراس مفهوم محدد للكتابة، إذ يرى أنها «تناضل ضد انقضاء الزمن»، وأشارت الأكاديمية السويدية إلى ذلك في مسوغاتها لمنحة الجائزة، إذ جاء أنه: «قام بمراجعة شاملة للتاريخ من خلال التذكير بما تم رفضه أو تناسيه: الضحايا والخاسرين والأكاذيب التي يريد الناس أن ينسوها، لأنهم آمنوا بها في أحد الأيام».

مولده:

ولد جراس في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٧م في مدينة دانتسج في شرق ألمانيا من أبوين نصف بولنديين ونصف ألمانيين، وتقع دانتسج في منتصف المسافة بين قسمي ألمانيا القديمة، أي بين بروسيا الشرقية ومجموعة المناطق الألمانية الأخرى عند ملتقى نهر المتوتلاد وفرع الفايكسل. وكانت مدينة حرة بين عامي (١٩٢٠ - ١٩٣٠م)، يغلب عليها السكان الألمان، ويمتزج بهم عدد غير قليل من البولنديين.

شهد جونتر صدور كتاب «كفاحي» لهتلر، وإعادة تنظيم الحزب النازي، وانضم وهو في العاشرة من عمره إلى منظمة «أشبال هتلر» ثم إلى منظمة «شباب هتلر» في عام ١٩٤١م، أي بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية بعامين.

وجند في المشاة الألمانية وهو في السابعة عشرة، ثم ترك مدينة دانتسج عام ١٩٤٤م، ووقع في أسر القوات الأمريكية في العام التالي، وبعد إطلاق سراحه عمل بالزراعة والمناجم وقطع الأحجار وبيع الصحف.

والتحق في عام ١٩٤٩م بأكاديمية الفنون في دوسلدورف فدرس الرسم والنحت، وبدأ يمارس الكتابة الأدبية والعزف على بعض الآلات الموسيقية.

بدأ جراس حياته رساماً، ثم اتجه بعد ذلك إلى الشعر قبل أن يتحول إلى كتابة الرواية التي أبدع فيها، وكان أول أعماله الأدبية عام ١٩٥٦م، مجموعته الشعرية الأولى «محاسن طيور الريح» التي صدرت عن دار نشر «هيرمان لوفترهاند» في مدينة مشتانت الألمانية، وهي الدار التي

مازالت تطبع أعماله حتى يومنا هذا.

انضم إلى جماعة «٤٧» الأدبية التي تعود نشأتها إلى مناداة بعض الأدباء الشبان في أوائل عام ١٩٤٧م لمناقشة أحوال الأدب، والعمل على نهضته من خلال إنشاء جماعة تسمى باسم العام الذي أسست فيه، وتكون مهمة الجماعة الوليدة تشجيع الإبداع الأدبي واكتشاف المواهب الجديدة، وقد أنشأت فيما بعد جائزة باسمها لأفضل الكتّاب في مجال الرواية، ومن الأدباء الشبان الذين أسسوا الجماعة أجيبورج باخمان، وهاينريش بول.

مؤلفاته:

يعد جراس من الأدباء الألمان الغزيري الإنتاج، وقد ساعده في ذلك قيام دار «هيرمان لوفترهاند» بطباعة كل مؤلفاته الروائية والقصصية والشعرية ومقالاته السياسية ونشرها، وقد صدر لجراس خلال مسيرته الأدبية التي بدأت في بداية الخمسينيات من هذا القرن عدة أعمال منها:

«عشر دقائق قبل الوصول إلى بافالو» ـ مسرحية/١٩٥٨م.
- «طبل الصفيح» ـ رواية/١٩٥٩م،.
- «المثلث المهترئ» ـ مجموعة شعرية/١٩٦٠م.
- «قط وفأر» ـ رواية/١٩٦١م.
- «سنوات كلب، أو السنوات المسعورة» ـ رواية/١٩٦٣م.
- «الاستفهام» ـ مجموعة شعرية/١٩٦٧م.
- «حول البديهي»/١٩٦٨م.
- «تخدير موضعي» ـ ١٩٦٩م،
- «مسرحيات»/١٩٧٠م.
- «مجموعة قصائد» ـ ١٩٧١م.
- «من مذكرات حلزون» ـ رواية/١٩٧٢م.
- «المواطن وصوته» ـ ١٩٧٤م.
- «سمك الفلامندر» ـ رواية/١٩٧٧م.
- «العقاب أو درس لا ينسى» ـ رواية/١٩٧٨م.
- «لقاء في تلغنة» ـ رواية/١٩٧٩م.
- «الفيضان» مسرحية/١٩٦٨م.
- «ولادات الرأس أو فناء ألمانيا» رواية/١٩٨٠م.
- «مقالات حول الأدب» ـ ١٩٨٠م.
- «القارة» ـ رواية/ ٥ ـ ١٩٨٦م.

وتعدّ فرنسا من أكثر دول العالم فوزاً بهذه الجائزة؛ إذ حصل عليها ١٢ كاتبًا فرنسيًا من قبل، تليها الولايات المتحدة بـ (١٠)، وبريطانيا بـ (٨)، وألمانيا بـ (٧)، وإيطاليا والسويد بـ (٦) لكل منهما.

والألمان الذين سبق لهم أن فازوا بهذه الجائزة هم: ثيودور مومسن عام ١٩٠٢م، وكريستوف أويكن عام ١٩٠٨م، ولود فيغ هايزيه عام ١٩١٠م، وروبرت هاوبتمان عام ١٩١٢م، وتوماس مان عام ١٩٢٩م، وهاينريش بول عام ١٩٧٢م، وغونتر جراس عام ١٩٩٩م.

تزوج جراس من راقصة سويسرية اسمها آنا مارجريتا عام ١٩٥٤م، وأنجب منها ثلاثة أولاد وبنتًا قبل أن يفصل بينهما الطلاق، ثم تزوج بعد ذلك مرة ثانية من أوتي جرونرت عام ١٩٧٩م.

يقول جراس عن نفسه: «لا يمكن صنع صورة متكاملة متجانسة عني، بقاسم مشترك أعظم، وربما استطعت أن أكون شديد الحنان تجاه الآخرين. أما أن أضحك، فلقد كنت قادراً على ذلك في الماضي قدرة أكبر منها الآن».

تلقى المستشار الألماني غيرهارد شرودر خبر فوز جراس بهذه الجائزة وهو على مائدة الرئيس التشيكي ميلوس زيمان في براغ، فسارع بإرسال برقية للكاتب مهنئًا بهذا الفوز، وقال أشرس نقاده، مارسيل رايش ـ راينسكي: «إذا كان هناك أديب ألماني يستحق الجائزة فهو بالتأكيد غونتر جراس».

الجوائز التي نالها جراس:

نال جراس عدة جوائز خلال مسيرته التي امتدت أكثر من خمسين عاماً منها: جائزة الشعر الغنائي عام ١٩٥٥م، وجائزة «مجموعة ٤٧» الأدبية عام ١٩٥٩م، وجائزة الأدب لمقاطعة بريمن للعام نفسه، وأخيراً آخر جوائز نوبل للآداب في هذا القرن، التي سوف يتسلمها يوم الجمعة ١٠ ديسمبر / كانون الأول القادم من ملك السويد كارل السادس عشر جوستاف في استوكهولم مع شيك بقيمة ٦ر٧ ملايين كرون سويدي «حوالي ٩٦٠ ألف دولار أمريكي».



صديق يشاركه فرحة الفوز بالجائزة

وفاة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

انتقل إلى رحمة مولاه عصر السبت الثاني من أكتوبر/تشرين أول الموافق ٢٢ جمادى الآخرة الماضي الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في مدينة عمان بالأردن عن عمر يناهز ٨٥ سنة أفناها في العلم والدعوة إلى الله، والدفاع عن السنة النبوية الشريفة.

ولد الشيخ الألباني في أشقودرة عاصمة ألبانيا سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م، وإليها ينسب، وكان والده عالمًا ومرجعًا للناس في أمور دينهم. وقد اضطرت الأسرة إلى الهجرة إلى سورية، هربًا من حكم أحمد زوغو الذي ضيق على المسلمين في عهده، وفيها تلقى الشيخ الألباني تعليمه على يد والده وعدد من الشيوخ وأهل العلم في دمشق.

عكف الشيخ الألباني على دراسة علم الحديث النبوي الشريف حتى برز فيه، وقد شهد له سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - بقوله: «ما رأيت تحت أديم السماء عالمًا بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني».

مؤلفاته:

بلغت مؤلفات الشيخ الألباني أكثر من مئة كتاب، بعضها في ورقات وبعضها في مجلدات طبع منها نحو سبعين كتابًا ومازالت الباقية مخطوطة، ومن أهم هذه المؤلفات:

- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها في (١٦) مجلدًا، طبع منها ستة مجلدات.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة في (١٤) مجلدًا، طبع منها خمسة مجلدات.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل في ثمانية أجزاء وجزء للفهارس - مطبوع.
- تسديد الإصابة إلى من زعم نصرة الخلفاء الراشدين والصحابة، خمسة أجزاء - مطبوع.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، طبع في ستة أجزاء ثم في مجلدين.
- ضعيف الجامع الصغير، طبع في ستة أجزاء ثم في مجلدين.
- صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، بالإضافة إلى ضعيف «الترغيب والترهيب».
- صحيح «سنن أبي داود»، بالإضافة إلى ضعيف «سنن أبي داود».



الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

- صحيح «سنن ابن ماجه»، بالإضافة إلى ضعيف «سنن ابن ماجه».
- معجم الحديث في نحو أربعين مجلدًا، ١٦مخطوطًا.

نشاطه الدعوي:

كان للشيخ الألباني دروس علمية يعقدها مرتين كل أسبوع يحضرها طلبة العلم وبعض أساتذة الجامعات، وكان يقوم برحلات شهرية منتظمة إلى مختلف محافظات سورية وبعض المناطق في المملكة الأردنية.

اختاره الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - ليتولى مهمة تخريج أحاديث البيوع الخاصة بموسوعة الفقه الإسلامي التي عزمت جامعة دمشق على إصدارها عام ١٩٥٥م، كما تم اختياره في لجنة الحديث التي شكلت في عهد الوحدة بين مصر وسورية للإشراف على نشر كتب السنة وتحقيقها، كما اختير أيضًا من قبل إدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية عام ١٣٧٨هـ للسفر إلى مصر والمغرب وبريطانيا للدعوة إلى التوحيد والسنة، وقد زار عددًا من الدول العربية والأوربية والتقى بالجاليات الإسلامية والطلبة المسلمين.

عمل الشيخ الألباني في تدريس مادة الحديث النبوي الشريف في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة إبان افتتاحها مدة ٣ سنوات ابتداءً من عام ١٩٦٠م، وقد ساهم بجهده وعلمه في نهضة عظيمة شهدتها أروقة الجامعة والجامعات الأخرى في علم الحديث كانت نتيجتها تقديم مئات الرسائل المتخصصة في علم الحديث. وقد عرض عليه عدد من المناصب ودعي إلى عدد من المهام التي اعتذر عنها لشواغله العلمية والدعوية.

تلمذ للشيخ الألباني الكثير من طلبة العلم الذين اقتفوا أثره وساروا على نهجه في بيان الحق والدعوة إلى السنة والدفاع عن حرمات الدين، سواء من تلقى العلم على يديه في الجامعة أو في حلقاته العلمية الخاصة أو من تآليفه الكثيرة.

وتقديراً لجهد الشيخ الألباني وعلمه وما قدمه للمسلمين من نفع منح جائزة الملك فيصل للدراسات الإسلامية عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي تخريجًا وتحقيقًا ودراسة.



ثورو، لستر/ مستقبل الرأسمالية: كيف تصوغ القوى الاقتصادية الراهنة عالم الغد؟، ترجمة: عزيز سباهي.ـ دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٨م

يقول دعاة الرأسمالية إن المنافسة بين الرأسمالية والاشتراكية قد حسمت لمصلحتهم مما يعني أن الرأسمالية هي الأصلح، وقد قويت حجتهم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وكل المنظومة الاشتراكية.

وقد ظلت الدعوة بقدرة الرأسمالية على تجاوز العقبات التي تعترضها، وبقدرتها على التكيّف مع الأوضاع الجديدة مستمرة حتى دافع بعضهم «بأن النظام الرأسمالي القائم لم يعد رأسماليًا على النحو الذي حدده كارل ماركس في رأس المال»، وقد اعتمد الدعاة في ذلك على بعض التدخلات التي تقوم بها الحكومات الرأسمالية لضبط بعض التناقضات.

لكن الكتّاب الموضوعيين في الرأسمالية يرون أن النظام الرأسمالي هو النظام نفسه، حتى قال أحدهم: «كلما أمضيت مدة أطول في الوول ستريت ازدادت قناعتي بأن ماركس كان على حق».

الكاتب الأمريكي سترو ثورو، مؤلف هذا الكتاب، كاتب اقتصادي محترف لا يحب الاشتراكية، بل لا يخفي شماتته بسقوط تجاربها الأولى، خرج بقناعة هي أن الرأسمالية العالمية، وليست الأمريكية وحدها عاجزة عن الصمود أمام التحديات التي تواجهها مع أنها أدخلت كثيراً من التغييرات في بنيتها العامة.

أثبت المؤلف من خلال البيانات والمعطيات والوقائع الحسية أن الرأسمالية باتت تفتقر إلى النمو والعمالة الكاملة والاستقرار المالي، فقد انخفضت نسبة النمو، وازدادت نسبة البطالة، واضطربت الأسواق المالية، وباتت تنذر بانهيارات كثيرة في عدد من دول العالم.

يقول المؤلف: إنه يجد العزاء في عدم وجود بديل للرأسمالية يلجأ إليه الناس حين تخيب آمالهم، ويرى أن الرأسمالية لا تدمر نفسها، وأن الخطر يكمن في الركود، وليس في الانهيار التام، كما حدث لأوربا في العصور الوسطى.

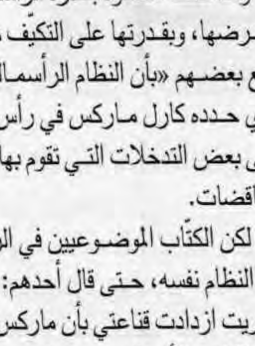


هوبسباوم، إريك/ الأمم والنزعة القومية منذ عام ١٧٨٠م، ترجمة عدنان حسن.ـ دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٩م.

الكتاب محاضرات ألقاها الكاتب في جامعة الملكة في بلفاست في مايو/ أيار عام ١٩٨٥م، وسماها «محاضرات ويلز»، وقد قام بتوسيعها، وأضاف إليها بعض الملاحظات، وركز فيها بشكل كبير على النزعات القومية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

يقع الكتاب في ستة فصول ومقدمة ومدخل، بالإضافة إلى الهوامش والمراجع التي جاءت في آخر الكتاب.

جاء الفصل الأول بعنوان «الأمة كبدعة: من الثورة إلى الليبرالية»، والثاني عن «الإرهاصات الشعبية للنزعة القومية»، والثالث عن «المنظور الحكومي»، بينما كان الرابع بعنوان «تحول النزعة القومية ١٨٧٠ ـ ١٩١٨م»، والخامس بعنوان «أوج النزعة القومية ١٩١٨ ـ ١٩٥٠م»، وجاء فصله الأخير بعنوان «النزعة القومية في أواخر القرن العشرين».



أبو جبل، كاميليا/ يهود اليمن: دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية.ـ دمشق: دار التميز للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

الكتاب دراسة تتناول الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليهود اليمن منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين.

اعتمدت الكاتبة على عدد كبير من المخطوطات غير المنشورة باللغتين العربية والعبرية، واستغلت معرفتها باللغة العبرية في الاستفادة من الوثائق المكتوبة باللغة العبرية.

يقع الكتاب في أربعة فصول وتمهيد، تحدثت المؤلفة في التمهيد عن الخلفية التاريخية للوجود اليهودي في اليمن وتوزعهم الجغرافي.

تناول الفصل الأول «علاقة يهود اليمن بنظام الحكم اليمني إدارياً وقضائيًا وسياسيًا»، وفيه تحدثت المؤلفة عن نظام الجزية في اليمن وكيفية جبايتها طوال فترة حكم الإمام يحيى، وعن تمتع يهود اليمن بإدارة شؤونهم الذاتية، وعن مكانة زعمائهم لدى الإمام ورجال دولته. وتناول الفصل الثاني «الحياة الاقتصادية ليهود اليمن» كالزراعة، والصناعة والتجارة، وتعرض للعلاقة بين اليهود واليمنيين.

وكان الفصل الثالث للحديث عن «الحياة الاجتماعية ليهود اليمن»، وفيه تناولت المؤلفة تنظيمهم الطائفي، وأسس التشريع عندهم، وأعيادهم وعاداتهم، وخصصت جزءاً من هذا الفصل للحديث عن العلاقة بين اليهود والسكان المحليين.

ختم الكتاب بالفصل الرابع الذي خصص للحديث عن «هجرة يهود اليمن إلى فلسطين»، وفيه تعرضت المؤلفة لدور المبشرين اليهود الأجانب في تفتيت المجتمع اليمني، كما أوردت دور الوكالة اليهودية في ترحيل يهود اليمن إلى إسرائيل، ورصدت المعاناة التي عانوها في إسرائيل، كما نوهت بالأوضاع المستقرة لليهود الذين لم يرحلوا إلى إسرائيل.

فريشاور، بول / الجنس في العالم القديم، ترجمة: فائق دحدوح ـ دار نينوى، ١٩٩٩م.



يتناول الكتاب العلاقة الأزلية التي تجمع بين الرجل والمرأة ـ الذكر والأنثى ـ منذ نشأة الإنسان الأولى حتى أصبح إنساناً يسكن المدن المتطورة.

بدأ الكتاب بالإنسان البدائي، فإنسان بلاد ما بين النهرين، ثم مصر والهند، وأخيراً بني إسرائيل، متناولاً الحياة الجنسية في تلك المجتمعات من خلال سياقها التاريخي ـ الحضاري ليشكل مع الأسطورة والثقافة والبيئة الاجتماعية لحمة متماسكة.

يقع الكتاب في جزءين: الجزء الأول عن الحضارات الشرقية، ويتكون من خمسة فصول: فصله الأول عن «الإنسان البدائي»، والثاني عن «سكان بلاد الرافدين»، بينما الفصل الثالث عن «المصريين»، والرابع عن «سكان الهند»، والأخير عن «بني إسرائيل».

أما الجزء الثاني فهو عن الحضارتين اليونانية والرومانية، وقد اشتمل على فصلين، الفصل السادس عن «الإغريق»، والسابع عن «الأتروسك والرومان».

أبو خليل، شوقي/ أطلس دول العالم الإسلامي: جغرافي ـ تاريخي ـ اقتصادي ـ دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨م، ٢٥٥ص.



نبعت فكرة هذا الأطلس ـ كما يقول المؤلف ـ خلال انعقاد مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي الذي عقد في طهران من ٨ ـ ١٠ شعبان ١٤١٨هـ/ ٩ ـ ١١ كانون الأول /ديسمبر ١٩٩٧م. وحضرته خمس وخمسون دولة إسلامية، ولم يستطع الكاتب أن يجيب عن تساؤلات بعض الحاضرين عن أسماء الدول التي شاركت في هذا المؤتمر؛ لأن الدليل الوحيد كان أعلام الدول المشاركة، التي تغير بعضها مما صعب مهمة الإجابة.

قُسِّم الأطلس ثلاثة أقسام: القسم الأول ضم خمساً وخمسين دولة هي دول منظمة المؤتمر الإسلامي، والقسم الثاني ست دول تزيد نسبة المسلمين فيها على ٥٠٪؛ وليست أعضاء في المؤتمر الإسلامي، والقسم الثالث ضم ٢٦ دولة تراوح نسبة المسلمين فيها بين ٢٠٪ و٥٠٪.

يقدم الأطلس معلومات عن كل دولة من هذه الدول تشمل «اسمها الرسمي، وعلمها، وعاصمتها، ومساحتها، وعدد سكانها في عام ١٩٩٦م أو ١٩٩٧م، وعدد السكان المتوقع عام ٢٠٠٠م، ثم لمحة عن تاريخ وصول الإسلام إليها، وأبرز أحداثها التاريخية، وتاريخ استقلالها، يضاف إلى ذلك نبذة اقتصادية موجزة عن إنتاجها الزراعي، وثروتها المعدنية، وأهم صادراتها».

أبو زبيد، محمد أحمد/ الطير في الأدب العربي ـ اربد: مطبعة الروزانا، ١٩٩٨م، ١٥٢ص.



بذل المؤلف جهداً كبيراً ومقدّراً في تأليف هذا الكتاب، جمع فيه أخباراً كثيرة عن الطير، رجع فيها ـ كما ذكر في ثبت المراجع ـ إلى الموسوعات والقواميس والمعاجم، وكتب التراث قديمها وحديثها والبحوث، ودواوين الشعر والمجلات العربية، والصحف، وهذه طبعة ثانية من الكتاب وهي طبعة مزيدة.

الكتاب يقع في أربعة فصول وخاتمة، جاء فصله الأول عن الطير في اللغة، وفي القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف، وفي المأثورات الشعبية، وشرح فصله الثاني أنواع الطيور وخصائصها مقدماً وصفاً لحمام الزاجل ولأصوات الطيور وعادات العرب التي تزجر الطير تفاؤلاً وتشاؤماً، ثم تحدث عن الطير في رموز الأمم والشعوب وشعاراتها وكيف أن أمماً كثيرة ومنذ القدم اتخذت بعض الطيور رمزاً للقوة والشجاعة؟ وفي الفصل الثالث كان الحديث عن دلالة الطير في الشعر العربي، وأورد ما قيل في ذلك في الحرية، والموت، والطفولة، وجمال الطبيعة، والتشاؤم، وأشواق العشاق، والوطن، والقوة. وجاء ذكر الطير في النثر أيضاً ولكن بقدر أقل بكثير من الشعر.

وختم الكتاب بفصل رابع تحدث فيه عن طرائف وغرائب في عالم الطيور، وتعرض للطير في المؤلفات والكتب العربية، ثم أورد في نهاية هذا الفصل آراء عدد من النقاد في هذا الكتاب.

إيدروج، الأخضر/ ذكاء الإعلام في عصر المعلوماتية ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٠٨ص.



يأتي الكتاب في إطار التعاون بين مكتبة الملك فهد الوطنية ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بزغوان ـ تونس.

أوضحت المكتبة أنها حرصت في كل الكتب التي قامت بطباعتها على تعريب كل المصطلحات التي وردت فيها، أما هذا الكتاب ـ

واحتراماً لمؤسسة التميمي ومؤلف الكتاب ـ فقد أخرجته كما أراد مؤلفه، ولكنها نوهت بمعنى مصطلحين اثنين أكثر الكاتب استعمالهما وهما الإبستيمية (المعرفية) EPISTEMOLOGY والسوسيولوجية (الاجتماعية) SOCIOLOGY.

يستعرض الكتاب محورين لتحديد النشأة الوظيفية للمعلومات من الناحية الفكرية، هما المحور النظري والمحور الوظيفي التطبيقي، ويقع الكتاب في خمسة فصول وخاتمة، جاء فصله الأول عن «التكنولوجيا ونشأة المفاهيم»، والثاني عن «ظروف الثورة المعلوماتية ومؤشراتها»، والثالث عن «مراحل البحث العلمي وتطور النشاط التوثيقي»، أما الرابع فقد كان عن «الإشكالية الوظيفية للمعلومات»، وكانت آخر الفصول وهو الخامس عن «سوق الأفكار العلمية والتقنية»، ثم الخاتمة.

دعم الكاتب الحقائق التي أوردها في هذا الكتاب بكثير من الإحصاءات والجداول والأشكال.



عساكر، راشد بن محمد/ تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الرياض إلى عام ١٣٧٣هـ. ـ الرياض: مرامر للطباعة، ١٤٢٠هـ/٤٧٠ص.

يتابع الكتاب نشأة المساجد ومسيرتها في مدينة الرياض وبلاد اليمامة منذ القدم حتى وفاة الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ عام ١٣٧٣هـ، مستعرضاً موقعها وتاريخ بنائها وأئمتها ومؤذنيها وأحباسها وأوقافها الخيرية.

يقع الكتاب في ثلاثة أبواب، يتكون بابه الأول من ثلاثة فصول، أورد في فصله الأول تعريفاً عاماً للمسجد وأهميته، وكيفية معرفة الأوقاف في بلد الرياض، مع ذكر أول مسجد أنشئ في بلد اليمامة، أما فصله الثاني فقد تحدث عن المساجد الواقعة داخل قلعة (سور) بلد الرياض وتاريخها القديم، والثالث عن المساجد الواقعة خارج سور بلد الرياض بجهاتها الأربع، وبحدودها المتعارف عليها قديماً.

أما الباب الثاني فقد جاء في فصلين، أولهما عن المساجد الواقعة داخل سور أحياء منفوحة وما يتبعها من المساجد الأخرى الخارجة عن سورها، وجاء الفصل الثاني عن المساجد الواقعة في كل من قريتي المصانع وفيحان داخل أسوارهما وخارجهما.

أما الباب الثالث والأخير فيتكون من فصلين، جاء الأول عن مساجد الأعياد القديمة في كل من الرياض ومنفوحة، وعن بعض الأمور المتعلقة بالمساجد القديمة في بلد الرياض، وجاء الفصل الثاني عن الأوقاف القديمة في مدينة الرياض، كما تحدث عن أوقاف أهم المساجد القديمة للرياض من خلال القراءة لوثائقها القديمة.



النشرة الإخبارية (العدد ٤٨، المحرم ١٤٢٠هـ)

هي نشرة فصلية تصدر عن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول (أرسيكا)، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وتصدر من هذه النشرة ثلاثة أعداد باللغات الرسمية الثلاث للمنظمة (العربية والإنجليزية والفرنسية)، والعدد الرابع منها باللغة التركية.

وهذا عدد خاص بمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي حول «العلم والمعرفة في العالم العثماني»، الذي أقيم في شهر أبريل/نيسان ١٩٩٩م بإستانبول في إطار احتفالات تركيا بالذكرى السبعمئة لتأسيس الدولة العثمانية، وقد تناول هذا العدد من النشرة جلسات المؤتمر والأنشطة الثقافية والاجتماعية والفعاليات الأخرى المرافقة.



المجلة الزراعية (مج٣٠، ع٢، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ)

هي مجلة تعنى بشؤون الزراعة والمياه، تصدر كل ثلاثة أشهر عن شعبة التوعية والإعلام الزراعي، إدارة الإرشاد والخدمات الزراعية.

جاء هذا العدد حافلاً بعدد من الموضوعات الخبرية والعلمية والفنية والإرشادية، وأخبار متنوعة في بدايته.

وفي مجال البحوث والدراسات، قدم الدكتور عطية بن سالم الرويثي موضوعاً بعنوان «التعداد الزراعي الشامل لعام ١٤٢٠هـ بالمملكة العربية السعودية أهدافه وأهميته»، كما أعدّ الدكتور سعيد باسماعيل موضوعاً عن «الديوكسين في أغذية الحيوانات»، وكتب الطبيب البيطري حسين بن رضى أبو السعود عن «الطب البيطري ودور الطبيب البيطري في المجتمع»، وقدم الجيولوجي أحمد عبدالله غرم الغامدي موضوعاً إرشادياً عن «ترشيد المياه المستعملة في ري الحدائق المنزلية»، كما قدم مركز أبحاث الزراعة والمياه بالأحساء نموذجاً لتطوير آلة لغسيل التمور، وغير ذلك من الموضوعات.



الإداري (العدد ٧٧، ربيع الأول ١٤٢٠هـ)

صدر العدد رقم ٧٧ من مجلة الإداري، وهي دورية علمية محكمة متخصصة في مجال العلوم الإدارية، تصدر عن معهد الإدارة العامة في عُمان ـ مسقط.

والمجلة متخصصة في نشر البحوث والدراسات والمقالات ومراجعات الكتب والتقارير والترجمات العلمية والحالات العملية، بالإضافة إلى ملخصات رسائل الماجستير والدكتوراه، في الموضوعات المتصلة بسلطنة عمان، باللغتين العربية والإنجليزية.

وقد حفل هذا العدد بعدد من الموضوعات منها: «أثر برنامج الإصلاح الاقتصادي على الطاقة الاستيعابية للاقتصاد المصري»، قدمه الدكتور سامي السيد، وقدم الدكتور محمد أمين محيي الدين موضوعاً بعنوان «المتطلبات الخدمية لرفع الكفاءة الإنتاجية للمستشفيات في الأردن»، وكتب الدكتور سنان غالب رضوان عن «دور حياة المنظمة وعلاقتها بالبيئة الداخلية»، وأجرى دراسة مقارنة على عينة من المنظمات الصناعية في اليمن والأردن والعراق، وغير ذلك من الموضوعات.

وفي مجال الوثائق والتقارير أوردت المجلة موضوعاً عن ندوة «توطين العمالة بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، الواقع والطموح» والتي عقدت بمدينة أبو ظبي في الفترة من ١١ إلى ١٢ مايو / أيار ١٩٩٩م، وموضوعاً آخر عن ورشة العمل التي عقدتها المنظمة العربية للتنمية الإدارية في الفترة من ٦ إلى ٨ مارس /آذار ١٩٩٩م، بفندق مريديان بالقاهرة في جمهورية مصر العربية، وكانت حول «الإدارة الإستراتيجية لمعاهد الإدارة».

الرواية في عصر الكمبيوتر والإنترنت

جيهان المكاوي

أذكر أنني عندما تخرجت في قسم آداب اللغة الإنجليزية عددت نفسي قد أضعت أربع سنوات من حياتي في قراءة الروايات. ثم بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه في الإعلام شعرت بأنني تعرفت سطحياً على مجالات العلوم والفنون المختلفة. وعندما أردت أن أعمق حصيلة هاتين المرحلتين توصلت إلى ما أسميته «الرواية البحثية» وهي (الحدوتة) العاطفية التي تتضمن المعلومة المناسبة للمواقف بسياق الرواية، وبالفعل صدرت لي روايات بحثية متداولة في الأسواق منذ بضع سنوات، وإن كانت تختلف إلى حدٍ ما عن محاولات لروائيين أجانب أورد أحدهم نظرية هندسية، وآخر تكنيك الحرب، وثالث نظام اللاهوت المسيحي في رواياتهم.

وفي تصوري أن محاولاتنا هذه في النهاية تتناسب تماماً مع عصر المعلومات الذي يجد المرء نفسه في حاجة إلى كل المعارف التي توجد حلولاً لمشكلاته العامة والخاصة في الوقت نفسه.

والسؤال الآن هل سيروج هذا النوع من الروايات في عصر (الكمبيوتر والإنترنت)؟

رواية الحاسوب (الكمبيوتر)

يرصد الخبراء رواية «ميست» myst على أنها بداية ظهور رواية (الكمبيوتر)، وهي إنتاج أمريكي - ياباني مشترك كتبها طالب ثانوي هو شقيق صاحب الشركة المنتجة لها والمعروفة باسم «عالم السي د ي روم» C.D rom world، وكان قد اختار مقتطفات من بعض روايات المغامرات المعروفة، وربط بينها في سياق شائق ليجذب بها جمهور (الكمبيوتر). ويصف الخبراء هذه الرواية بأنها متعددة الوسائل؛ إذ إنها تضيف إلى النص المكتوب بعض الصور والرسوم، بل الموسيقى أيضاً، كما تمزجها بأساليب قديمة ترجع إلى فن كتابة «الملحمة»، واختاروا لها تسمية «تأليف الحركة المتداخلة INTERACTIVE FICTION إذ تُتيح للقارئ مجالاً لاختيار الأحداث وتركيبها في نسيج يناسب ذوق كل مشاهد على حدة. فمثلاً رواية «ميست» تحكي قصة أب وأم وولدين في جزيرة مهجورة، وكل منهم في سجن منفصل، وله مغامرة خاصة به في مكان مختلف. ويمكن للقارئ أن يختار جزءاً دون آخر ليتعقب أحداثه وشخصية دون أخرى ليتابع تحركاتها في محاولته لنسج روايته ورسم نهايتها من بين الاختيارات المتاحة أمامه. وبذلك يحقق ذاته من خلال الرواية؛ إذ إنه لا يقوم بدور القارئ فحسب بل بدور المؤلف والمخرج معاً، ومن ثم فإن الرواية بالنسبة إليه لغز يحاول من خلاله اكتشاف المذنب ليعاقبه والبريء ليطلق سراحه في النهاية.

وقد تم عرض هذه الرواية على أقراص السي دي روم المدمجة والمليزرة أول مرة في عام ١٩٩٤م، ووصل عدد صفحاتها إلى خمسة وعشرين ألف صفحة أي مئة ضعف عدد صفحات الرواية التقليدية المطبوعة.

وإذا كانت قراءة الرواية المطبوعة تستغرق نحو أربع ساعات، فإن رواية (الكمبيوتر) تستغرق نحو مئتي ساعة. كما أن تكاليفها تعدت ستمئة ألف دولار. كذلك فإن دخلها فاق الأفلام الروائية بمراحل، وقد حصلت هذه الرواية على جوائز ذهبية لكونها علامة مميزة في صناعة الألعاب الترفيهية. ولذلك تعد وسيلة جديدة وظاهرة إعلامية يمكن أن تعيد صياغة مفاهيمنا التقليدية عن الكتب والأفلام الروائية.

عيوب رواية الحاسوب (الكمبيوتر)

أول هذه العيوب أن الخط الروائي مبهم وغير محدد ومن ثم يؤدي إلى ظهور متناقضات لا يمكن حسمها بين بداية الرواية ونهايتها، كما أنه لابد أن يستخدم القارئ دليلاً يتعرف به كيفية



الكمبيوتر هل يغني عن الكتاب؟

متابعة الأحداث وفرص تغيير مساراتها. كذلك فإن كان نص الرواية التقليدية يمنح القارئ فرصة الاسترخاء المؤقت في بعض المواقف بالإضافة إلى أن نهايتها محتومة، فإن رواية

(الكمبيوتر) لا توفر للقارئ هذه «الوقفات» لامتصاص التوتر الناجم عن حبكة الرواية؛ إذ يكون مستغرقًا في الاختيار بين المواقف المختلفة، بالإضافة إلى أن المنتج هنا يترك الباب مفتوحًا لحلول متنوعة في نهاية الصراع الرئيس للرواية. وبذلك يرضي جميع أذواق القراء، ولكن مع الأسف تكون هذه النهاية مقحمة في كثير من الأحيان؛ إذ إنها تعكس ما بداخل القارئ من عوامل شخصية قد لا تتوافق مع التسلسل الموضوعي لأحداث الرواية.

وإذا أخذنا على رواية «تأليف الحركة المتداخلة» طولها الزائد، فإن محاولة تركيب أحداثها أيضًا تؤثر سلبًا في استمتاع القارئ؛ إذ إنه يبذل مجهودًا مضاعفًا يشتت انتباهه بعيدًا عن التجربة الروائية، على الرغم من أن العملية التي يقوم بها عملية خلاّقة. كما يضيع حق المؤلف هنا إذ إنه من البديهي أن كاتبها يقول شيئًا محددًا (النص) لشخص آخر (القارئ) أي إنها محاولة للاتصال بين شخصين. فكيف إذن تلغي رواية (الكمبيوتر) التسلسل المتعمد للمؤلف الذي من المفترض أن يؤدي تأثيره المطلوب؟ ألا يعد هذا انتهاكًا لحق المؤلف على القارئ؟

رواية الإنترنت ومآخذها

إذا كان ما سبق عرضه قد أظهر تأثير (الكمبيوتر) بطريقة أو بأخرى في الرواية التقليدية، فإن الإنترنت قد أسهمت بدورها في رواج هذه الروايات، فالشبكة تقوم بدور هيئة التحكيم إذ إنها تختار أصلح الروايات لكل مؤسسة على حدة، وتطرح مسابقات، وترصد جوائز مالية كبيرة للفائزين. ولكن يؤخذ على مؤيدي تقديم الرواية عن طريق الإنترنت أنهم يفضلون الحقيقة النسبية أو التقديرية على الحقيقة الواقعية، كذلك فإنهم يفضلون القارئ الملم بلغة الأرقام على غيره الذي يعدّونه قاصرًا تقنيًا (تكنولوجيًا). وفي ظل هذا الاتجاه الرقمي يحدث التجني التقاني السافر على الحقيقة، وعلى الجانب الإنساني في الحياة. ولذلك فإن هذا الاتجاه المعارض لاستخدام (الكمبيوتر) و(الإنترنت) يطالب بعودة الكتاب المطبوع. فالمرء يستطيع أن يتسلل به إلى فراشه في أي وقت. كذلك فإن جامعي بيانات شبكة (الإنترنت) أو من نطلق عليهم اسم «المساحين» يعترفون بأهمية الكتاب المطبوع لأنهم يلجؤون إليه لتحليل الاتجاهات والمزايا في المادة المطروحة عبر الشبكة. ومع ذلك فلا ينفي ما قيل إن للإنترنت فضلاً على الكتب المطبوعة إذ يمكن عرض مقتطفات منها وسماع آراء القراء فيها، بل وتسجيلها مع النص نفسه مما يسهم في مزيد من الرواج لمبيعاتها.

ماذا عن الرواية البحثية؟

هناك سؤال يلح على بعضنا وهو: «إذا كان تقديم الرواية من حيث الوسيلة قد تغير، ومن ثم تغير شكلها، فما الجديد الذي يمكن أن تقدمه الرواية المطبوعة؟ والإجابة.. مادام العلم قد تغلغل في حياتنا بشكل غير مسبوق فلماذا لا ينعكس ذلك



الكتابة متعة: فهل سيتخلى عنها الإنسان؟

على الرواية التي تصور الإنسان من الداخل والخارج في أي مكان من العالم؟

هل نستطيع هنا القول بأننا مقبلون على عصر الرواية البحثية بعد رواج مؤلفات الخيال العلمي؟ وللتذكرة فالأولى تمزج بين المعلومة والحكاية (الحدوتة) العاطفية، بينما تعتمد الثانية على الاختراعات العلمية والمغامرات الخارقة.

وليس هذا محض تصور؛ إذ إن هناك بالفعل نماذج لي ولغيري من الرواية البحثية كما سبق أن ذكرت، بل إنني أعد رواية أستاذنا الكبير نجيب محفوظ «قلب الليل» ذات ملامح من الرواية البحثية، فهي تضم صفحات عديدة عن قوانين تحديد الملكية والإصلاح الزراعي وفرض الحراسات بل الآثار المترتبة عليها خلال حقبة زمنية معينة جاءت تفاصيلها على لسان بطل الرواية المذكورة، تمامًا مثل رواية «موي ديك» المشهورة للأمريكي هيرمان ميلتيك التي تضم دراسة شاملة عن الحيتان وطرائق صيدها.

ونعاود السؤال: هل ستظل الرواية التقليدية بشخصياتها وأحداثها اليومية المألوفة تستهوي القارئ الذي أتاح له (الكمبيوتر والإنترنت) التصرف في النص كما يشاء؟

لا جدال أن الإنسان المعاصر يحرص على المعلومة والمعرفة في المقام الأول ليقهر البيئة من حوله، وليتعلم بسرعة من الناجحين في الحياة العامة والخاصة. فلا وقت للأوهام أو التأمل المتأني.

إن الواقع بأبعاده المدروسة يفرض نفسه علينا في عالم الماديات وتقانة (تكنولوجيا) المعلومات. وفي اعتقادي أن التغيير الذي حدث في رواية «التأليف المتداخل» عبر (الكمبيوتر والإنترنت) سوف ينعكس بدوره على المضمون بدرجات متفاوتة في الرواية المطبوعة التي يجب أن تكتسب عناصر جذب جديدة حتى لقرائها التقليديين.

